



MISR UNIVERSITY  
ENGINEERING & TECHNOLOGY



جامعة المنصورة  
العلوم والآداب



MUST OPERA HOUSE

عدد خاص  
2022

مجلة جامعة مصر  
للدراستات الإنسانية

مقاربات اليوم العالمي  
للمخطوط العربي

أرز المخطوط في ميز العولمة



[www.must.edu.eg](http://www.must.edu.eg)



[Jhuman.studies@must.edu.eg](mailto:Jhuman.studies@must.edu.eg)

# عدد خاص

من

مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية

دورية علمية نصف سنوية محكمة

مقاربات اليوم العالمي للمخطوط العربي

"إرثنا المخطوط في زمن العولمة"

ISSN 2735-5861

الترقيم الدولي

ISSN 2735-587X

الترقيم الإلكتروني

مجلة رقم (2)

عدد خاص 2022م





## عن المجلة

مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية هي مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، بإشراف رئيس الجامعة، وتحمل رقم ISSN 2735-5861 للنشر الدولي & ISSN 2735-587X للنشر الإلكتروني، وهي مجلة دورية نصف سنوية تصدر في يناير ويولية من كل عام (عديدين عن اللغويات والآداب، وعديدين عن العلوم الاجتماعية والإنسانية).

وتنشر المجلة البحوث - باللغة العربية واللغات الأجنبية - التي لم يسبق نشرها في أوعية أخرى. كما تستوعب أنماط النشر العلمي المختلفة، كالبحوث والدراسات والمقالات العلمية والمراجعات النقدية والأعمال المترجمة، وأيضاً ملخصات رسائل الماجستير والدكتوراه، والمراجعات العلمية لأدبيات التخصص، وكذلك تقارير المؤتمرات والندوات وورش العمل.

وترحب المجلة بالأعمال البحثية الجادة المتخصصة في الدراسات الإنسانية، وما يتعلق بها من دراسات بينية تُثري نشراتها العلمية؛ حيث تهدف إلى بناء صرح ثقافي متميز، يعكس ريادة مصر العلمية في الشرق الأوسط، ويليق بمكانتها التاريخية والحضارية في العالم أجمع.

أ.د/ أنس الفقي

رئيس التحرير



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



## مجلس الإدارة

الصفة	الاسم
رئيس مجلس الإدارة	أ.د/ أشرف حيدر غالب رئيس الجامعة
نائب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	أ.د/ أنس عطية الفقي مدير مركز التراث العربي جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا
عضوًا	أ.د/ محمد إسماعيل حامد مستشار رئيس مجلس الأمناء ورئيس مركز النشر جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا
عضوًا	أ.د/ فوزية أبو الفتوح نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحوث جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا
عضوًا	أ.د/ هشام عطية عبد المقصود عميد كلية الإعلام وتكنولوجيا الاتصال جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا



- رئيس التحرير: أ.د/ أنس عطية الفقي.
- 
- مدير التحرير: أ.د/ أمينة محمد بيومي.
- 
- نائب رئيس التحرير: أ.د/ أحمد عادل عبد المولى.
- 
- مُساعدا رئيس التحرير:
- محمد مجدي لبيب.
- أحمد سامي المنجي.
- 
- مُحرر الصفحة الإلكترونية: شيماء محمد عرفة.
- 
- سكرتير التحرير: عزة مجدي.
-



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



## هيئة التحرير

م	الاسم	الوظيفة	البريد الإلكتروني
1	أ.د/ أحمد عمر هاشم	الرئيس الأسبق لجامعة الأزهر، وعضو هيئة كبار العلماء وعضو مجمع البحوث الإسلامية.	<a href="mailto:Mhashem1@hotmail.com">Mhashem1@hotmail.com</a>
2	أ.د/ عبد الحميد مذكور	الأمين العام لمجمع اللغة العربية	<a href="mailto:Drmadkour42@gmail.com">Drmadkour42@gmail.com</a>
3	أ.د/ أحمد فؤاد باشا	نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق	<a href="mailto:afbasha@gmail.com">afbasha@gmail.com</a>
4	أ.د/ محمد مهنا	مستشار شيخ الأزهر	<a href="mailto:mmehannam@yahoo.com">mmehannam@yahoo.com</a>
5	أ.د/ جمال عبد السميع الشاذلي	نائب رئيس جامعة القاهرة لشئون التعليم والطلاب	<a href="mailto:Gamalelshazly63@hotmail.com">Gamalelshazly63@hotmail.com</a>
6	أ.د/ هشام عطية عبد المقصود	عميد كلية الإعلام وتكنولوجيا الاتصال جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:drhishamattia1@gmail.com">drhishamattia1@gmail.com</a>
7	أ.د/ حسين إبراهيم مرسى	عميد كلية اللغات والترجمة جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:housaiyin2003@yahoo.com">housaiyin2003@yahoo.com</a>
8	أ.د/ أميمة الشال	عميد كلية الآثار جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:oms00@fayoum.edu.eg">oms00@fayoum.edu.eg</a>
9	أ.د/ ماجد محمود أبو العنين	عميد كلية التربية الخاصة جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:maged.abouelenain@must.edu.eg">maged.abouelenain@must.edu.eg</a>
10	أ.د/ عادل صالح محمد على	وكيل كلية اللغات والترجمة لشئون الدراسات العليا والبحوث - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:adelsaleh1@hotmail.com">adelsaleh1@hotmail.com</a>
11	Jeremy Munday	University of Leeds-UK.	<a href="mailto:J.munday@leeds.ac.uk">J.munday@leeds.ac.uk</a>
12	Stefan Esders	Freie Universitat Berlin, Germany	<a href="mailto:esdersst@zedat.fu-berlin.de">esdersst@zedat.fu-berlin.de</a>
13	Luca Zavagno	Arts - Eastern Mediterranean University, Cyprus.	<a href="mailto:luca.zavagno@emu.edu.tr">luca.zavagno@emu.edu.tr</a>
14	أ.د/ محمد مدين	أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:Dr.mmadian@yahoo.com">Dr.mmadian@yahoo.com</a>
15	أ.د/ أحمد مجدي حجازي	نائب رئيس جامعة 6 أكتوبر الأسبق، وعميد كلية الآداب جامعة القاهرة سابقاً.	<a href="mailto:magdhegazy47@gmail.com">magdhegazy47@gmail.com</a>
16	أ.د/ أمال الروبي	وكيل كلية الآثار جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:amalelrouby20@gmail.com">amalelrouby20@gmail.com</a>



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



<a href="mailto:malbakka45@yahoo.com">malbakka45@yahoo.com</a>	نائب رئيس جامعة الحسين بن طلال سابقًا المملكة الأردنية الهاشمية.	أ.د/ دياب البداينة	17
<a href="mailto:Mortada.moustafa@yahoo.com">Mortada.moustafa@yahoo.com</a>	عميد كلية الآداب جامعة عين شمس.	أ.د/ مصطفى مرتضى	18
<a href="mailto:shadia.ali@art.asu.edu.eg">shadia.ali@art.asu.edu.eg</a>	العضو المنتدب بالأمر المتحدة ومستشار وزير التعليم العالي سابقًا.	أ.د/ شادية قناوي	19
<a href="mailto:galal.abozaid@alsun.asu.edu.eg">galal.abozaid@alsun.asu.edu.eg</a>	مقرر لجنة ترقية الأساتذة "اللغة العربية وآدابها"	أ.د/ جلال أبو زيد	20
<a href="mailto:neyar2002@yahoo.com">neyar2002@yahoo.com</a>	أمين لجنة ترقية الأساتذة المساعدين "اللغة العربية وآدابها"	أ.د/ ندا الحسيني ندا	21
<a href="mailto:ragaa_eid@yahoo.com">ragaa_eid@yahoo.com</a>	عميد كلية التربية جامعة الفيوم الأسبق	أ.د/ رجاء أحمد محمد	22
<a href="mailto:aebrahim514@yahoo.com">aebrahim514@yahoo.com</a>	عميد كلية التربية النوعية جامعة المنيا	أ.د/ إبراهيم على إبراهيم	23
<a href="mailto:asubaie@su.edu.sa">asubaie@su.edu.sa</a>	وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود "الأسبق" عميد كلية المجتمع بشقراء سابقًا	أ.د/ عبد الله السبيعي	24
<a href="mailto:dakhil99@yahoo.com">dakhil99@yahoo.com</a>	رئيس الجمعية السعودية للدراسات الاجتماعية كلية الآداب جامعة الملك سعود	أ.د/ عبد العزيز بن عبد الله ابن سالم الدخيل	25
<a href="mailto:faalamr@uod.edu.sa">faalamr@uod.edu.sa</a>	عميد كلية التربية جامعة عبد الرحمن بن فيصل	أ.د/ فهد بن عبد الله	26
<a href="mailto:solali999@yahoo.com">solali999@yahoo.com</a>	رئيس هيئة تحرير مجلة جامعة الملك سعود (الآداب) سابقًا، ورئيس قسم التاريخ بكلية جامعة الملك سعود سابقًا	أ.د/ سليمان بن عبد الرحمن الذبيب	27
<a href="mailto:drssanie@hotmail.com">drssanie@hotmail.com</a>	كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية	أ.د/ صالح الصنيع	28
<a href="mailto:al-sejari.1@hotmail.com">al-sejari.1@hotmail.com</a>	رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية بكلية الآداب جامعة الكويت	أ.د/ مها مشاري السجاري	29
<a href="mailto:tawfiksaad@yahoo.com">tawfiksaad@yahoo.com</a>	كلية العلوم الاجتماعية جامعة الكويت.	أ.د/ توفيق محمد عبد المنعم	30
<a href="mailto:smsalama@iau.edu.sa">smsalama@iau.edu.sa</a>	رئيس المجلس العلمي - كلية الآداب جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل، المملكة العربية السعودية.	أ.د/ شويكار سلامة	31
<a href="mailto:malbakka45@yahoo.com">malbakka45@yahoo.com</a>	كلية الإعلام جامعة بغداد - العراق.	أ.د/ محمد جاسم البكا	32



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



<a href="mailto:dr.hassan.swadi@gmail.com">dr.hassan.swadi@gmail.com</a>	عميد كلية التربية للبنات جامعة ذي قار العراق.	أ.د/ حسن سوادي نجيبان	33
<a href="mailto:tatabenguermaz@yahoo.fr">tatabenguermaz@yahoo.fr</a>	كلية الآداب والفنون جامعة حسيبة بن بوعلي (الجزائر).	أ.د/ طاظا بن قرامز	34
<a href="mailto:nermine.elsharkawy@must.edu.eg">nermine.elsharkawy@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الألمانية - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	أ.م. د/ نيرمين أحمد الشرفاوي	35
<a href="mailto:osama.ahmed@must.edu.eg">osama.ahmed@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الفرنسية - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ أسامة عبد الجليل	36
<a href="mailto:sayed_fuzzylogic@yahoo.com">sayed_fuzzylogic@yahoo.com</a>	كلية الآداب - قسم الفلسفة بجامعة بورسعيد	د/ السيد عبد الفتاح جاب الله	37
<a href="mailto:Drhanan.shokry@yahoo.com">Drhanan.shokry@yahoo.com</a>	قسم اللغة العربية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ حنان السيد شكري	38
<a href="mailto:g.f.tahan@gmail.com">g.f.tahan@gmail.com</a>	خبير الترجمة الإنجليزية والمدرس بجامعة الأزهر	د/ جمال الطحان	39
<a href="mailto:Hanan.ebody@must.edu.eg">Hanan.ebody@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ حنان جمال عبيدي	40
<a href="mailto:ashraf_kaoud123@yahoo.com">ashraf_kaoud123@yahoo.com</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ أشرف قاعود	41
<a href="mailto:amado20007@hotmail.com">amado20007@hotmail.com</a>	قسم التفكير العلمي جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ أحمد حمدي	42
<a href="mailto:sss_emam@yahoo.com">sss_emam@yahoo.com</a>	قسم اللغة الإنجليزية أكاديمية الفنون	د/ سالي محمد إمام الأشقر	43
<a href="mailto:nagwa.kassem@must.edu.eg">nagwa.kassem@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الإيطالية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ نجوى إبراهيم قاسم	44
<a href="mailto:amany.mohamed@must.edu.eg">amany.mohamed@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ أماني محمد عبد السلام هارون	45
<a href="mailto:shimalefky5@gmail.com">shimalefky5@gmail.com</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	م.م/ شيماء صلاح الدين	46
<a href="mailto:hanan.mansour@must.edu.eg">hanan.mansour@must.edu.eg</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	د/ حنان منصور أحمد راضي	47
<a href="mailto:yousragamal728@yahoo.com">yousragamal728@yahoo.com</a>	قسم اللغة الإنجليزية جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	يسرا جمال الدين محمود	48

## الهيئة الاستشارية

م	الاسم	الوظيفة	الجامعة	البريد الإلكتروني
1	أ.د./ شريف رفعت عبد الفتاح السيد	نائب رئيس الجامعة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:sherif.refaat@must.edu.eg">sherif.refaat@must.edu.eg</a>
2	أ.د./ مختار الظواهري	نائب رئيس الجامعة للمتابعة والتوثيق الأسبق	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:Mokhtar.elzawahry@must.edu.eg">Mokhtar.elzawahry@must.edu.eg</a>
3	أ.د./ عمرو الليثي	مدير مركز الرأي العام	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:Ellissyamr@yahoo.com">Ellissyamr@yahoo.com</a>
4	أ.د./ مصطفى الفقي	مدير مكتبة الإسكندرية	مكتبة الإسكندرية	<a href="mailto:Mostafa.elfeki@bi-balex.org">Mostafa.elfeki@bi-balex.org</a>
5	أ.د./ نبيل الزهار	عميد كلية التربية الخاصة سابقاً	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:nzahhar@gmail.com">nzahhar@gmail.com</a>
6	أ.د./ كمال عرفات نبهان	عميد المكتبات الجامعية	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:Kamal.Mohamed.Arafat@gmail.com">Kamal.Mohamed.Arafat@gmail.com</a>
7	أ.د./ صلاح فضل	رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة	مجمع اللغة العربية	<a href="mailto:drsalahfadl@gmail.com">drsalahfadl@gmail.com</a>
8	أ.د./ عيد علي مهدي بلبع	عضو مجلس الشيوخ المصري 2020 - عميد كلية الآداب الأسبق	جامعة المنوفية	<a href="mailto:eidbalbaa333@gmail.com">eidbalbaa333@gmail.com</a>
9	Betsy .Professor Bryan	Institute of ancient near - eastern studies	Johns hope kens university	<a href="mailto:betsy.bryan@jhu.edu">betsy.bryan@jhu.edu</a>
10	Prof. Jennifer Johnson-Hanks	Berkeley faculty -	University of California	<a href="mailto:acad_sen@berkeley.edu">acad_sen@berkeley.edu</a>
11	أ.د./ محمد عباس حسين	مقرر اللجنة العلمية لترقية أعضاء هيئة التدريس "علم الاجتماع"	جامعة الإسكندرية	<a href="mailto:mo_abbas8@hotmail.com">mo_abbas8@hotmail.com</a>
12	أ.د./ أميرة أحمد الجعفري	عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية	وكيل جامعة عبد الرحمن بن فيصل	<a href="mailto:Vp.fa@iau.edu.sa">Vp.fa@iau.edu.sa</a>
13	أ.د./ احمد محمود حفني مصطفى	مدير مركز ضمان الجودة	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	<a href="mailto:Ahmed.hefny@must.edu.eg">Ahmed.hefny@must.edu.eg</a>



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



<a href="mailto:drmsayed@hotmail.com">drmsayed@hotmail.com</a>	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	أستاذ اللغويات ورئيس قسم اللغة الإنجليزية، المتطلبات الجامعية	أ.د/ محمد سيد علي	14
<a href="mailto:szabadr@yahoo.com">szabadr@yahoo.com</a>	جامعة بور سعيد	عميد كلية الآداب	أ.د/ بدر عبد العزيز بدر	15
<a href="mailto:hrm00@fayoum.edu.eg">hrm00@fayoum.edu.eg</a>	جامعة دمياط	نائب رئيس الجامعة لشئون الدراسات العليا وعميد كلية الآثار	أ.د/ حمدان ربيع	16
<a href="mailto:aam02@fayoum.edu.eg">aam02@fayoum.edu.eg</a>	جامعة الفيوم	وكيل كلية الآداب لشئون التعليم والطلاب	أ.د/ أحمد عبد العزيز بقوش	17
<a href="mailto:mhseg@mans.edu.eg">mhseg@mans.edu.eg</a>	جامعة المنصورة	عضو لجان الجودة لاعتماد الجامعات المصرية	أ.د/ مها عبد اللطيف السجيني	18
<a href="mailto:ibr.alshammary@uoh.edu.sa">ibr.alshammary@uoh.edu.sa</a>	جامعة حائل السعودية	رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب	أ.د/ إبراهيم بن سعيد الهليل الشمري	19
<a href="mailto:Lettresfrancaismenufieh@gmail.com">Lettresfrancaismenufieh@gmail.com</a>	فرنسا	المستشار الثقافي لمصر بفرنسا	أ.د/ نور محمد السبكي	20
<a href="mailto:Khaledma1@hotmail.com">Khaledma1@hotmail.com</a>	الإمارات	مستشار الحلول المعرفية والرقمية مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة	أ.د/ خالد عبد الفتاح موسى	21
<a href="mailto:kqutb@qa.edu.qa">kqutb@qa.edu.qa</a>	جامعة قطر	أستاذ فلسفة العلوم بكلية الآداب	أ.د/ خالد أحمد قطب	22
<a href="mailto:profdrmedhat@hotmail.com">profdrmedhat@hotmail.com</a>	جامعة حلوان	مقرر لجنة ترقية الأساتذة "الخدمة الاجتماعية"	أ.د/ مدحت محمد أبو النصر	23
<a href="mailto:mas12@fayoum.edu.eg">mas12@fayoum.edu.eg</a>	المجمع العلمي	رئيس المجمع العلمي	أ.د/ محمد عبد الرحمن الشرنوبى	24
<a href="mailto:esa00@fayoum.edu.eg">esa00@fayoum.edu.eg</a>	جامعة الفيوم	خبير بمجمع اللغة العربية وكيل كلية دار العلوم لشئون الدراسات العليا الأسبق	أ.د/ عصام عامرية	25
<a href="mailto:Desoky49@arts.ps.u.edu.eg">Desoky49@arts.ps.u.edu.eg</a>	جامعة بور سعيد	عميد كلية الآداب السابق	أ.د/ محمد عثمان دسوقي	26
<a href="mailto:mailto:almory54@yahoo.com">mailto:almory54@yahoo.com</a>	جامعة الزقازيق	عضو لجنة الترقيات " علم نفس"	أ.د/ محمد المري	27
<a href="mailto:modhendy@bsu.edu.eg">modhendy@bsu.edu.eg</a>	جامعة بني سويف	عميد الكلية التربوية	أ.د/ محمد حماد هندي	28



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



<a href="mailto:ysm00@fayoum.edu.eg">ysm00@fayoum.edu.eg</a>	جامعة الفيوم	عميد كلية التربية الأسبق	أ.د/ يوسف سيد محمود	29
<a href="mailto:abdelazizesayed@yahoo.com">abdelazizesayed@yahoo.com</a>	جامعة بني سويف	عميد كلية الإعلام	أ.د/ عبد العزيز السيد عبد العزيز سليم	30
<a href="mailto:kak00@fayoum.edu.eg">kak00@fayoum.edu.eg</a>	جامعة الفيوم	رئيس لجنة ترقيات الأساتذة بدبي عميد كلية دار العلوم "سابقاً"	أ.د/ خليل عبد العال خليل	31
<a href="mailto:sahinnawy@yahoo.co.uk">sahinnawy@yahoo.co.uk</a>	جامعة حلوان	عضو لجنة الترقيات "علم النفس التربوي"	أ.د/ سلوى عبد الباقي	32
<a href="mailto:atf.aoudallah@ust.edu.eg">atf.aoudallah@ust.edu.eg</a>	جامعة حلوان	عميد كلية الآداب "سابقاً"	أ.د/ عاطف عبد السلام عوض الله	33
<a href="mailto:Samir.adib@must.edu.eg">Samir.adib@must.edu.eg</a>	جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا	رئيس قسم الآثار المصرية	أ.د/ سمير أديب عزيز	34
<a href="mailto:nagwasamak@ymail.com">nagwasamak@ymail.com</a>	جامعة القاهرة	رئيس قسم الاقتصاد كلية الاقتصاد والعلوم السياسية	أ.د/ نجوى سمك	35
<a href="mailto:saeed.alwakeel@gmail.com">saeed.alwakeel@gmail.com</a>	جامعة عين شمس	رئيس تحرير مجلة حوليات كلية الآداب ووكيل الكلية السابق	أ.د/ سعيد الوكيل	36
<a href="mailto:h5a00@fayoum.edu.eg">h5a00@fayoum.edu.eg</a>	جامعة الفيوم	عضو مجلس تحرير - ومحكم مجلة International Journal of Geography and Regional Planning (Premier Publishers)	أ.د/ هاني سامي عبد العظيم	37
<a href="mailto:aboelnor66@cu.edu.eg">aboelnor66@cu.edu.eg</a>	جامعة القاهرة	وكيل كلية التربية النوعية لشئون الدراسات العليا	أ.د/ محمود أبو النور	38
<a href="mailto:moataz@cu.edu.eg">moataz@cu.edu.eg</a>	جامعة قطر	معهد الدوحة للدراسات العليا	أ.د/ المعتز بالله السعيد	39
<a href="mailto:mffbayomy@yahoo.com">mffbayomy@yahoo.com</a>	جامعة المنوفية	كلية العلوم	أ.د/ محمد فتحي فرج بيومي	40
<a href="mailto:ghalabes@hotmail.com">ghalabes@hotmail.com</a>	جامعة كفر الشيخ	عميد كلية الألسن	أ.د/ عبد الحميد غلاب	41
<a href="mailto:MohamedKahlawy@hotmail.com">MohamedKahlawy@hotmail.com</a>	جامعة القاهرة	عضو اللجنة التخصصية العليا لقطاع الدراسات الأدبية والآثار بالمجلس الأعلى للجامعات ورئيس اللجنة العلمية لترقية الأساتذة - كلية الآثار	أ.د/ محمد الكحلوي	42

\*\*\*

## قواعد النشر في المجلة

1. تنشر المجلةُ البحوث - باللغة العربية أو اللغات الأجنبية - التي لم يسبق نشرها في أوعية أخرى.
2. تصدرُ المجلةُ نصف سنوية، وتقبلُ نشرَ البحوثِ في أوعيتها المتخصصة وفق التصنيف:
  - العلوم الاجتماعية والإنسانية.
  - اللغويات والآداب.
3. يُقبل للنشر في المجلة البحوثُ النظرية والتطبيقية والمقالات التي تتميز بالأصالة، والتي تسهم في تقدّم المعرفة الإنسانية، وتُصنّف المواد التي تقبلها المجلة للنشر إلى الأنماط التالية:
  - البحوث والدراسات.
  - المقالات العلمية.
  - المراجعات النقدية.
  - الأعمال المترجمة.
  - المراجعات العلمية لأدبيات التخصص.
  - ملخصات رسائل الماجستير والدكتوراه.
  - تقارير المؤتمرات والندوات وورش العمل.
  - عروض الكتب مجالات الآداب واللغات والإنسانيات والعلوم الاجتماعية.
4. تخضعُ الأعمالُ المقدّمة للتحكيم العلمي السري (المعمي) وفقاً للنظام المتبع في المجلة؛ وتلبيةً لمعايير تصنيف المجلات العلمية التي أقرّها المجلس الأعلى للجامعات.

5. لا تخضع الأعمال المقدمة للنشر من قبل الأساتذة - درجة أستاذ - للتحكيم المعمي.
6. الباحث مسئولٌ عن بحثه مسئولية كاملة، وملتزمٌ بإرسال بحثه مُعرِّفًا باسم الباحث كاملاً، والدرجة العلمية، والمؤسسة المنتمي لها، كما يقدِّم الباحث إقرارًا كتابيًا مهوورًا بتوقيعه بأن البحث المقدم لم يسبق نشره في أي مجلةٍ علميةٍ أو مؤتمرٍ علميٍّ أو غير ذلك.
7. يُراعى في البحث أن يتميز بالأصالة، وأن يكون إضافةً للتراكم العلمي، ويسهم في ثراء المعرفة الإنسانية، وأن يكون مستوفياً للجوانب العلمية بما في ذلك عرض الأسس النظرية والمنهجية المتبعة في استخلاص النتائج ومناقشتها.
8. يُشترط رفع البحث على موقع المجلة مقروناً بملخص باللغة العربية والإنجليزية لكافة بحوث اللغات، عدا اللغة الفرنسية يقتصر ملخصها على العربية والفرنسية.
9. يُكتبُ البحثُ باستخدام برنامج Microsoft Office Word 2010 أو ما بعده، ونوع الخط Simplified Arabic للكتابة باللغة العربية، و Times New Roma للكتابة باللغة الإنجليزية، ونوع الصفحة (B5)، وبنط الخط 14 للمتن و16 للعناوين الفرعية، وهوامش (3 سم في الجوانب الأربعة للصفحة)، والمسافة بين الأسطر 1.15 سم، مع الالتزام الدقيق بنظام التوثيق الذي تتبعه المجلة حالياً وهو نظام (APA) أو نظام مدرسة شيكاغو (Chicago)، سواء في التوثيق في متن البحث أو في تسمية الجداول والأشكال أو تنسيق العناوين أو قائمة المراجع، ونحو ذلك مما لا يخالف هذا النظام.
10. ألا يزيد حجم البحث عن 30 صفحة كحد أقصى، ويُرفق ملخص للبحث في حدود (200) كلمة، و مترجم باللغة الإنجليزية.

11. يتم إرسال البحث لاتخاذ الإجراءات الخاصة بالتحكيم من خلال الموقع الإلكتروني للمجلة

على بنك المعرفة المصري [/https://mjoms.journals.ekb.eg](https://mjoms.journals.ekb.eg)

12. توجه جميع المراسلات الخاصة بالنشر في المجلة إلى رئيس التحرير - عميد المتطلبات الجامعية بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا - لاتخاذ إجراءات التحكيم عبر الموقع الإلكتروني للمجلة.

13. يُسَدِّدُ الباحثُ رسومَ التحكيم والنشر كاملةً قبل الشروع في التحكيم وفقاً للمواصفات الفنية للبحث، كما ورد سابقاً في البنود (6,8,9,10)

14. يُرفعُ البحثُ على موقع المجلة بالتنسيق المذكور في بند (9)، ودون أخطاء لغوية أو مطبعية، وفي حال ورود ملاحظات لغوية يُسَدِّدُ الباحثُ للمجلة رسوم المراجعة.

15. بعد تحكيم البحث وإعادته للباحث لاستيفاء ملاحظات المحكمين، يُعادُ لمدير التحرير للمراجعة بهدف النشر النهائي، ثم يُرسلُ إلى مسئول النشر الإلكتروني؛ لرفع البحث عبر موقع المجلة في صورته النهائية القابلة للنشر، وبعدها يحصلُ الباحثُ على إفادة بقبول بحثه للنشر إلكترونياً، ويُدرجُ ضمن الخطة الزمنية للنشر بالمجلة.

16. الأبحاث التي ترد للمجلة يجب ألا يكون لها أغراض دينية أو سياسية، وإنما أبحاث علمية في مجالات تخصص المجلة -المشار إليها سابقاً- بمختلف فروعها. وكلُّ ما يردُّ من أبحاثٍ تعبّر عن وجهة نظر الباحث وتحت مسؤوليته.

17. يحقُّ للجامعة إعادة نشر محتويات المجلة إلكترونياً، أو المشاركة في قواعد البيانات والمواقع الإلكترونية دون الرجوع للباحثين بالموافقة.



## المراسلات

❖ تُرسلُ البحوثُ إلكترونيًا لاتخاذ الإجراءات الخاصة بالتحكيم عبر: موقع "مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية" على بنك المعرفة المصري:

<https://mjoms.journals.ekb.eg/>

❖ أو من خلال البريد الإلكتروني لمجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية:

[Jhuman.studies@must.edu.eg](mailto:Jhuman.studies@must.edu.eg)

❖ موقع جامعة مصر لإرشاد الباحثين حول آلية رفع الأبحاث على موقع المجلة:

<https://admission.must.edu.eg/MUST-Journal>

\*\*\*\*\*

## رسوم النشر في المجلة

### ➤ الباحثون من داخل مصر:

#### أولاً: الباحثون المصريون من داخل الجامعة:

رسوم النشر الإلكتروني للهيئة المعاونة 400 جنيه، ولأعضاء هيئة التدريس 700 جنيه لأول 30 صفحة B5 بمواصفات المجلة، يُضاف 20 جنيهاً لكل صفحة زائدة بعد أقصى 40 صفحة لإجمالي البحث، بالإضافة إلى رسوم التحكيم المقررة وقدرها 600 جنيه لعدد (2) محكّمين، وفي حالة الاحتياج لمحكّم ثالث تتم إضافة 300 جنيه أخرى كرسوم تحكيم.

#### ثانياً: الباحثون المصريون من خارج الجامعة

رسوم النشر الإلكتروني للباحثين من خارج الجامعة 800 جنيه لأول 30 صفحة B5 بمواصفات المجلة، يُضاف 20 جنيهاً لكل صفحة زائدة بعد أقصى 40 صفحة لإجمالي البحث، بالإضافة إلى رسوم التحكيم المقررة وقدرها 600 جنيه لعدد (2) محكّمين، وفي حالة الاحتياج لمحكّم ثالث تتم إضافة 300 جنيه أخرى كرسوم تحكيم.

### ➤ الباحثون من خارج مصر:

تبلغ رسوم النشر الإلكتروني 250 دولار لأول 30 صفحة B5 بمواصفات المجلة، يُضاف 5 دولارات لكل صفحة زائدة، بالإضافة إلى رسوم التحكيم المقررة وقدرها 150 دولار لعدد (2) محكّمين، وفي حالة الاحتياج لمحكّم ثالث تتم إضافة 75 دولار أخرى كرسوم تحكيم.



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



## محتويات العدد

م	الموضوع	الصفحات
1	"بين يدي العدد" بقلم رئيس التحرير	20 - 19
2	الكلمات الافتتاحية في الاحتفال بيوم المخطوط العربي	40 - 21
3	الصور التوثيقية	48 - 41
4	البحوث والدراسات المُصاحبة	322 - 49
5	التراث الصوفي ودوره في إصلاح منظومة القيم في العصر الحديث أ.د/ أنس عطية الفقي	76 - 49
6	نحو مشروع توثيقي لمخطوط علماء التراث العربي (في عصر العولمة) أ.د/ أحمد عادل عبد المولى	112 - 77
7	فقه التّعائش عند ابن حزم أ.د/ عبد الحميد عبد المنعم مذكور	166 - 113
8	عبريّة التّأليف العلمي عند العرب "مقالة في ضوء القمر لابن الهيثم أنموذجًا" أ.د/ أحمد فؤاد باشا	183 - 167
9	نحو إستراتيجية للعمل في التراث العربي المخطوط أ.د/ كمال عرفات نبهان	199 - 185
10	الزراعة في التراث العربي أ.د/ عبد الفتاح غنيمة	243 - 201
11	التقنيات الفلاحية في التراث العربي "تطعيم الأشجار المثمرة بين السمات الإنتاجية والخصائص الطبّية أنموذجًا" أ.د/ محمود مهدي بدوي	273 - 245
12	رسالة في الطريق إلى ثقافتنا "محمود شاكر: قراءة في خطاب التأسيس والغضب والتجاوز" أ.د/ خالد فهمي إبراهيم	292 - 275
13	تراثنا سراج هويتنا "ضرورة الحفاظ عليه في عصر العولمة" أ.د/ محمد فتحي فرج	313 - 293
14	لفتة إعلامية الإعلام والتراث العربي المخطوط أ/ عبد الرحمن هاشم	322 - 315



## بين يدي هذا العدد

### بقلم رئيس التحرير

انطلاقاً من حرصها على إحياء التراث العربي المخطوط بعلمه المتعددة، وتحقيقاً لرسالتها في البحث العلمي وخدمة المجتمع، بادرت جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا - منذ أكثر من عشر سنوات - بإنشاء مركز تحقيق التراث العربي، الذي أصبح اليوم - بإنجازاته المتنوعة - من أبرز المؤسسات التراثية في الوطن العربي. فقد بلغ عدد إصداراته أكثر من خمسين مجلداً وذلك في شتى مجالات العلوم التراثية، بين المحقق والمؤلف والمترجم. ومن هذه الإصدارات ما حصل على جوائز دولية ووطنية، ككتاب "المغني" لابن البيطار الصادر في (4 مجلدات) والحائز على جائزة أحسن كتاب محقق لعام 2019م في معرض القاهرة الدولي للكتاب، وكتاب "تلخيص البيان في مجازات القرآن" للشريف الرضي، والحائز على جائزة مجمع اللغة العربية.

ونظراً لهذه المكانة التي تبوأتها جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا في مجال خدمة التراث العربي، وقع عليها اختيار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) التابعة لجامعة



الدول العربية، وذلك لاستضافة الاحتفالية الدولية بيوم المخطوط العربي؛ حيث اعتاد معهد المخطوطات العربية التابع لـ (الأنكسو) - وهو ذو تاريخ معروف في خدمة التراث العربي- أن ينظم هذه الاحتفالية الكبرى في مطلع شهر أبريل من كل عام، إحياءً للتراث العربي، وتكريماً للمؤسسات والشخصيات التي قدمت أعمالاً متميزة في خدمة التراث العربي.

وتتشرف مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية أن تصدر هذا العدد الخاص توثيقاً لهذه المناسبة التراثية العظيمة، وما صاحبها من مقاربات بحثية شارك بها مجموعة من كبار العلماء المهتمين بالتراث العربي ودوره المرتقب في إنكفاء الوعي العام بالجزور الثقافية وما يمكن أن تضيفه في عصر العولمة من ترسيخ الهوية، وبناء نهضة حضارية أصيلة تستلهم التاريخ وتصنع المستقبل.

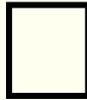
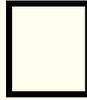
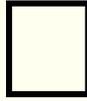


مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



الكلمات الافتتاحية في الاحتفال

□ بيوم المخطوط العربي





# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية





## كلمة الأستاذ الدكتور أشرف حيدر غالب رئيس جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا في الاحتفال بيوم المخطوط العربي

السادة الحضور الكرام، يسعدني أن أرحب بحضراتكم جميعاً، وأن أنقل إلى حضراتكم تحية وترحيب سعادة الأستاذ خالد الطوخي رئيس مجلس الأمناء، كما يسعدني حقاً أن تحتضن جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا هذه الاحتفالية الكبيرة بيوم المخطوط العربي، الذي يمثل بالنسبة لنا جميعاً الهوية الحضارية، والجزور الأصلية التي نعتز بها، ونفخر بالانتماء إليها.

ولذلك فإننا نشكر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الأستاذ الدكتور محمد ولد أعمر والسيد الدكتور مراد الريفي مدير معهد المخطوطات العربية على اختيار جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا للمشاركة في رعاية هذا الاحتفال الكبير.

لقد وفقنا الله تعالى في هذه الجامعة أن نسهم في هذا المجال الحيوي حين بادرنّا إلى إنشاء مركزٍ لتحقيق التراث العربي، ليكون نبراساً ورائداً تسيّر على خطاه سائر الجامعات العربية، وقد اعتبرنا ذلك واجباً قومياً والتزاماً

أخلاقياً، فمن لا ماضي له لا حاضر له، ولا ثمارٍ بغير جذور، بل لا ظلالٍ بغير جذور، وهذا الأمر في حد ذاته يمثل بالنسبة لنا جزءاً لا يتجزأ من رسالة الجامعة في مجالين أساسيين متلازمين هما خدمة المجتمع، والبحث العلمي.

وقد حرصنا في إصدارات هذا المركز الواعد أن نجتمع بين تحقيق المخطوطات التراثية، وآخر المستجدات العلمية الحديثة في ذات التخصص، وذلك من خلال إسناد أعمال المراجعة والتعليق إلى نخبة من الأساتذة المتخصصين في المجال المراد تحقيقه، بما يحقق الفائدة ويؤكد العلاقة بين أصل العلم ومراحل تطوره، ولا يخفى ما لهذا الأمر من أهمية بالغة في بناء جيلٍ متمكنٍ من علماءٍ عربٍ يستطيعون أن ينافسوا في عصر العولمة.

والحقيقة أنَّ العنوان الذي اختارته الجامعة العربية لهذه الاحتفالية وهو "إرثنا المخطوط في زمن العولمة" يمثل إشارة واضحة إلى هذا التحدي الكبير، الذي يجب أن نخوض غماره إذا أردنا - بحقٍ - أن نسير في ركب التقدم العلمي الحديث.



## مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



إنَّ سعادتِي غامرةٌ بهذه الصَّخوةِ التي تتبَّناها الجامعةُ العربيَّة، مُمثلةً  
في المنظمةِ العربيَّةِ للتربيةِ والثقافةِ والعلوم، ومؤسَّساتِها التراثيةِ والبحثيةِ،  
وبخاصةِ معهدِ المخطوطاتِ العربيَّة الذي يتميَّزُ بأنشطتهِ المتعددةِ وجهودهِ  
الكبيرةِ في خدمةِ التراثِ العربيِّ.

فشُكري وتقديري لكلِّ الحضورِ الكرام، وأهلاً ومرحباً بكم في رحابِ  
جامعةِ مصرَ للعلوم والتكنولوجيا التي تعتنُ بِهويَّتها المصريَّة العربيَّة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية





## كلمة الأستاذ الدكتور محمد ولد أمير المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ألكسو

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه،  
سعادة الأستاذ خالد الطوخي، رئيس مجلس أمناء جامعة مصر للعلوم  
والتكنولوجيا، أصحاب المعالي والسعادة، الحضور الكريم، إنّه لمن دواعي  
سعادتي أن أشارككم اليوم الاحتفاء بيوم المخطوط العربي في دورته العاشرة،  
هنا برحاب جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، بحاضرة القاهرة، مؤئل الإشعاع  
الثقافي والحركية الفكرية الرائدة. ويزيد من غبطني، تشريف هذا اليوم بحضور  
ثلة من الشخصيات الكريمة.

هذا اليوم، الذي حظي منذ إقراره من طرف مؤتمر الوزراء المسؤولين  
عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي عام (2013)، باهتمام خاص من  
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من خلال سعيها الدؤوب إلى جعله  
يتجاوز الاحتفاء الرمزي بالمخطوط العربي، نحو المناسبة التي تُكَلِّلُ حصيلة  
سنة كاملة من المبادرات والإنجازات والممارسات الفضلى في حقل التراث الفكري

العربي، بما ينسجم مع رؤية المنظمة لتدبير حقل التراث الثقافي العربي، وفق ما ترسمه توجّهات الخطة الشاملة للثقافة العربية.

وبالفعل، فقد أضى يوم المخطوط العربي كما سنشهد في هذه الاحتفالية، مناسبة لتعزيز وعي الأجيال العربية بأهمية تراثهم الفكري في بناء انتمائهم الحضاري، ولتنسيق الاحتفاء بهذا اليوم بجلب رُبوع الوطن العربي، عبر إقامة فعاليات متنوعة تمتد طيلة شهر أبريل، وخصوصاً لتقييم حصيلة سنة كاملة من العمل في حقل التراث الفكري والمعرفي العربي، من خلال اختيار وتكريم مؤسسة العام التراثية، وشخصية العام للبحث التراثي، وكتاب العام التراثي. كما أصبحت فعاليات كل دورة تنتظم وفق موضوع رئيسي، يكون بمثابة البوصلة التي توجه مجموع الفعاليات المنظمة من طرف مؤسسات ومراكز تراث المخطوط على امتداد البلاد العربية. وقد اختار معهد المخطوطات العربية، جهاز المنظمة المتخصص، كموضوع رئيس لهذا العام: "إرثنا المخطوط في زمن العولمة"، وهو الاختيار الذي نراه موفّقاً بالنظر إلى راهنية الموضوع، وما يطرحه من تحديات وإشكالات تهم سبل ومناهج الانخراط الفاعل لثرائنا الفكري والمعرفي في المشهد الثقافي العربي والعالمي، في زمن أضحت فيه التحولات المتسارعة والمتغيرات

البنوية التي تجرّها العولمة الثقافية، تفرض على أهل التراث، ملاءمة أهدافهم وأولوياتهم وخططهم التنفيذية على ضوء مستجدات زمن العولمة، بالعمل على مواجهة سلبياته والإفادة من إمكانياته الهائلة. كما أننا نعتبر اختيار المعهد لجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، كشريك في تنظيم هذا الحدث، مؤقفاً كذلك، بالنظر إلى كونه جاء منسجماً مع موضوع الحدث، لمكانة هذه الجامعة العضو في اتحاد الجامعات العربية، في البحث العلمي الجامعي المواقب لآخر المستجدات الأكاديمية لزمن العولمة.

أصحاب المعالي والسعادة، الحضور الكريم، ما زال تراثنا المخطوط يواجه تحديات جمة في جميع مستويات الاشتغال فيه، صيانةً وتجميعاً ونشرًا وتعريفًا وتوظيفًا، فهو تراث يفوق الثلاث ملايين مخطوط، منها ما عرفت مظاهرها ومنها ما لم تصله يد الباحثين. وقد اضطلع معهد المخطوطات العربية منذ إنشائه سنة 1946، بتصوير جزء مهم من هذا التراث المتناثر بالدول العربية وبدول العالم، وعمل على وضع الأسس المرجعية لتحقيقه وفهرسته ودراسته النقدية وإتاحة بياناته الببليوغرافية في قاعدة بياناته النديم؛ ونهضت العديد من المراكز والمؤسسات بالدول العربية وبالعالم، بأدوار رائدة مكنت من التعرف على جزء

كبيرٍ من هذا التراث، كما مكنت المكتبات الوطنية العربية من تجميع أرصدة نَفيسة كَشَفَت للعالم، غنى التراثِ الفِكْرِيِّ والرصيدِ الحضاريِّ للوطنِ العربي، ومدى مساهمته في مسيرة المعرفة الإنسانية والبناء الحضاري الكوني. بيد أن الطفرة التَّواصلية الكبيرة التي أتاحتها شبكَةُ الأنترنت وبرمجيَّات قواعد البيانات والتخزين السَّحابي، وتقنيات الرِّقْمَةِ والتصوير، فَتَحَتْ مَعَ مَطْلَعِ الألفِيَةِ الثالثة، عهداً جديداً أمامَ الباحثين والمهتمين، وأضحتْ صُورُ المخطوطات التي كانت تُشَدُّ إليها الرِّحالُ، تُسحبُ بِضَغْطَةِ زرٍّ، والفهارسُ والكشَافَاتُ التي كانت السِّرَّ المكنونَ لِجَهَابِذَةِ الباحثين والمُحَقِّقين، جُمِعَتِ العديداً منها في قواعد البيانات المتاحة، وتوجَّهتِ الدراساتُ من المثونِ إلى خَوارِجِ النَّصِّ وإلى وعاءِ المخطوطِ المادي الذي تحوَّلَ إلى مُرْشِدٍ حَقِيقِيٍّ عَن عَتَمَاتِ النَّصِّ وتفصيلهِ المُسْتَعْصِيَةِ، في إطارِ عِلْمِ الكُودِيكُولُوجيا المُسْتَجَدِّ. وأمامَ هذه المَكاسِبِ الجَدِيدَةِ التي أتاحتها زمنُ العَوْلَمَةِ، مازالَ العالمُ العربيُّ لَمْ يُصْدِرْ بَعْدُ فَهْرَساً شاملاً لتراثِهِ المخطوطِ، كما لم يتمكن من توطِينِ عِلْمِ كُودِيكُولُوجيا عربيَّة، وما زالتِ المحاولاتُ متواصلةً لإصدارِ بوابةٍ إلكترونيةٍ عربيَّةٍ موحدةٍ للمخطوطِ العربي، وما زالتِ الحاجةُ ماسَّةً إلى مركزٍ عربيٍّ لصيانةٍ وترميمٍ المخطوطِ، وما زالَ تحقيقُ التراثِ العربي لا يتوفَّرُ على

إطار مرجعي توجيهيّ موحّد. هذه التحديات وغيرها كثير، هي التي فرضت اختيار عنوان "إرثنا المخطوط في زمن العولمة"، بُغية استثمار يوم المخطوط العربي لهذه السنة، للتفكير حول واقع ثرائنا على ضوء مستجدات العصر وما فرضته من تأثيرات سلبية على توظيف هذا التراث، وما تتيحه في نفس الوقت، من وسائل جديدة تفتح أمام هذا التشغيل الحضاري لإرثنا الفكري والعلمي، إمكانات غير مسبوقة. وفي هذا المضمار، من بين الجهود المباركة لمؤسسات التراث العربية، والباحثين الراسخين في الميدان، تميزت مسارات استحقاق التكريم والعرافان، وهو التكريم الذي يعتبره معهد المخطوطات العربية، اعترافاً وثناءً على هذه الجهود التي لولاها ما استمرّ وهج وحضور هذا التراث العربي في المشهد الثقافي. فهدياً لإدارة الملك عبد العزيز والممثلة في هذه الاحتفالية بمعالى أمينها العام الأستاذ الدكتور فهد عبد الله السّمّاري، ولأستاذ الدكتور عبد الستار الحلّوجي، ولحقوقي كتاب "المحلّى شرح المجلّى" وعلى رأسهم، المحقق المتمرس الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف.



## مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



كما لا تفوتني هذه المناسبة، دُونَ أن أتوجه إلى الأستاذ خالد الطُوحِي، رئيس مجلس أمناء جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، على ما قدّمه لهذا الحدث، مِنْ دَعْمٍ مُعْتَبَرٍ باستضافة الجامعة لفعالياته، وهي الجامعة التي حرصت بالإضافة إلى اهتمامها بالعلوم والتكنولوجيا، أن تُفردَ اهتماماً خاصاً لدراسة تراث المخطوط من خلال مركز تحقيق التراث العربي، الذي نُوجّه له شُكراً خاصاً على تعاونه مع معهد المخطوطات العربية في تنظيم هذا الحدث.

وأجدُّ شُكري لِكُلِّ مَنْ سَاهَمَ في إنجاح تنظيم هذه الاحتفالية بجمهورية مصر العربية، أَرْضُ الكِنَانَةِ المُبَارَكَةِ، وإلى الحضور الكريم الحاضر معنا والمنتبِعِ عَبْرَ النَّبِّ الحَيِّ، على حِرْصِهِ على إِشْعَاعِهَا بحضورِهِ ومُتَابَعَتِهِ لِفَعَالِيَّاتِهَا. وكل عامٍ والمخطوطُ العربيُّ يحتفلُ بعيده العربيِّ.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

## كلمة الأستاذ الدكتور أنس عطية الفقي مدير مركز

### تحقيق التراث بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

يطيب لي أن أرحب بالسادة الحضور الذين شرفوا جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا؛ ليشاركوا في هذا الاحتفال الكبير بيوم المخطوط العربي، وهو اليوم الذي اعتاد معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية أن ينظم فعالياته المتنوعة التي لا تتوقف على يوم الاحتفال فقط، بل تستمر لأكثر من شهر لتفتح مجال المشاركة لكل المؤسسات التراثية العربية ليس فقط في دولنا بل في شتى أنحاء العالم؛ إذ ربما نجد بعض المؤسسات المعنية بالتراث العربي المخطوط في دولة أجنبية، وهذا ما يشعرننا بالفخر إزاء هذا التراث العظيم الذي أجبر العالم كله على احترامه بل واقتنائه وفهرسته والحفاظ عليه.

وهذا العنوان الذي تم اختياره شعاراً لهذه الاحتفالية "تراثنا المخطوط في زمن العولمة"، كأنه يمثل نداءً لنا ولأبنائنا وبناتنا، يحفزنا على الانطلاق من أصول العلوم والمعارف إلى آفاق التطور والتكنولوجيا؛ لنخرج من إطار التقليد إلى عالم الإبداع والتجديد المرتكز على تلك الأصول. ليصدق قول الشاعر:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرَّمَتْ      يَوْمًا عَلَى الْآبَاءِ نَتَكَلُّ  
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا      تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

والمتدبر في تراثنا العظيم يدرك أن الحضارة العربية الإسلامية قامت على أساس القيم الأخلاقية مع الاجتهاد العلمي والبحث الدءوب واحترام الآخر، وتبادل المعلومات دون انغلاق في دائرة التقليد للآخر كالذي يحدث للأسف في تناول بعضنا لكثير من العلوم الحديثة.

وقد حرص مركزنا منذ نشأته على تحقيق تلك المعادلة المهمة بالتوازن بين التراث والمعاصرة من خلال إصداراته التي جمعت بين التحقيق العلمي المعتبر والتعليق المتخصص من خبراء في المجال نفسه درسوا آخر تطورات هذه العلوم. كالذي تم في تحقيق كتاب القانون لابن سينا والجامع والمغني لابن البيطار وتلخيص البيان في مجازات القرآن وكلها كتب من إصدارات المركز منها ما حصل على جوائز عربية قيمة كجائزة مجمع اللغة العربية وجائزة معرض القاهرة الدولي للكتاب.

إن تراثنا العربي المخطوط يمثل رافدا من أعظم روافد المعرفة الإنسانية

ليظل شاهدا على أمرين:

(1) عظمة هؤلاء الأجداد.

(2) إمكانية إعادة الكرة من الأحفاد.

وما أصدق ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

سقى الله في بطن الجزيرة أعظما	يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته	لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق	حياء بتلك الأعظم النخرات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل	بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى	وتثبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده	مما لعمرى لم يقس بممات

وختاما أشكر كل من شارك في نجاح هذه الاحتفالية وتنظيمها، وأخص

بالذكر راعيي هذا الاحتفال: السيد الأستاذ خالد الطوخي رئيس أمناء جامعة



مصر للعلوم والتكنولوجيا، والسيد الدكتور محمد ولد أعرم المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، كما أشكر السيد الدكتور مراد الريفي مدير معهد المخطوطات العربية ورفيق الدرب في هذا الإعداد المتميز، كما أشكر فريق العمل في معهده الكريم، وفي جامعة مصر تحت مظلة السيد الأستاذ الدكتور أشرف حيدر غالب رئيس الجامعة، ونائبه الكريم الأستاذ الدكتور شريف رفعت الذي كان متابعا لكل تجهيزات الإعداد، وفريق العمل بمركز تحقيق التراث بالجامعة، وفريق كلية الآثار والإعلام ودار الأوبرا والعلاقات العامة، كما أشكر السادة الحاضرين الأجلاء الذين شرفت الجامعة بمقدمهم المبارك.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

## كلمة السيد الدكتور مراد الريفي

### مدير معهد المخطوطات العربية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول المصطفى، وعلى آله وصحبه وكفى، أصحاب المعالي والسعادة، العلماء الأجلاء، أهل التراث الأعزاء، الحضور الكريم، نحتفل اليوم بالدورة العاشرة ليوم المخطوط العربي، بعدما أضحى هذا الحدث مناسبة سنوية يقف فيها أهل تراث المخطوط، والمهتمون به، في كل أرجاء الوطن العربي، على حال هذه الوديعة الحضارية ومآلها. أما الحال؛ فيتراوح ما بين وعي متنام بما يكتنزه هذا التراث، من أرصدة معرفية وفكرية وإشراقات حضارية، نهد قلة من أهل التراث الثابتين، لاستنهاض همم إحيائها، وبعثها من كهفها الرديم، لتجلي للأمة وللعالم، مفرداتها النفيسة، ومقدار سؤمها السابقة والباقية في مسيرة الحضارة الإنسانية. وموقف كثرة غالبية، تجهل كل شيء عن هذه الوديعة الحضارية، بل ولا تعير بالألأ، هذا إذا لم تتبرأ منها باعتبارها آتية من زمن سحيق، لا تغني ولا تسمن، في عصر تبدلت فيه خريطة الحاجيات العلمية والمعرفية جملة وتفصيلاً. فعمق هذا الموقف الغالب، تلك الهوة الفاصلة بين أجيال الشباب

العربي، ومكامن عزتهم الحضارية، التي لم يُنصّب معيئها البتة، وما زالت قادرة على سقي شجرة البناء الحضاري للأمة.

وأما المآل، فيضعنا أمام أسئلة متوالياتٍ عن موقع تراثنا المعرفي والفكري، فيما يعتمل من تقلباتٍ عاصفةٍ في المشهد الثقافي العربي والعالمى. هل جمّعنا هذا التراث من مضانه المنتشرة بالوطن العربي والعالم؟ هل تعرّفنا بما يكفي على تراث الكتاب العربي المخطوط؟ هل أعددنا العدة المعرفية الشافية والمؤونة المنهجية الكافية لدراسته النقدية النافعة، غير المكررة، والموزعة على شتى فنون هذا التراث؟ هل وحّدنا مناهج نشره وإتاحته والإفادة منه لجمهور الباحثين والمهتمين؟ هل ضغنا تلك الرؤية الحضارية الموجهة لتشغيل موارد التّعددية والفكرية والاجتهادية في الحاضر والمستقبل، تشغيلا يُعزّد مقومات الشخصية العربية الإسلامية ويعزز مكانتها بين الأمم؟

لعل الجواب عن هذه الأسئلة وأخرى، لا يمكنه أن يتمّ خارج إطار السياق الحضاري الذي يحيى في كنفه هذا التراث، وهو ما حذا بنا إلى اختيار عنوان "إرثنا المخطوط في زمن العولمة" كموضوع رئيس للاحتفال بيوم المخطوط العربي

هذا العام. دعنا إلى هذا الاختيار من جهة أخرى، تلك المتغيرات المتسارعة التي جاء بها زمن العولمة، في ميادين نقل المعارف وحركية المعلومات وزخم صبيبها الجارف، مع ما يعني ذلك، من رجّة أصابت صميم منظومة الاشتغال الفكري التراثي الرصين، الذي يكاد يفقد موطأ قدمه في هذا البحر المعرفي المتلاطم. فكانت غايتنا بسط موضوع اليوم من زاويتين:

زاوية اعتبار تراث المخطوط إراثاً في عهدتنا، نتعهده ونرعاه كأمانة حضارية، يقع على عاتقنا بقاء جذوته متوجهة عبر أجيال المجتمعات العربية؛ وزاوية تفاعل هذا التراث مع مستجدات العصر، بما يجعله شاهداً حضارياً فاعلاً في المشهد الثقافي ومؤثراً في مسيرة البناء الحضاري المتواصلة، مع ما يعني ذلك من استثمار أدوات العصر من قواعد بيانات وبرمجيات وتقنيات، وتسخيرها لخدمة هذا التراث صيانةً، ونشرًا، وإتاحةً، وتصنيفًا. وبالفعل، فإن تكريم دارة الملك عبد العزيز، كمؤسسة العام التراثية، بحضور معالي أمينها العام الدكتور فهد عبد الله السماري، والأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي شخصية العام للبحث التراثي، وكتاب "المحلى شرح المحلى" كتاب العام التراثي والذي ترأس فريق تحقيقه الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، إنما هو عرفان لمن تعهد

هذه الجودة الحضارية بعطائه المتميز والنموذجي، واستنهاضُ لهممِ كي تَحْدُو حُدُودَ حِمَاةِ تَرَاثِنَا المَجِيدِ هَؤُلَاءِ. وَأما الزاويةُ الثانيةُ، فهي التي نقدمها في معرضنا الذي خصصناه لإبراز أهم ما أتى به زمنُ العولمةِ، من أوعيةٍ جديدةٍ نعملُ على استثمارها وتشغيلها بما ينفَعُ الأهدافَ الاستراتيجيةَّ التي وضعتها المنظمةُ العربيَّةُ للتربية والثقافة والعلوم-الكسو-، في حماية وتأهيل واستثمار تراث المخطوط العربي.

أصحاب المعالي والسعادة، الحضور الكريم، يتميز يومُ المخطوط العربي لهذه السنة، بانخراط أكثر من أربعين جهةً من الدول العربية في برنامج احتفاليته، كما ستتابعون ذلك، حيث ستقام أكثر من ستة وخمسين فعاليةً مخلدةً لهذا اليوم على امتداد شهر إبريل، ونسعدُ اليومَ بانطلاقِ برنامجِ الاحتفالية من رحاب جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا تحت رعاية معالي المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وسعادة رئيس مجلس أمناء الجامعة، وبتنسيقٍ مع مركز تحقيق التراث العربي بالجامعة.



وإذ أشكر معالي الدكتور محمد ولد أعمار المدير العام للألكسو على إشرافه الشخصي ورعايته الكريمة لهذا الحدث، أوجه وافر شكري للأستاذ خالد الطوخي على ما قدمه من دعم لهذا الحدث الثقافي، وصادق امتناني للدكتور أنس الفقي بمعنية فريق عمل الجامعة، على جميل سنده وحسن متابعته لمختلف مراحل إعداد هذا اليوم. كما أتوجه إلى أصحاب المعالي والسعادة، وإلى العلماء والباحثين والمهتمين ومنابر الإعلام الحاضرين معنا اليوم، ببالغ شكري على دعمهم هذه الاحتفالية بحضورهم البهي.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



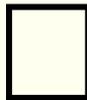
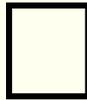
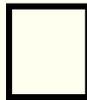


مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



**الصور التوثيقية للاحتفال بيوم**

**المخطوط العربي**



## تحت رعاية

السيد الدكتور

محمد ولد عمر

المدير العام  
للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

السيد الأستاذ

خالد الصوي

رئيس مجلس أمناء  
جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا



أرض المخطوطات  
في مزارع العوالم



المعهد العربي للتربية والثقافة والعلوم  
معهد المخطوطات العربية  
INSTITUTE OF ARABIC MANUSCRIPTS



جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا  
مركز تحقيق التراث العربي  
misr university for science And Technology  
center for Editing Arabic Heritage

## □ راعيا الحفل (دعم ومشاركة وتفاعل)



السيد الدكتور/ محمد ولد أعمار  
المدير العام للمنظمة العربية  
للتربية والثقافة والعلوم.



السيد الأستاذ/ خالد الطوخي  
رئيس مجلس أمناء جامعة مصر  
للعلوم والتكنولوجيا.

تشارك جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا - وبصفة دائمة - في شهر أبريل من كل عام في الاحتفالية التي ترعاها جامعة الدول العربية بمناسبة (يوم المخطوط العربي) من خلال مركز تحقيق التراث، وكلية الآثار والإرشاد السياحي، وكلية الإعلام وتكنولوجيا الاتصال، وكلية اللغات والترجمة، وفريق مكتبة جامعة مصر، وفريق العلاقات العامة، ورعاية الشباب بالجامعة. ويرتاد الجامعة في هذه المناسبة كبار العلماء من داخل الجامعة وخارجها فضلاً عن جموع الطلبة الذين يحرصون على الحضور والمشاركة في التنظيم والتفاعل مع المحاضرين مداخلتاً واستفساراً.

وجاءت المشاركة الكبرى في هذا العام، برعاية السيد الأستاذ خالد الطوخي الذي أعطى توجيهاته باستضافة فعاليات الاحتفالية بدار أوبرا جامعة مصر، مع توظيف كل إمكانيات الجامعة لدعم هذه المناسبة الكريمة، إسهاماً من الجامعة في خدمة التراث العربي.

## تكريمُ الفائزين



- مؤسسة العام للبحث التراثي "دائرة الملك عبد العزيز".
- شخصية العام للبحث التراثي "الأستاذ الدكتور عبد الستار الحلوجي".
- كتاب العام التراثي تحقيق الأستاذ الدكتور/ بشار عواد بعنوان "المحلى لابن حزم الأندلسي".



رئيس جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا أ.د/ أشرف حيدر  
غالب يتسلم درع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم  
(الألكسو) نيابة عن **السيد الأستاذ خالد الطوخي** رئيس  
مجلس الأمناء.



درع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) تكريماً للسيد  
الأستاذ خالد الطوخي.

تكريم أ.د/ بشار عواد صاحب  
أفضل كتاب محقق لهذا  
العام.

(المحلى لابن حزم الأندلسي)



تكريم شخصية العام التراثية

أ.د/ عبد الستار الحلوجي



تكريم داره الملك عبد  
العزیز كأفضل مؤسسة  
لهذا العام يتسلم الجائزة  
د/ فهد عبد الله السماری  
الأمين العام للدارة.





تكريم مدير مركز تحقيق التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.



الفضائية المصرية تنقل مراسم الاحتفال بيوم المخطوط العربي.



المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو) يتسلم درع جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.



د. مراد الريفي مدير معهد المخطوطات العربية يتسلم درع جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

افتتاح المعارض  
التراثية المصاحبة  
للاحتفال بيوم  
المخطوط العربي.



داخل المعرض  
(الكتب التراثية)



داخل المعرض  
(الجانب الإلكتروني)





# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية





مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



**البحوث والدراسات المُصاحبة**



# مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية



## التراث الصوفي ودوره في إصلاح منظومة القيم في

### العصر الحديث

## The Sufi heritage and its role in reforming the values in the modern era

أنس عطية الفقي\*

[anasatia@hotmail.com](mailto:anasatia@hotmail.com)

### الملخص

التراث الصوفي الإسلامي رصيذ زاخز بالقيم والفضائل الإنسانية، فأهل التصوف هم خاصة عباد الله، الذين صدقوا في عبوديتهم، وجاهدوا في تطهير نفوسهم ساعين إلى معرفة الله سبحانه؛ ليصلوا إلى مقام الإحسان في معاملة الخلق والخالق.

ولعل هذا المنهج من الفكر الديني السمح هو الذي جعل الفلاسفة والحكماء في كل عصر يحترمون التصوف بصفة عامة، بل يدرجون الدراسات الخاصة به في إطار الدراسات الفلسفية الإنسانية الواقعية، التي يمكن أن تحمل حلولاً لكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية.

فالواقع أن الصوفية ليسوا فرقة من فرق الإسلام التي جعلت لنفسها نصيباً مفروضاً من المعتقدات المخالفة لعموم المسلمين، بل على العكس، كانوا هم أهل تحقيق التوحيد وأهل الإيمان وأهل الخصوصية، ولذلك كانوا يتبرأون

---

\* رئيس التحرير، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية، ومدير مركز تحقيق التراث العربي - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

أحياناً من أن يتميزوا على غيرهم باسمٍ ما، فقد سُئل أحدُ أئمة الصُوفية وهو الإمام الثبلي: لم سمي الصُوفية بهذا الاسم؟ فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك ما تعلق بهم تسمية.<sup>1</sup>

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، التي ترى في نشر تراث الفكر الصُوفي المتوازن، الذي ينطلق من أصول الدين، ويؤيده المنطق، سبيلاً لمعالجة المشكلات المعاصرة التي يواجهها الناس في ظل العولمة وما أفرزته وسائل التواصل الاجتماعي، من تشويش فكري، وسطحية ثقافية، وفساد أخلاقي. وتنقسم هذه المشكلات بصورة عامة إلى مشكلات عقديّة، ومشكلات أخلاقيّة ومشكلات نفسيّة. فالمشكلات العقديّة: كالتحلل من المعتقدات الدينيّة، وكذلك الطائفية الدينيّة، ثم التعصب المذهبي أو الفريقي أو "الجماعاتي" إن جاز التعبير.

والمشكلات الأخلاقيّة معروفة، وقد انتشر منها مستجدات على شبكات التواصل الاجتماعي، مثل التمرر والتحرش والكذب والغش والتعدي على الحقوق الماديّة والأدبيّة والتّعدي على الخصوصيات. أما المشكلات النفسيّة معظمها يتركز في الإحباط واليأس والتشاؤم والسلبية وانتشار الفتن والضغائن بين الناس.

**الكلمات المفتاحية:** التّصوّف الإسلاميّ - الفكر الصُوفيّ والمشكلات الاجتماعيّة - التّراث الصُوفيّ والعولمة - التّصوّف والتّطرّف - التّصوّف والقيم الإنسانيّة.

## **Abstract**

The Islamic Sufi heritage is a wealth of human values and virtues. The people of Sufism are special servants of God, who believed in their servitude and strived to purify their souls, seeking God Almighty's awareness. to reach the status of piety in dealing with creation and the Creator.

Perhaps this approach of tolerant religious thought is what made philosophers and sages in every age respect Sufism in general, but include its studies within the framework of realistic human philosophical studies, which introduce solutions to many psychological and social problems.

In fact, the Sufis are not a sect of Islam that has made for itself an imposed share of the beliefs that contradict the majority of Muslims. On the contrary, they were the people of achieving monotheism, the people of faith, and the people of privacy, and that is why they sometimes absolve themselves from being distinguished from others by a name, Imam al-Shibli was asked, may God bless him. Why was Sufism called by this name? He said: For the rest, they remained in their souls, and if it were not for that, they would not have been named.

the idea of this research comes From here, which sees the dissemination of the heritage of balanced Sufi thought that stems from the origins of religion and is supported by logic as a way to address contemporary problems faced by people in light of globalization and the intellectual confusion, cultural superficiality, and moral corruption caused by social

media. These problems are generally divided into nodal problems, ethical problems and psychological problems. The doctrinal problems: such as the dissolution of religious beliefs, as well as religious sectarianism, then sectarian or ethnic fanaticism or “communalism”, so to speak. Ethical problems are well known, and developments have spread on social networks, such as bullying, harassment, lying, cheating, infringement of material and moral rights, and infringement of privacy. As for psychological problems, most of them focus on frustration, despair, pessimism, negativity, and the spread of strife and grudges among people.

**Keywords: Islamic Sufism/ Sufi thought and social problems/ Sufi heritage and globalization/ Sufism and extremism/ Sufism and human values.**

### مقدمة:

تحرص الديانات السماوية بصفة عامة على تطهير النفوس من نزواتها وأطماعها المادية وغرائزها العدوانية، وفي المقابل تساعد على تقوية إرادتها بدعم القيم الأخلاقية النبيلة، والصفات الفطرية السوية، وذلك من خلال العبادات والمناسك والطقوس التي يمارسها الإنسان فيتحرر بها من قيود المادة إلى آفاق الروح؛ فيسهل عليه التعايش والتواصل مع أخيه الإنسان.

وتأتي المحبة في مقدمة المشاعر الراقية التي يمكن أن ينبثق منها الخير لبني الإنسان، فقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تَدْخُلُونَ

الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم". (صحيح مسلم).

فالمحبة والسلام كلمتان مرتبطتان بسعادة الإنسان، وتحقيق السلام لا يأتي إلا بغرس بذور المحبة في نفوس مطهرة من الأطماع المادية، متصلة بخالقها التي تؤمن به، واثقة في فضله، راضية بقضائه.

والتصوف الإسلامي قد اختلف بالنظر في أحوال النفس ودقائقها، وفي تلك المشاعر التي تتولد من أثر التعبد والتقرب إلى الله تعالى؛ لذلك فمن الخطأ اعتبار الصوفية فرقة تختلف عن عامة المسلمين؛ لأن التصوف جزء جوهري لدى كل مسلم، بل لدى كل صاحب دين سماوي، يؤمن به ويهتدي بأنواره.

وحيثما انتشرت علوم الدين الإسلامي من فقه وتفسير وحديث وأصول وسيرة وغيرها، ظهر في الأفق علم التصوف الإسلامي ليطمئن منظومة العلوم الإسلامية؛ بحيث يكتمل النظر في مقومات الدين ظاهراً وباطناً، شأنه في ذلك شأن علم النفس في منظومة العلوم الإنسانية.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، التي ترى في نشر تراث الفكر الصوفي المتوازن، الذي ينطلق من أصول الدين، ويؤيده المنطق، سبيلاً لمعالجة المشكلات المعاصرة التي يواجهها الناس في ظل العولمة وما أفرزته وسائل التواصل الاجتماعي، من تشويش فكري، وسطحية ثقافية، وفساد أخلاقي.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتناول ثلاثة محاور:

الأول: التراث الصوفي والتجانس مع المعتقدات الفطرية.

الثاني: من مجاهدة النفس إلى تزكيتها.

الثالث: التواصل الاجتماعي الإيجابي ومكارم الأخلاق.

### المبحث الأول: التراث الصوفي والتجانس مع المعتقدات الفطرية

التصوف حالة شريفة ترتقي بالإنسان من ظلمات المادة إلى فضاء الروح، وهي نزعة فطرية خلقها الله تعالى في هذا الكائن المكرم الذي ارتضاه خليفة له في أرضه. وهذه الحالة قد تزيد وترتقي، أو قد تنقص وتتوارى بمقدار ما لدى الإنسان من الاستعداد لقبولها، وبالتالي ما يمارسه من طقوس وعبادات دينية تساعد على بقاء هذه الحالة والترقي في مدارجها.

ولم يكن مصطلح التصوف أو الصوفية دائراً على الألسنة في القرنين الأول والثاني من الهجرة في حين أنه كان حاضراً بمعناه، خاصة في فقراء المهاجرين من أهل الصفة، الذين نزلت فيهم آيات قرآنية تزكّهم وتشهد لهم برفعة المنزلة عند الله كقوله تعالى: {وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} (28 الكهف). فقد قالوا تعقيباً على هذه الآية: ما أشرف قوماً أمر الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يصبر نفسه معهم.

ولذلك قال الإمام القشيري<sup>2</sup> في شأنهم: "قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على كافة عبادته، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم. وجعل قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم من بين الأمة بطوابع أنوارهم، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من أكنار البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووقفهم للقيام بأداب العبودية، وأشدهم مجاري أحكامه الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منته سبحانه عليهم من التقليل والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجب عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداءً فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل"<sup>3</sup>.

فالتصوف الإسلامي بدأ في القرنين الأول والثاني الهجريين في صورة الزهد وهو الانصراف عن ملذات الحياة، والاتجاه إلى الله تعالى، والعمل للأخرة، ونلمس ذلك في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته، وفي أقوال كثير من الصحابة والتابعين.

وانتقل التصوف إلى المرحلة الثانية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وفي هذه المرحلة بدأ التصوف يأخذ صورته الخاصة التي تميزه عن الزهد، وقد انقسم رجال التصوف في هذا العصر إلى فريقين: فريق اختص بالنظر في أحوال النفس ودقائقها وسلوكها وأسباب ترقئها وصفاتها، إلى جانب الوجد

والعشق الإلهي، وهذا الاتجاه كان موافقا للشريعة، مستندا إليها، غير مخل بتعاليمها أو متعارض مع ظاهرها. ويأتي على رأس هذا الفريق الشيخ أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة 298هـ، وأستاذه المحاسبي المتوفى سنة 243هـ، والسري السقطي المتوفى سنة 253هـ، وأبو سعيد الخراز المتوفى سنة 279هـ وغيرهم. أما الفريق الثاني، فكان له -إلى جانب الوجد والعشق- نظر في فلسفات العصر، واطلاع على ثقافته المختلفة، ودياناته المتعددة، فظهر أثر ذلك كله في تعبيرات رجاله وأقوالهم وإشاراتهم بما يوهم بالتعارض مع ظاهر الشريعة؛ خاصة إذا لم يتأول بما يوافقها. ويمثل هذا الفريق أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة 261هـ، والحسين بن منصور الحلاج الذي قُتل سنة 309هـ، وذو النون المصري المتوفى سنة 245هـ، وقد اتهم ثلاثتهم بالزندقة والخروج على الشريعة، وقُتل الحلاج، ونجا البسطامي وذو النون.

ومع القرن الخامس الهجري تأتي المرحلة الثالثة، والتي يمثلها أبو حامد الغزالي، الذي وفق بين التصوف والشريعة، ومحا أسباب الخلاف بما تميز به من حجة ظاهرة، وبيان ساحر، وقد سعى الغزالي في إثبات أن التصوف جانب مهم من جوانب الشريعة الإسلامية، يدعو إليه الكتاب والسنة، بل إنه روح الإسلام، والعاصم من الزيغ، والمنقذ من الضلال، والطريق الوحيد لمن أراد الوصول إلى الحقيقة.

يقول الدكتور التفتازاني: "ومع أن الغزالي يتجه في التصوف كما رأيت اتجاهاً خالصاً إلا أن ثقافته الفلسفية قد أكسبته قدرة على الشرح والتحليل

والموازنة في معالجته لمسائل التصوف، كما أكسبته مهارة في نقد ما يخالف التصوف السني من مذاهب، وإثبات ما يريد إثباته من قضاياها، وقد لاحظ "ماك دونالد" ذلك فقال: "إنه أكسب التصوف مكانة راسخة عند أهل السنة المسلمين"<sup>4</sup>.

وبفضل الغزالي ازداد التصوف الإسلامي ازدهارًا، واكتسب شرعية، وانضم كثير من الفقهاء إلى الصوفية.

وفي القرنين السادس والسابع كانت المرحلة الرابعة، مرحلة النضوج وظهر أقطاب الصوفية الذين كثرت أتباعهم وعظمت شهرتهم في البلاد الإسلامية بما اشتهر عنهم من كرامات وأحوال شريفة، أمثال السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة 570هـ، والسيد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 561هـ، والإمام أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة 656هـ، وخليفته أبي العباس المرسي المتوفى سنة 685هـ، والسيد أحمد البدوي المتوفى سنة 675هـ، والسيد إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة 676هـ.

كما ظهر كبار مفكري الصوفية الذين كان لهم أثر ملموس في نضوج الفكر الصوفي الإسلامي، والذي ظهر فيه ثقافتهم المتعددة المصادر في صياغة جديدة، مقرونة بتجاربههم ومشاعرهم الخاصة، وبهذا كانوا امتدادًا للبسطامي والحلاج، ويأتي على رأس هؤلاء محي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية المتوفى سنة 638هـ وتلميذه عبد الحق بن سبعين المتوفى سنة 669هـ وقبلهما كان السهروردي صاحب حكمة الإشراق الذي قتل سنة 587هـ وغيرهم.

وشهدت هذه المرحلة المهمة ظهور كبار شعراء الصوفية أمثال عمر بن الفارض الملقب بسلطان العاشقين، والعفيف التلمساني، والبوصيري، وابن إسرائيل، والخيمي، وغيرهم. واختتم ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ عطاء تلك الكوكبة اللمعة بتصنيف كتابه "الحكم" الذي يعد من أجمع وأرقى النصوص في علم التصوف الإسلامي حتى عصرنا هذا. ولقد كانت هذه المرحلة من أنضج وأنضر وأسخى مراحل التصوف الإسلامي عطاءً وفكرًا وأدبًا. ثم جاء بعد ذلك المفكر الصوفي عبد الكريم الجيلي أو الجيلاني المتوفى سنة 820هـ صاحب نظرية الإنسان الكامل.

وبعد هذه المرحلة سار التصوف مع الحياة نزعة إنسانية، يأخذ في كل عصر صورًا متنوعة تسير روح العصر حتى وقتنا هذا؛ فظهرت الطرق الصوفية وانتشرت في المجتمعات الإسلامية، وازدهرت معها فنون الإنشاد الديني والأحزاب والأوراد والطقوس الاحتفالية في المناسبات الدينية على نحو ما نرى ونشهد في هذه الأيام.

وقد واجه التصوف الإسلامي -ولا يزال- سيلاً من الاتهامات العقديّة التي تبدأ من التبديع والتفسيق حتى تصل إلى الرمي بالكفر والزندقة، وذلك من أهل التطرف الفكري الذين يفتقرون إلى معرفة تاريخ الفكر الإسلامي وأصول الفقه المنبثقة من علم المنطق.

ومع ذلك يملك التصوف الإسلامي من المقومات التربوية والذوقية والروحية ما يمكن أن يمثل حلاً لمشكلات كثيرة تتصل بسلامة الاعتقاد.

يقول الدكتور مصطفى الفقي: "إن تاريخ الحركات الصوفية في إطار الحضارة الإسلامية تاريخ حافل بالومضات المضيئة نقف فيها أمام محطات مهمة لعل أبرزها إسهاماً جلال الدين الرومي.

والصوفية ليست بدعة، ولكنها استغرق في التدين الصحيح والمضي في رحلة العشق الإلهي إلى حيث يمكن الوصول إلى مرحلة الطرح الصوفي الكبير الذي يضع صاحبه في مكانة رفيعة يختلط فيها التعبد بالزهد وتمتج فيها بساطة الدين وروعه بطقوس روحية لا تتعارض مع الأصول الثابتة للعقيدة ولا الشريعة، كما أنها تخرج من عباءة الجدل الفقهي لتصل إلى حالة من التوحد مع الذات الصافية والمضي في ذكر الله بطرق مختلفة فيها إيقاع حي يربط المخلوق بالخالق، بينما التطرف هو نمط بائس ويأس من الهجرة الزمانية إلى كتابات بعض فقهاء القرن الثالث الهجري في محاولة لتطويع النصوص في خدمة أهداف لا تمت لصحيح الدين من قريب أو من بعيد، وهي تأتي نتيجة جرعات من الشعور بالعزلة وتكفير الآخر ورفض حياة العصر"<sup>5</sup>.

وبالنسبة لما يمكن أن يقدمه التصوف في مجال المعتقدات الدينية وما أصابها من شوائب خرجت بها عن الفطرة السوية للإنسان، فإن العقيدة الصوفية تتميز بأنها عقيدة قلبية ذوقية فطرية نابعة من الإسلام دين الفطرة، بيد أنها تتخذ من القلب المنطلق الأول للإيمان بالله تعالى: يقول الكلاباذي المتوفى سنة 380هـ: "أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده. وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل لأنه محدث والمحدث لا يدل إلا على مثله"<sup>6</sup>.

ويقول الإمام الشاذلي: "إننا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، هل في الوجود سوى الملك الحق، فلا تراه، وإن كان ولا بد فتراهم كالهباء في الهواء، وإن فتشتهم لم تجد شيئاً"<sup>7</sup>.

وللمنهج العقدي الصوفي اتجاهان: أحدهما يقوم على الإيمان القلبي الفطري الذي لا يحتاج إلى دليل عقلي، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وهذا ما أشار إليه قول الإمام الشاذلي، وقبله الكلاباذي. قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18]، فقد شهد الباري عز وجل بوجوده، وأنه إله الكون، وخالقه، وكفى بالله شهيداً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:53).

والثاني يكون من خلال التأمل والتفكير العقلي الفطري من باب قول الأعرابي البسيط "إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير؟!

قال تعالى في معرض الحديث عن الدلائل على وجود الخالق؛ ليقر العباد بطريق الإلزام بربهم سبحانه وتعالى، فيعبده وحده لا شريك له: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:20]، وقال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ} (فصلت 53)، وقال تعالى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ \*  
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ  
الْمُصَيِّرُونَ} [الطور: 35-37]، فالله عز وجل يقول لهؤلاء المنكرين خالفهم:  
أنتم -أيها البشر- موجودون، وهذه حقيقة لا تتكرونها، وكذلك السماوات  
والأرض موجودتان، ولا شك في ذلك، وقد تقرر في العقول أن الموجود، لا بد له  
من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء.

إذا أضفنا إلى ذلك ما في المنهج الصوفي من دعوة إلى الإعراض عن  
الدنيا وغرورها، ومجاهدة النفس وتزكيتها -وهو ما سنتناوله في المحور الثاني-  
وأضفنا أيضًا ما يبثه هذا المنهج من الصفاء والمحبة والراحة النفسية، فسجد أن  
ذلك يساعد كثيرًا في درء الوسوس النفسية، والشبهات التي تؤرق العقل والفكر  
ولا طائل من ورائها.

ولا يجب أن نغفل أمرين جوهريين في المنهج العقدي الصوفي: الأول  
تلك الواردات الإلهية التي ترد على الصوفي، كالرؤى الصالحة، والمكاشفات  
الربانية، والفراسة الوهية، وهي أمور ذوقية ترسخ الاعتقاد في هذا المسلك.  
ثم يأتي الأمر الثاني وهو تلك الكرامات أو خوارق العادات التي يتناقلها  
أهل التصوف فيما بينهم، أو يرونها بأعينهم. وكرامات الأولياء -كما هو  
معروف في علم العقيدة- امتداد طبيعي لمعجزات الأنبياء الذين يتبعهم أصحاب  
تلك الكرامات من الأولياء، ومن نصوص المتون التي كانت تدرس بالأزهر  
الشريف في علم التوحيد:

وَأَثْبَتْنَا لِلأُولِيَا الكِرَامَةِ وَمَنْ نَفَاهَا فَاثْبِتْنَا كَلَامَهُ (جوهرة التوحيد).  
ولا يخفى ما لهذين الأمرين من أثر في ترسيخ الاعتقاد الديني  
والانصراف عن الحوارات العقيمة التي تورث القلق والتوتر وبالتالي تؤدي إلى  
الفساد الاجتماعي بصوره المتعددة.

### المحور الثاني: من مجاهدة النفس إلى التزكية

طريق التَّصَوُّف طريق تزكية ومجاهدة، فالصوفية ينظرون إلى النفس  
ونزواتها وشهواتها نظرة حكيمة؛ حيث يخالفونها بالتدرج التربوي بإشراف شيخ  
بصير بدسائسها، حتى لا تحدث انتكاسة تسبب توحشها في نيل المكاسب  
والأطماع، فالنفس -كما ورد في القرآن الكريم- أمارة بالسوء؛ لذلك قسموا هذا  
التدرج في مجاهدتها إلى مراحل، فالسالك يجاهد نفسه الأمارة حتى تصل إلى  
مرحلة النَّفْس اللوامة، ثم المطمئنة، ثم الراضية، ثم المرضية. وكلها أوصاف  
وردت في القرآن الكريم.

وجهاد النفس عند الصُّوفِيَّة جهاد مقدس، وهو الجهاد الأكبر الذي  
يستمر مع الإنسان طوال حياته، وهم في هذا يمتثلون لقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ  
مَنْ رَكَاهَا﴾<sup>8</sup> وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والمجاهد من جاهد نفسه في  
طاعة الله"<sup>9</sup>، يقول ابن القيم: "كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدِّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي  
الْخَارِجِ، وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لَتَفْعَلَ مَا أَمَرَتْ بِهِ، وَتَتْرَكَ مَا  
نُهِيتَ عَنْهُ، وَيُحَارِبُهَا فِي اللَّهِ: لَمْ يُمَكِّنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ؛ فَكَيْفَ يُمَكِّنُهُ  
جِهَادُ عَدُوِّهِ، وَالْإِنْتِصَافُ مِنْهُ: وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ، لَمْ

يُجَاهِدُهُ ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ بَلْ لَا يُمَكِّنُهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ، حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ"<sup>10</sup>.

وقال ابن رجب الحنبلي: "النوع الثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المجاهد من جاهد نفسه في الله"، وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو؟: "ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها" وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة"<sup>11</sup>، وقال في موضع آخر: "فهذا الجهاد يحتاج أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبه، وحصل له النصر والظفر، ومَلَكَ نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومن جَزَعَ ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غُلبَ وفُهِرَ وأُسرَ، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه ، كما قيل:

"إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْلِبْ هَوَاهُ أَقَامَهُ \* بِمَنْزِلَةٍ فِيهَا الْعَزِيزُ ذَلِيلٌ"<sup>12</sup>

وقد أشار شرف الدين البوصيري في برده الشهيرة إلى قضية جهاد النفس وضرورة مخالفتها، واتهام النفس عند البوصيري -كما هو عند المتصوفة- بداية السلوك في مدارج التحقيق. وقد تكلم أهل التصوف في تهذيب النفس ومجاهدة شهواتها حتى تترقى إلى الله تعالى، واعتبروا ذلك معياراً للتصوف الحقيقي، فمن أشهر تعريفات التصوف المنسوبة إلى أئمة الصوفيّة: "أن يميّتك الحق عنك ويحيك به"<sup>13</sup>، ويقول ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه: "أصل كل معصية وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة وبقظة وعفة عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلاً يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب

عالما يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟<sup>14</sup>.

ومن هذا المنطلق برز هذا الاتجاه في شعر البوصيري وبخاصة في مدائحه النبوية قبل أن يشرع في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم نراه يكيل لنفسه الاتهامات القاسية ويعترف بالتقصير والذنب والضعف والانكسار وكأنه يتطهر أو يتوضأ قبل البدء في المدح المقدس، وقد أشار الدكتور أحمد طاهر حسنين إلى هذه النزعة في حديثه عن مقدمة البردة وسماها "بالوضوء الشعري" يقول: "البوصيري هنا - وهو يعترم مدح النبي صلى الله عليه وسلم - لا يستطيع بحال أن ينفي عن نفسه صفة البشرية، فاستحضر من نفسه ابن آدم: هذا الخطاء الذي نضج فندم وتاب وثاب وأتاب. ولعله خشي أن يقدم على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحمل بين جنبه كل الآثام والأوزار العالقة به من ماضيه، فأراد أن يعترف بها منذ البداية، وليثبت في الوقت ذاته أنه إنسان تعتريه كل ما يعترى الإنسان من لحظات ضعف تزل به فتجعله أحيانا يحد، حتى إذا خلص للمدح، جاء مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم من إنسان نظيف طاهر عفيف...<sup>15</sup>.

فبعد أن بدأ البوصيري برده بذلك التسيب الذي ربطه بذكر الأماكن المقدسة، انتقل - بحسن تخلص - إلى نقد الذات أو محاسبة النفس في قوله:

فإنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ مِنْ جَهْلَهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ  
وَلَا أَعَدَّتْ مِنْ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَسِمِ  
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَيْتِهَا كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجْمِ

فهو - هنا - يتهم نفسه بأنها لم تتعظ بتقادم الزمان وحلول المشيب فلم تستعد

لمعادها ومآلها. ويعرب عن أمله في إصلاح حالها ورد جماعها.<sup>16</sup>

وعلى مستوى الصياغة الفنية، يستعين البوصيري بالتصوير وبعض فنون البديع الذي يمثل ذوق العصر لإثبات فكرته. فهو يكتفي عن نفسه مباشرة بـ"أمارتي بالسوء" وهو تركيب قرآني يبين مدى رسوخ الخلفية القرآنية لديه والتي أشرنا إليها سابقاً. ثم يصور المشيب والهرم بالنذير الذي يدق ناقوس الخطر، ويرد ذلك بصورة جمع أجزائها من الشعر القديم مضمناً شطر بيت للمتنبى؛ حيث يصور النفس الغافلة بأنها لم تحفل ولم تُعدَّ قرى هذا الضيف "الشييب" الذي صورته سابقاً بالنذير. والذي انتشر في الرأس من غير احتشام. ثم يعود ليصور نفسه بالخيال الجامحة التي تحتاج إلى لجام كي يكبحها. صور متلاحقة تتضافر جميعاً لتؤكد نظرته الناقدة إلى النفس.

ومن خلال هذه النظرة الناقدة نفسها يحاول البوصيري أن يلبس ثياب

الواعظ الناصح الأمين فيخاطب نفسه أو نفس أي إنسان يتلقى شعره قائلاً:

فلا تَرُمُ بِالْمَعاصِي كَسَرَ شَهَوَاتِهَا  
وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى  
فَاضِرِفٍ هَوَاهَا وَحَاذِرٍ أَنْ تُؤَلِّيَهُ  
وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ  
كَمْ حَسَنَتْ لَذَّةَ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً  
وَأَخْشَ الدَّسَائِسِ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ  
وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ امْتَلَأَتْ  
وَخَالَفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِمِهَا  
وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا حَضَمًا وَلَا حَكَمًا

إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهْمِ  
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْقَطِمِ  
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمُ أَوْ يَصِمِ  
وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعى فَلَا تُسِمِ  
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ  
قَرَبَ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخْمِ  
مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمَّ حِمِيَةَ النَّدَمِ  
وَإِنْ هُمَا مَحَضَّاكَ النَّصْحَ فَاتَّهَمِ  
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْحَضْمِ وَالْحَكَمِ

فهو هنا يجرد من نفسه شخصاً آخر أمامه يعظه وينصحه ويقنعه بالدليل والبرهان؛ لأن الإنسان خلق ضعيفاً أمام ما يواجهه من مغريات وشهوات، وقد يلجأ إلى إرضاء نفسه بأن يحقق لها رغباتها كي تفر وتسكن، ولا يعلم أنه بهذا يعوّدها على التماذي فيما جبلت عليه من غرائز أنانية، فيستقل أمرها حتى يتسع الخرق على الراقع، ويدعم ذلك بالتشبيه الضمني: "إن الطعام يقوي شهوة النهمة" ثم يؤكد ذلك بالتشبيه التمثيلي، فيشبهها بالطفل الصغير الذي يجب أن يظم حتى ينصلح شأنه ويحيا حياته الطبيعية، وإلا سيشب على حب الرضاع مما يزرى به بين الناس.

ويستمر البوصيري في نقد دقائق النفس الإنسانية التي تخادع صاحبها محذراً من مغبة مولاتها واتباع هواها؛ حيث توصل إما إلى الهلاك أو إلى

العار، وكلاهما مر. ثم ينصح بالانتباه إليها ومراعاتها ومراقبتها في أعمالها التي ستحاسب عليها؛ حيث هو معيار الإخلاص فإن هي استمرت الحال واستحلت هذا العمل أو ذاك فلا ينبغي أن يركن المرء إلى ذلك ويستمر، بل يجب أن يكون هناك وقفة للمراجعة والحساب، حتى يسلم المرء من مخادعتها، ولا يغتر بما تزينه له من حلاوة العمل. ثم يحذر بصورة مباشرة من النفس والشيطان، ويدعو إلى مخالفتها، ودوام اتهامها، مهما تحايلا في التظاهر بالنصح والموالة:

وخالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَأَعْصِمِهَا      وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّهِمْ  
وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا حَضْمًا وَلَا حَكْمًا      فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْحَضْمِ وَالْحَكْمِ<sup>17</sup>

### رفع الهمة عن الخلق (الحرية الحقيقية):

مما ورد في الحكم العطائية حول الحث على تعلق الهمة بالله وحده ورفعها عن الدنيا بأسرها قول ابن عطاء الله: "أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع"<sup>18</sup>؛ حيث يتجلى مفهوم الحرية الحقيقية، فمن ثمار معرفة الله تعالى رفع الهمة عن الخلق وهذا أمر طبيعي لمن شهد صورة الله في كل شيء حوله، وشهد الله فاعلاً في كونه وهو ما تلح الحكم على إثباته وبيانه. جاء في الحكم أيضاً: "لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟"<sup>19</sup>، "وبالمجاهدة تتم حرية الإنسان؛ حيث ينتصر على رغباته وشهواته، ويقطع رجاءه بدنيا الناس، فهي سعادة إذن مدخلها

الحرية، والحرية في نظر المتصوفة كما عبر عنها القشيري هي ألا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات<sup>20</sup>. فإذا رفع الإنسان همته، واستغنى بربه عن الخلق، فهو حر تمامًا؛ لأنه لا يريد شيئاً من أحد، ولن يخاف أحداً من الخلق، وبالتالي يمكنه أن يقول ما يشاء، ويتصرف بما يرى أنه الحق ولا يخشى في الله لومة لائم.

### تعظيم حرمة الشريعة:

اقترن اسم التصوف عند بعض علماء الشريعة بالشطح والتحلل عن الأمور الشرعية؛ وسبب ذلك ما وجدوه في سير وأقوال وأفعال بعض الذين عرفوا بالتصوف أو انتسبوا إليه، وهذا الأمر يجب ألا يقاس عليه، ولسنا الآن بصدد البحث فيه، أو تأويل تلك الشطحات والأقوال بما ينسجم مع الشرع، أو حتى بيان أسباب ذلك، كل ما هنالك نريد أن نوضح الرؤية الصوفية لهذا الأمر، وابن عطاء الله نموذج من المتصوفة الذين يراعون تماماً حرمة الشرع، ولا يقولون بإسقاط التكليف، وهو يعتبر أن هذه التشريعات إنما هي مراد الله من خلقه، والالتزام بها هو عين العبودية. يقول في إحدى حكمه: "من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات".

فهو يرى أن مجرد التكاسل في أداء الفرائض الواجبة والمسارعة إلى النوافل الاختيارية من علامات اتباع هوى النفس، وهذه القضية لها أهميتها في مجال التوجه إلى الله، حتى لا يظن السالك أن اختياره لنفسه خير من اختيار الله له. ثم يوضح المؤلف الحكمة الإلهية من الالتزام بالفرائض الواجبة في حكمتين

تاليتين للحكمة السابقة؛ حيث يقول: "قيد الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسوية، ووسع عليك الوقت كي تبقى لك حصة الاختيار" ثم يقول: "علم قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته...".

وقد تعرض ابن عطاء الله لهذه القضية في كتابه لطائف المنن<sup>21</sup> حيث أفاض في شرح الحديث القدسي الصحيح: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَّهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"<sup>22</sup>، ووقف وقفة طويلة عند قوله تعالى في الحديث القدسي: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه". وهو يعبر بذلك عن رؤية شيخيه اللذين يعترز بهما كثيرا: أبي العباس المرسي، وأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما، فهما وتلميذهما ابن عطاء الله يرون جميعا أن التقيد بمراسم الشريعة أكمل وأتم من التحلل منها، أو من بعضها. كما أنهم يركزون في دعوتهم على التخلص من رؤية النفس وحظوظها في أداء هذه التشريعات؛ بحيث يشهد العبد التزامه بها توفيقا من الله. ويرون أن حالة البقاء بالله التي يدرك الإنسان فيها ما حوله، ويكون على وعي بمراسم الشريعة وإقامة التكليفات، هي أكمل وأتم من حالة الفناء التي يغيب فيها المرء عن الكون، فالمعروف عند الصوفية أن العارف بالله هو من رده الله إلى البقاء بعد الفناء، فشهد الله سبحانه

وتعالى في كل ما حوله، ويذكرون أن الله تعالى إنما خلق المملكة ليُشهد فيها لا لينخلع المرء عنها، فالانخلاع والفناء يكون مرحلة من مراحل الطريق، يأتي بعدها البقاء الذي هو أكمل وأتم كما أشرنا.

### المحور الثالث: التواصل الاجتماعي الإيجابي ومكارم الأخلاق:

يقوم المنهج الصوفي في المعاملة على أساس مقام الإحسان، وهو كما ورد في السنة " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (البخاري)، وهذا المقام هو أسمى درجات الإيمان؛ حيث المعاملة الحسنی مع المخلوقات جميعاً، والبيئة المحيطة، بما تحوي من إنسان وحيوان ونبات بل وجماد.

ومن هنا حرص الصوفيّة على الصحبة التي تعين على ذلك. "لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله". ومع ذلك كانوا يتعاملون مع غيرهم بالحسنى والعفو وتلمس الأعذار، بل تعودوا -بسبب تزكية نفوسهم- أن يظنوا أن غيرهم أفضل منهم امتثالاً لقول قائلهم:

ولا تَرَيْنُ في الأرض دونك مؤمناً      ولا كافرًا حتى تُغيبَ في القبرِ  
لأن ختام الأمر عنك مغيبٌ      ومن ليس ذا خُسْرٍ يخافُ من المَكْرِ

وقد ورد في كتاب لطائف المنن موقف للإمام أبي الحسن يدل على مشاركته الإيجابية في شئون المجتمع وحرصه على إخراج تصريح لطبيب عيون يهودي (كحال) لكي يعالج الناس يقول المؤلف "ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهوديًا كحالًا ليداوي بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن؛ فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا

يداوي أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لخدمه: هَيئوا آلة السفر، وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذنًا وعاد، ولم يبت بها ليلة واحدة، ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي، فاعتذر له بما اعتذر به أولاً، فأخرج له الشيخ مكتوبًا بالإذن، فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم<sup>23</sup>.

ثم يردف موقفًا آخر يبين المشاركة الإيجابية لأهل التصوف، وأن الزهد لا يعني الفاقة والفقير الظاهري بل هو الفقر لله تعالى. فلا مانع من أن يكون الصوفي ذا مال، بشرط أن يؤدي حقه ولا يشغله عن مولاه.

يقول: "كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ: إذا دخلت إلى بلد كذا فإذهب إلى أخي فلان فأقرئه مني السلام وتطلب الدعاء منه لي فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة، فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك، فتعجبت من ذلك، وطلبته، فقبل لي: هو عند السلطان، فازداد تعجبي، فبعد ساعة، وإذا هو أتى في أفرح ملبس ومركب وكأنما هو ملك في موكبه قال: فازداد تعجبي أكثر من الأول، قال: ففهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفه الشيخ، فاستأذنت فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك، قال: جئت من عنده؟ قلت: نعم، قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغباتك فيها؟ فقلت: هذا والله أعجب من الأول! فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم، قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء، قال: لا بد أن تقول لي، فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندني إليها بقايا التطلع<sup>24</sup>.

#### فأهل التصوف الحق ينظرون إلى بواطن الأمور لا إلى ظواهرها.

أما بالنسبة إلى نظرهم إلى العمل الدنيوي والتكسب، فقد ورد في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ما نصه: "قولهم في المكاسب: أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحتها الشريعة على تيقظ وتثبت وتحرز من الشبهات. وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار. وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه"<sup>25</sup>. كما أنهم لا يتعصبون لمذهب ما بل يحترمون المخالفين ويؤمنون أنه كل مجتهد مصيب. يقول صاحب كتاب التعرف:

"قولهم في المذاهب الشرعية: إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن. ويرون اختلاف الفقهاء صواباً ولا يعترض الواحد منهم على الآخر؛ وكل مجتهد عندهم مصيب، وكل من اعتقد مذهباً في الشرع وصح ذلك عنده بما يصح مثله مما يدل عليه

الكتاب والسنة وكان من أهل الاستنباط فهو مصيب باعتقاده ذلك، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له<sup>26</sup>.

وقد أكد الدكتور مصطفى الفقي في مقاله الذي سبقت الإشارة إليه على مجموعة من المقومات الإيجابية التي تتسم بها النزعة الصوفية وتصلح منهجاً في مواجهة التطرف الفكري وما يترتب عليه من فساد في الأرض وإرهاب لا يمت بصلة للدين الإسلامي الحنيف. يقول: "إن الصوفية تمثل جيشاً سلمياً لخدمة الإسلام وليست جماعة مغلقة بالمنطق (الماسوني) للكلمة، إنها روح متجددة وحب للآخر واحترام لخيارات الغير لذلك عاشت عبر القرون دون صدام يذكر مع السلطات الحاكمة رغم أن بعضها كان ظالماً يجور أحياناً على رجال الزهد وأصحاب النظرة الشفافة تجاه الحياة والناس، ولقد اتسم الطابع الصوفي دائماً بقبول التعايش المشترك مع أصحاب الديانات الأخرى فضلاً عن نزعة متأصلة تدعو إلى احترام خيارات الغير، وإذا كانت الصوفية قد ارتبطت بالأعلام الخضراء والإيقاع الموسيقي الراقى فإنها قد عرفت أيضاً التعددية والتشعب بين طرق صوفية مختلفة ومدارس متعددة في ذكر الله قد تختلف في الأسلوب ولكنها تتوحد أمام الغاية وهي الاندماج في ذاته والانصياع لجلاله وعزته"<sup>27</sup>.

وقد أشار إلى دور الأزهر الشريف وشيوخه الأجلاء الذين جمعوا بين التصوف والفقهاء والفلسفة، في مواجهة هذه الآفات الفكرية: "إن الأزهر الشريف كان ولا يزال قلعة إسلامية صافية احتضنت مدارس التصوف وتفاعلت معها

وسعت إلى نقائها، بل إن اثنين يحملان لقب "الإمام الأكبر" في العقود الأخيرة ينتميان إلى مدارس صوفية متقاربة، ونحن نتذكر الآن شيخ الأزهر الدكتور عبد الحلیم محمود وهو قطب صوفي بارز، عرفناه بمواقفه المستقلة ورفضه الانصياع لضغوط السلطة. كذلك فإن الإمام الأكبر حالياً وهو الدكتور أحمد الطيب ينتمي إلى بيت صوفي عريق خرج من مدينة الآثار الفرعونية (الأقصر) ليثبت نظرية الجوار الأمن بين الحضارات والثقافات وهو أستاذ في الفلسفة الإسلامية، عاش فترة في مدينة النور (باريس) مثلما فعل سلفه الإمام الصوفي الراحل الدكتور عبد الحلیم محمود".

## الهوامش

- 1- الشعراني - الطبقات الكبرى ج 2 - ص 28.
- 2- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري، إمام الصوفية، وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، وهو من كبار علماء القرن الخامس الهجري، ت 465هـ.
- 3- القشيري - الرسالة - ص 36.
- 4- د أبو الوفا التفتازاني - مدخل إلى التصوف الإسلامي - ط 3 - دار الثقافة - القاهرة - 1979م - ص 163.
- 5- د مصطفى الفقي - التصوف في مواجهة التطرف - مقال بجريدة الأهرام المصرية - 18 أكتوبر 2016 السنة 141 العدد 47433.
- 6- أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي - التعرف لمذهب أهل التصوف - مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- 7- ابن الصباغ - درة الأسرار - تحقيق أنس الفقي - مركز تحقيق التراث جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا - ص 257.
- 8 - سورة الشمس 9
- 9 - رواه أحمد والنسائي والطبراني والحاكم
- 10 - ابن القيم - زاد المعاد - 3/6
- 11 - ابن رجب الحنبلي - لطائف المعارف - ص 227
- 12 - ابن رجب الحنبلي - جامع العلوم والحكم - 584/2
- 13 - أبو القاسم القشيري - الرسالة القشيرية - دار الجيل - بيروت - ص 208.
- 14 - ابن عباد الرندي - غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية - تحقيق د. عبد الحلیم محمود، د. محمود بن الشريف - دار المعارف - القاهرة - ج1 ص 125-129.

- 15 - د. أحمد طاهر حسنين - إطلالة على بردة البوصيري وترسلاته- مجلة ألف-الأدب والمقدس-العدد23-2003م-ص98.
- 16 - انظر: د أنس عطية الفقي- الاتجاه الناقد في شعر البوصيري- المكتبة العالمية للنشر والتوزيع- القاهرة- ص21 وما يليها.
- 17 - السابق ص 28
- 18 - الحكم العطائية- عصام أنس- زاد الاقتصادية- القاهرة-2004-ص33
- 19 - السابق ص 24
- 20- د. فوزي أمين - المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول - دار المعارف- القاهرة- 1982 ص 182.
- 21- انظر ابن عطاء الله السكندري / لطائف المنن / تحقيق د/ عبد الحلیم محمود / إصدارات مجلة دار الشعب 1986م - ص 44.
- 22- البخاري - (ج 20 / ص 158).
- 23- لطائف المنن 228.
- 24- لطائف المنن ص 229.
- 25- التعرف ص 56.
- 26- التعرف ص55-56.
- 27- مصطفى الفقي المقال السابق.

## نحو مشروع توثيقي لخطوط علماء التراث العربي (في عصر العولمة)

### Towards a documentary project for the fonts of arabic heritage scholars in the age of globalization

أحمد عادل عبد المولى \*

[ahmed.abdelmawla@must.edu.eg](mailto:ahmed.abdelmawla@must.edu.eg)

#### الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الدعوة إلى استحداث توثيق برمجي لخطوط العلماء المنثورة في المخطوطات التي صار الحفظ الإلكتروني لها أمراً واقعاً وملحاً في زمن العولمة المعيش. فحين يطالع المرء مخطوطة قديمة، ويجد أن الناسخ لها هو المؤلف نفسه، أو يجد المخطوطة موهورة بإجازة المؤلف لها لأحد تلاميذه، أو بإجازة بخط أحد العلماء لسماع أحد تلاميذه للكتاب، لا يماري حينئذ أن بين يديه كنزاً من الكنوز العربية.

وفي هذه الورقة استعراض لبعض ما تناثر على الشبكة العنكبوتية -مما لا يحمل صفة رسمية غالباً- من آثار لخطوط كبار العلماء في العلوم العربية

---

\* نائب رئيس التحرير - أستاذ البلاغة والنقد الأدبي والمقارن - ووكيل كلية اللغات والترجمة لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا - والمطرب المنفرد بدار الأوبرا المصرية.

والإسلامية، من أمثال: ابن مالك، وابن هشام، والسيرافي، وابن حجر العسقلاني، وأبي حامد الغزالي، والقرطبي، والنويري، وابن خلدون، والسمين الحلبي، والمقريزي، وابن الجوزي، وابن الجزري، وغيرهم.

وحين يجد المرء هذا الكمّ من خطوط العلماء متاحًا في زمن العولمة، يستشعر أن لزامًا علينا في هذا العصر أن نقوم بمشروع توثيقي يجمع هذه الخطوط ويحفظها.

ومن الجدير بالذكر أن الغاية من هذا العمل التوثيقي ليس فقط الاطلاع على خطوط علمائنا الذين عشنا مدينين لعلمهم طوال القرون السابقة، بل إنه أمر لا شك أنه سيخدم في أغراض دراسة الخط العربي ومراحل تطوره، كما يلفت النظر إلى الظواهر اللغوية الكتابية عند العلماء السابقين؛ مما يشجع على عمل دراسات عن السمات الكتابية المائتة في عصر من العصور، أو عند زمرة من العلماء، أو عند عالم بعينه من العلماء.

**الكلمات المفتاحية: خطوط العلماء، المخطوطات، العولمة.**

## **Abstract**

This research paper aims to develop software documentation of the lines of scholars scattered in manuscripts, for which electronic preservation has become a reality and urgent in the time of globalization. When a person browses an old manuscript and finds that the scribe is the author himself, or discovers the manuscript signed with the author's permission for it one of his students, or with the consent of a scholar's handwriting for one of his students to hear the book, then he does not think that in his hands is a treasure of Arab treasures.

This paper is a review of some of what is scattered on the Internet - which often does not bear an official character - from the traces of the lines of the great scholars in the Arab and Islamic sciences, such as: Ibn Malik, Ibn Hisham, Al Serafi, Ibn Hajar Al-Asqalani, Abu Hamid Al-Ghazali, Al-Qurtubi, and Al-Nuwairi, Ibn Khaldun, Al-Maqrizi, Ibn Al-Jawzi, Ibn Al-Jazari, and others. When one finds this number of scholarly lines available in the era of globalization, he feels that we have an obligation in this era to undertake a documentation project that collects and preserves these lines.

It is worth noting that the purpose of this documentary work is not only to see the lines of our scholars who have lived indebted to their knowledge throughout the previous centuries, but will serve the purposes of studying Arabic calligraphy and its stages of development, and to the written linguistic phenomena of previous scholars.

**Keywords: Scholars' Fonts, Manuscripts, Globalization.**

## (1)

### المقدمة

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الدعوة إلى استحداث توثيق برمجي لخطوط العلماء المنثورة في المخطوطات التي صار الحفظ الإلكتروني لها أمراً واقعاً وملحاً في زمن العولمة المعيش.

فحين يطالع المرء مخطوطة قديمة، ويجد أن الناسخ لها هو المؤلف نفسه، أو يجد المخطوطة ممهورة بإجازة المؤلف لها لأحد تلاميذه، أو بإجازة بخط أحد العلماء لسماع أحد تلاميذه للكتاب، لا يماري حينئذ أن بين يديه كنزاً من الكنوز العربية.

وفي هذه الورقة استعراض لبعض ما تتأثر على الشبكة العنكبوتية -مما لا يحمل صفة رسمية غالباً- من آثار لخطوط كبار العلماء في العلوم العربية والإسلامية، من أمثال: ابن مالك، وابن هشام، والسيرافي، وابن حجر العسقلاني، وأبي حامد الغزالي، والقرطبي، والنويري، وابن خلدون، والسمين الحلبي، والمقرزي، وابن الجوزي، وابن الجزري، وغيرهم.

وحين يجد المرء هذا الكمّ من خطوط العلماء متاحاً في زمن العولمة، يستشعر أن لزاماً علينا في هذا العصر أن نقوم بمشروع توثيقي يجمع هذه الخطوط ويحفظها، بحيث يدخل القارئ على الموقع الإلكتروني، ويكتب في خانة البحث مثلاً: ابن منظور، فيأتي كل ما تحتضنه المكتبات من كتابات لابن منظور بخطه، مؤرخة بتاريخ نسخها.

ومن الجدير بالذكر أن الغاية من هذا العمل التوثيقي ليس فقط الاطلاع على خطوط علمائنا الذين عشنا مدينين لعلمهم طوال القرون السابقة، بل إنه أمر لا شك أنه سيخدم في أغراض دراسة الخط العربي ومراحل تطوره، كما يلفت النظر إلى الظواهر اللغوية الكتابية عند العلماء السابقين؛ مما يشجع على عمل دراسات عن السمات الكتابية المائزة في عصر من العصور، أو عند زمرة من العلماء، أو عند عالم بعينه من العلماء.

## (2)

وقد عُنيت بهذا الموضوع دراسة رائدة بعنوان (خطوط العلماء من القرن الخامس إلى العاشر هجري- نماذج وأسئلة) من إعداد عبد الله بن محمد الكندري، وقد ذكر الباحث في مقدمته للكتاب أن الهدف الأساسي من وضع الكتاب هو "اختيار عينة من خطوط العلماء كنماذج حضارية، للحركة العلمية في تلك العصور الزاهرة، وقد تم حصر هذه الاختيارات من مجموعة المخطوطات الظاهرية.

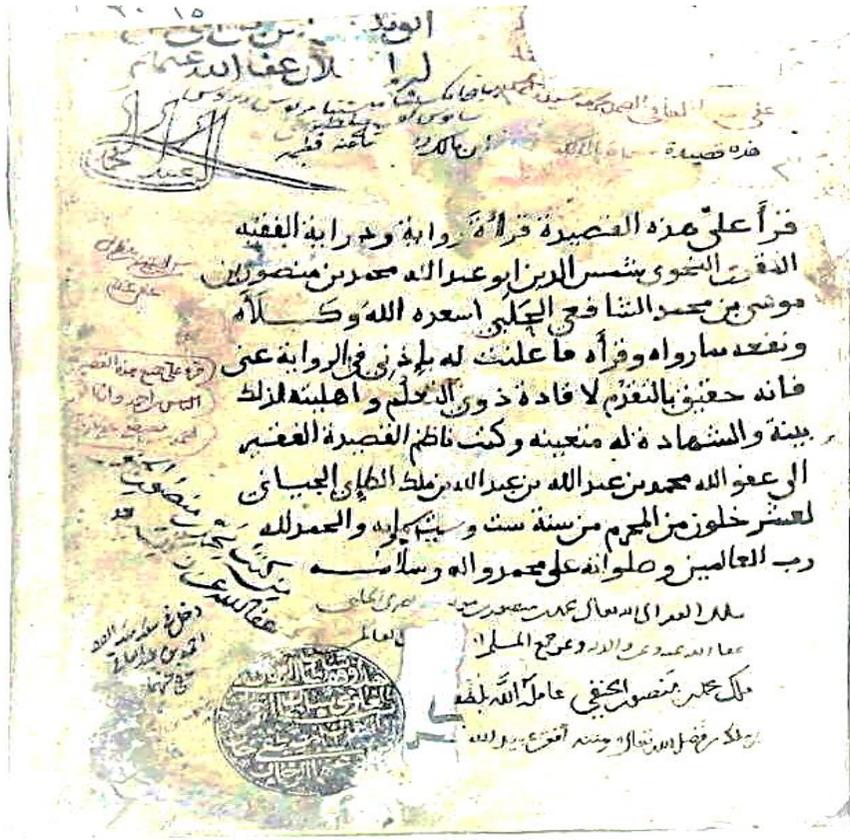
وهي عبارة عن (ثلاثمائة) نموذج من خطوط العلماء، تنوعت في مستوياتها، من الخط الجميل المشكل، المتميز بحسن الرسم، وجمال الأداء، ومتانة الضبط والشكل، وخطوط أخرى، صعبة القراءة، كثيرة التشبيك، قليلة الإعجام، اختلفت وتنوعت، باختلاف وتنوع العطايا الربانية، والمواهب الإلهية".<sup>(1)</sup>

وهذه الدراسة وإن كانت رائدة في بابها في عصرنا الحديث، فإنها قد بدأت بالقرن الخامس الهجري، واقتصرت على نماذج للساعات بخطوط علماء هذه القرون، ومن ثمّ فهي كما أسماها الباحث نفسه (نماذج وأسئلة). كما أن البحث فيها عن اسم عالم بعينه لرؤية خطّه من بين أصحاب الخطوط، أمرٌ مجهدٌ للغاية؛ حيث إن الفهرس المصنوع لأصحاب الخطوط كان بأسماء العلماء كاملة؛ مما يلزم معه أن يكون القارئ على دراية مسبقة باسم العالم الذي يبحث عن خطه، فمثلا لا يكتفي المرء بأن يعرف اسم الإمام القسطلاني، بل لا بد لكي يعثر عليه أن يعرف أنه العالم الذي اسمه كاملا: (قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن علي القسطلاني المصري ثم المكي الشافعي). وهو أمر جدّ عسير، لكن من خلال تقنيات عصر العولمة المعيش، صار الأمر بضغطة واحدة في خانة البحث؛ يأتي البرنامج الإلكتروني بكل عالم في اسمه (القسطلاني) مثلا.

لذا فما نهدف إليه هنا هو الدعوة إلى توثيق إلكتروني مصوّر يمثل مسحاّ شاملاّ لخطوط العلماء منذ القرون الهجرية الأولى حتى عصر الطباعة.

### (3)

حين تطالع أيها القارئ الكريم نصّا مخطوطاً كذلك النصّ الآتي، وتجدّه إجازة خطية بخط إمام النحاة وصاحب الألفية محمد بن مالك الأندلسي بالرواية عنه، وهي مؤرخة في العاشر من محرم سنة ست وستين وستمائة للهجرة؛ فإن في معاينتها ما يغني عن خبرها.



وتتبع مشاهدة مثل هذا الأثر النفيس سؤالات عن إجازات أخرى بخط هذا العالم الجليل، أو مؤلف حظي بخط قلمه، وكذلك الحال عند غيره من أساطين العلم، لا سيما أن هذا هو ما تبقى لنا من آثار عينية لهؤلاء العلماء. لقد شاءت إرادة الله أن يحظى عصرنا بأحدث تقنيات التوثيق السمعي والبصري، حتى صرنا نشاهد من سبقونا ممن شهدوا بواكير زمن التوثيق وكأنهم لا يزالون يعيشون بيننا، وكم كان يأمل المرء أن لو كانت تقنيات التصوير أو

الإذاعة والتلفزة مكتشفة من قديم؛ فننعم برؤية أسلافنا وسماع أصواتهم، بدءًا من قم الخلق رسلنا الأنبياء، ثم ورثتهم العلماء، ولكن قدر الله وما شاء فعل. ولكن لم يُعدم الخير كله ولله الحمد، فقد ظلت المخطوط أثرًا عينيًا حيا باقيا نرى من خلاله صورة العالم في قلمه وخطه.

#### (4)

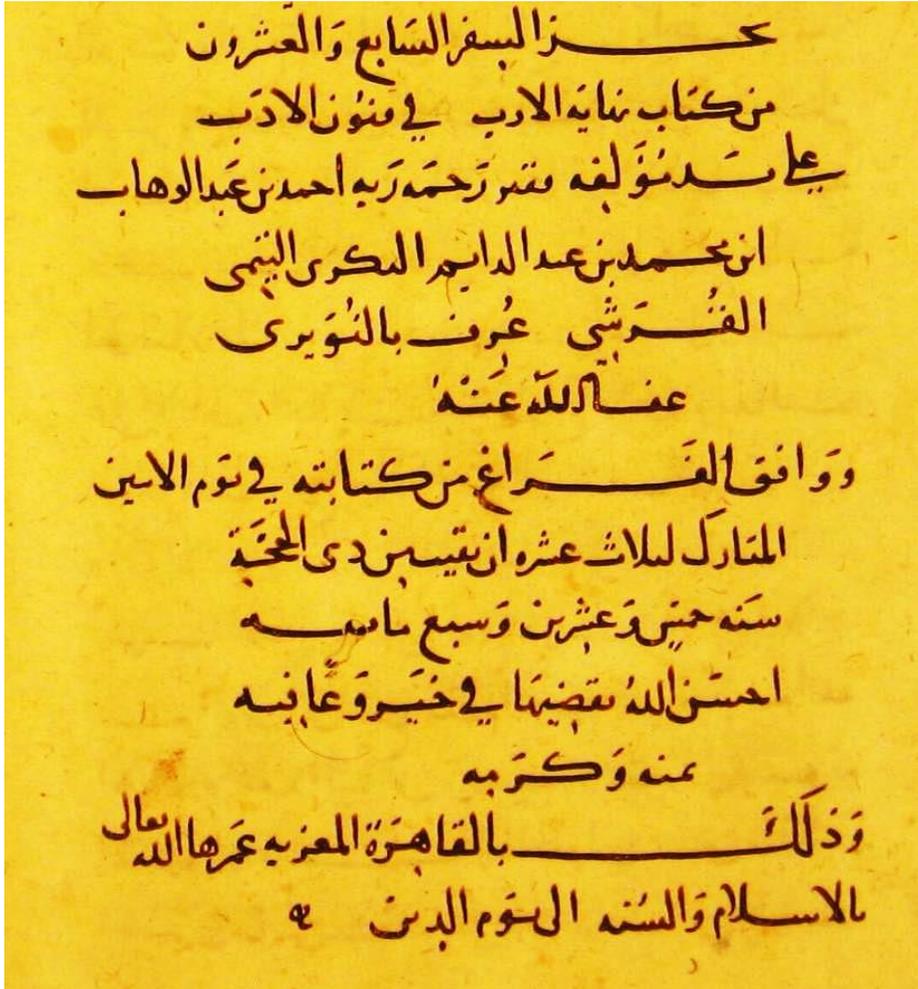
من المعلوم أن النسخة المخطوطة بخط المؤلف تعطي عرش الصدارة في علم المخطوطات وتحقيق النصوص، تليها النسخة المقروءة على المؤلف، فالنسخة المنقولة عن نسخة المؤلف، أو المقابلة بنسخته، ثم النسخة التي كتبت في حياة المؤلف.<sup>(2)</sup>

وقد احتفظت لنا دور المخطوطات بعدد من المخطوطات التي كتبت بخطوط مؤلفيها، وأيضا التي كتبت في حياة مؤلفيها على يد تلاميذهم من العلماء أيضا.

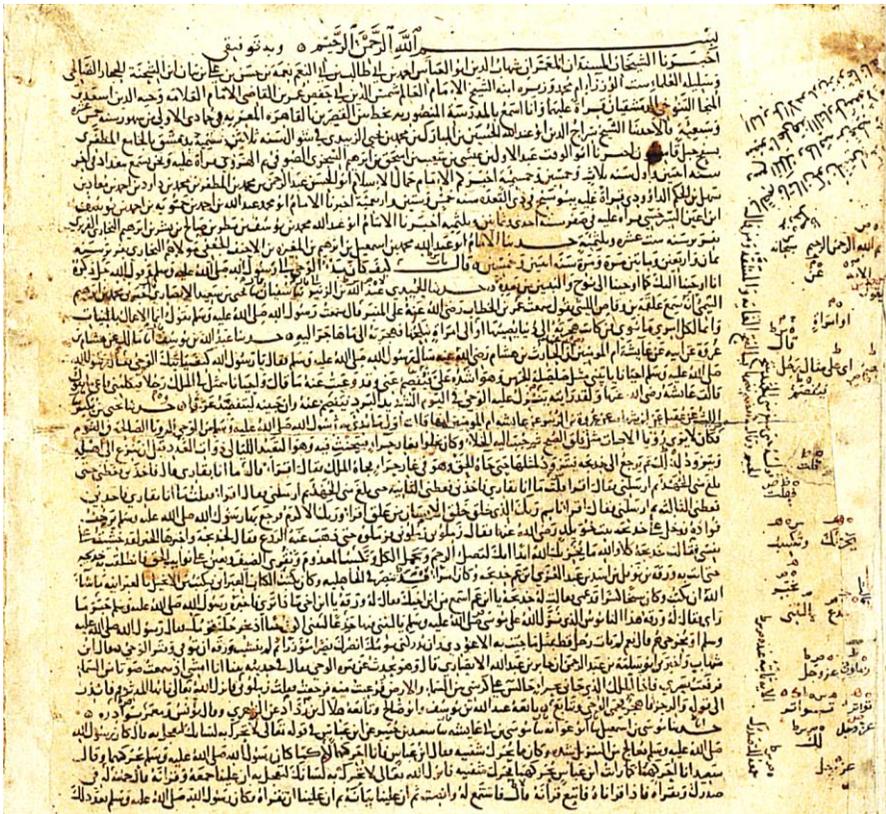
من ذلك ما نص عليه صاحب كتاب (أقدم المخطوطات) على سبيل المثال من وجود نسخة لكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي بخطه سنة 454هـ، محفوظة في مكتبة برلين، برقم 7173، وعنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية، ومخطوطة بهذا الوصف جديدة بأن تنشر بخط ابن سنان نفسه وتوثيقه إلكترونيا.<sup>(3)</sup>

ومن ذلك ما وجدناه من خط الموسوعي المصري شهاب الدين النويري (ت 733هـ = 1333م) الجميل لكتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب). وجدير

به أن يكون كذلك، فقد اشتغل في بادئ حياته في نسخ الكتب القيمة، ومارس الكتابة والحسبة في بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقيل كان يكتب النسخة من صحيح البخاري ويبيعهها بألف دينار.



النويري بخطه في نهاية السفر السابع والعشرين



الصفحة الأولى من صحيح البخاري بخط النويري

(5)

وكذلك من أنفس ما ذكره صاحب كتاب (أقدم المخطوطات) وصف  
لنسخة مخطوطة (الرسالة في أصول الفقه) للإمام محمد بن إدريس الشافعي  
(ت 204هـ)، حيث قال عنها: "نسخة قديمة في دار الكتب، كتبت سنة 265هـ  
= 878م، وعليها خط الربيع بن سليمان (ت 270هـ = 884م) بالإجازة في  
آخر نسخته، وهذا نص ما فيها: "أجاز الربيع بن سليمان، صاحب الشافعي،  
نسخ كتاب الرسالة، وهي ثلاثة أجزاء، في ذي القعدة سنة خمس وستين ومائتين.  
وكتب الربيع بخطه... هذه النسخة، أقدم مخطوطة في دار الكتب المصرية." (4)

أ.د/ أحمد عادل عبد المولى

(نحو مشروع توثيقي لخطوط .....)

وقد فُقدت للأسف من الدار، ولكنها وُجدت بعد ذلك مصورة على شبكة الإنترنت. ولا يبالغ المرء إذا قال إن هذه النسخة التي تعدّ من أقدم المخطوطات العربية بمصر، إن لم تكن أقدمها بعد نسخة المشهد الحسيني من المصحف العثماني، اكتسبت نفاستها ليس من قدمها فحسب، بل من الإجازة التي عليها بخط الربيع بن سليمان صاحب الشافعي أيضًا. "فقد تكون هناك نسخة قديمة، غير أن ناسخها جاهل كثير الخطأ والتصحيف والتحريف، بجوار نسخة أخرى حديثة، غير أن ناسخها عالم جليل، مشهود له بالدقة وتحريّ الصواب. وعندئذ لا بد للمحقق أن يعدّ هذه النسخة الحديثة أمّا يعتمد عليها في نشر الكتاب"<sup>(5)</sup>.

وهذه هي قطعة الصفحة الأخيرة التي فيها إجازة نسخ الكتاب بخط الربيع بن سليمان في أسفلها:



وبذلك أيضًا تفردت النسخة اليونانية من صحيح البخاري، حيث تعدّ أنفس النسخ المخطوطة لكتاب الصحيح، والتي اعتمدت عليها الطبعة السلطانية لصحيح البخاري كما ذكر المحقق الكبير أحمد شاکر، حيث كان الإمام شرف الدين اليوناني (ت 701هـ) كثير العناية بصحيح البخاري، وقد عقد مجالس لإسماع صحيح البخاري بحضرة ابن مالك النحوي الكبير بدمشق، وكان اليوناني شيخًا مقرأً مسمعًا، وكان ابن مالك - وهو يكبره بعشرين سنة - سامعًا راويًا،

وضابطاً أيضاً لألفاظ الكتاب من جهة العربية، والتوجيه والتصحيح. وكتب العلامة ابن مالك بخطه بحاشية ظاهر الورقة الأولى من المجلد الأخير: "سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخاري رضي الله عنه بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد اليونيني رضي الله عنه وعن سلفه، وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء، ناظرين في نسخ معتمد عليها، فكلما مرّ بهم لفظ ذو إشكال بينت فيه الصواب..."

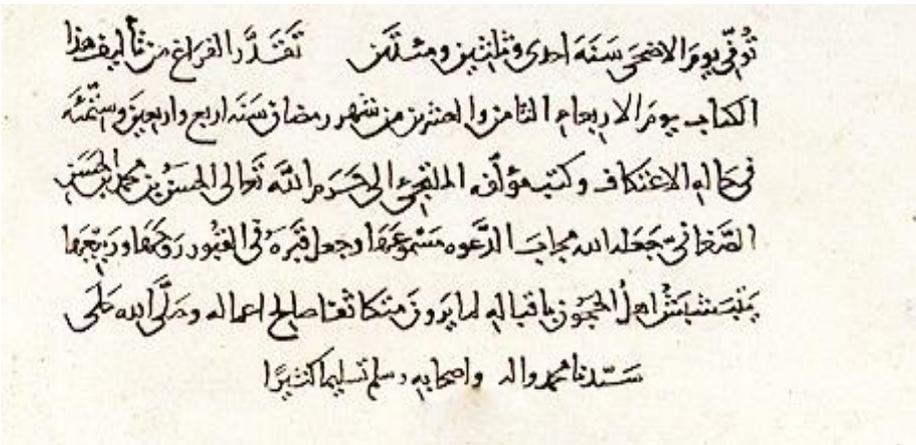
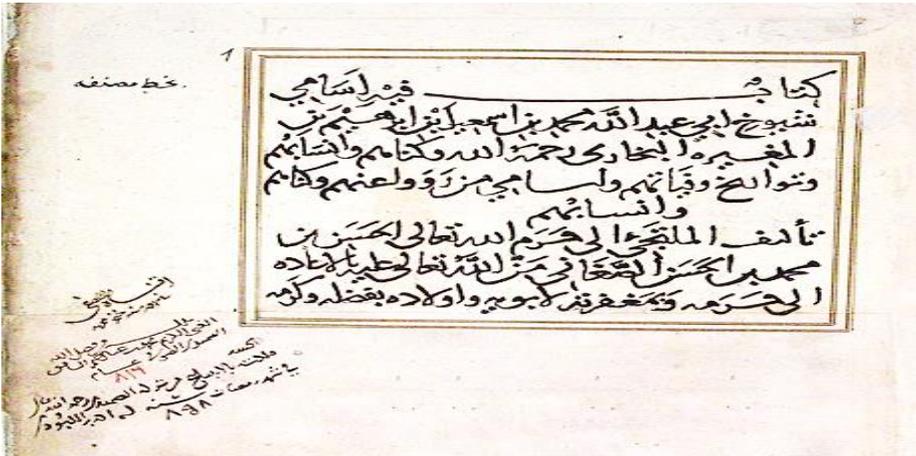
كما كتب اليونيني بخطه في آخر الجزء السابق نفسه:

"بلغت مقابلة وتصحيحاً وإسماعاً بين يدي شيخنا شيخ الإسلام، حجة العرب، مالك أزمة الأدب، الإمام العلامة أبي عبد الله بن مالك الطائي الجياني أمد الله تعالى عمره، في المجلس الحادي والسبعين، وهو يراعي قراءتي، ويلاحظ نطقي، فما اختاره ورجّحه وأمر بإصلاحه أصلحته، وصححت عليه، وما ذكر أنه يجوز فيه الإعرابان أو ثلاثة، فأعملت ذلك على ما أمر ورجّح..."<sup>(6)</sup>

هذا ما نقله القسطلاني في شرحه، ونقله عنه مصححو الطبعة السلطانية، وليتنا نظفر بصورة لهذين النصين النفيسين، بلّة بصورة النسخة اليونينية الأصلية.

(6)

وما أجمل أن يجتمع الحسنيان معاً، نسخ عالم لغوي لكتابه أو كتاب غيره بخط جميل، فقد تحقق لدينا الإتقان اللغوي، والجمال الشكلي. من ذلك خط العالم اللغوي الجميل (الحسن بن محمد الصغاني) لكتابه (أسامي شيوخ البخاري) الذي كان الفراغ منه يوم الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وأربعين وستمائة، وهو موجود على الشبكة العنكبوتية كاملاً على موقع موسوعة صحيح البخاري<sup>(7)</sup>.

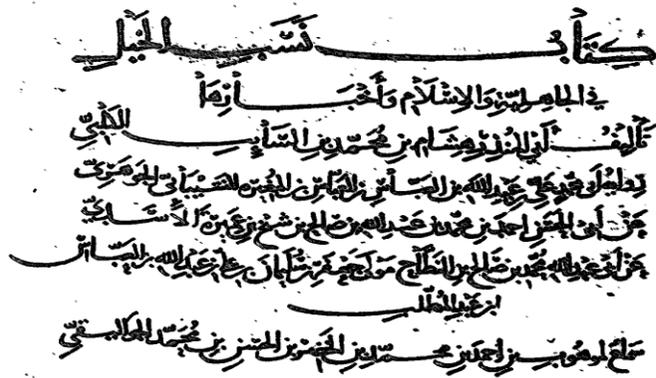


أ.د/ أحمد عادل عبد المولى

(نحو مشروع توثيقي لمخطوط .....)

"ومن أمثلة المخطوطات الجيدة، التي كتبها بعض العلماء المشهود لهم بطول الباع في العلم والدقة والضبط، ذلك المجموع الذي كتبه بخط يده العالم اللغوي المشهور: أبو منصور الجواليقي (المتوفى سنة 539هـ)، والمحفوظ بدير الإسكوريال بمدريد، تحت رقم 1705، والذي يحتوي على ثمانية كتب هي: أسماء خيل العرب وفرسانها، لابن الأعرابي، ونسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، لابن الكلبي، والإبل والشاء، للأصمعي، والأمثال لأبي عكرمة الضبي، ونسب عدنان وقحطان، للمبرد، وما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس، لأبي موسى الحامض، والأمثال لمؤرج السدوسي". (8)

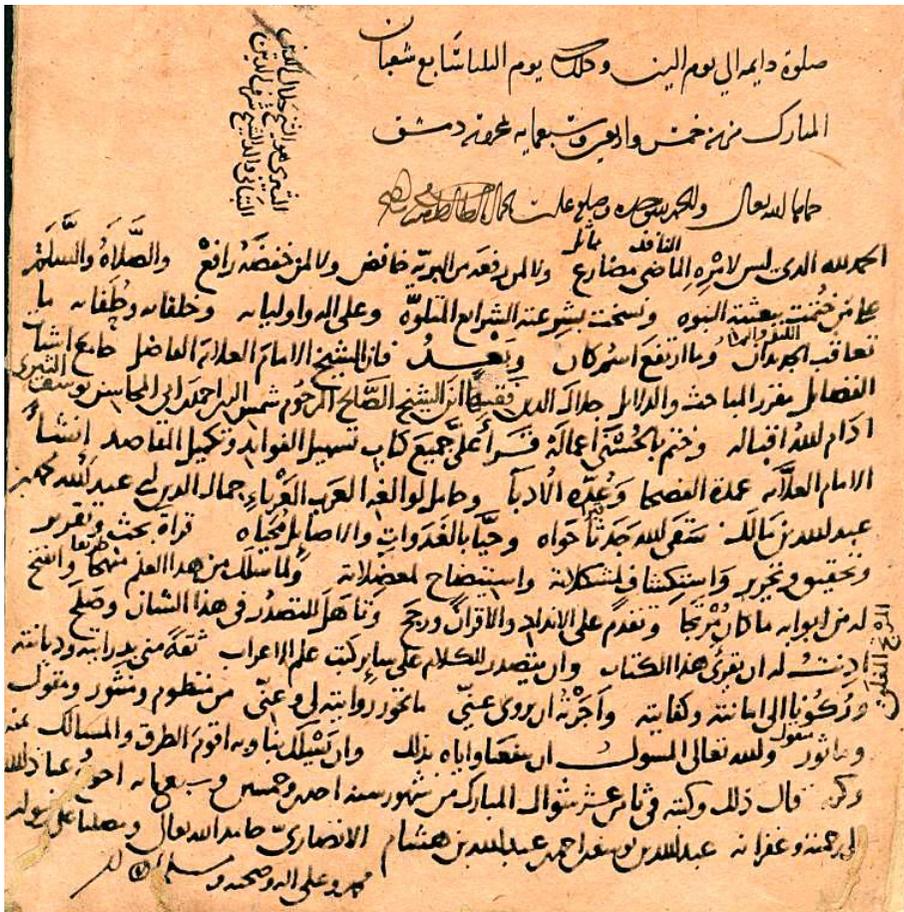
ومن الجدير بالذكر أن مخطوطات الإسكوريال صارت محفوظة على شبكة الإنترنت، يسهل تحميلها والرجوع إليها في عصر العولمة العجيب!



صورة من مجموع الجواليقي بخطه

(7)

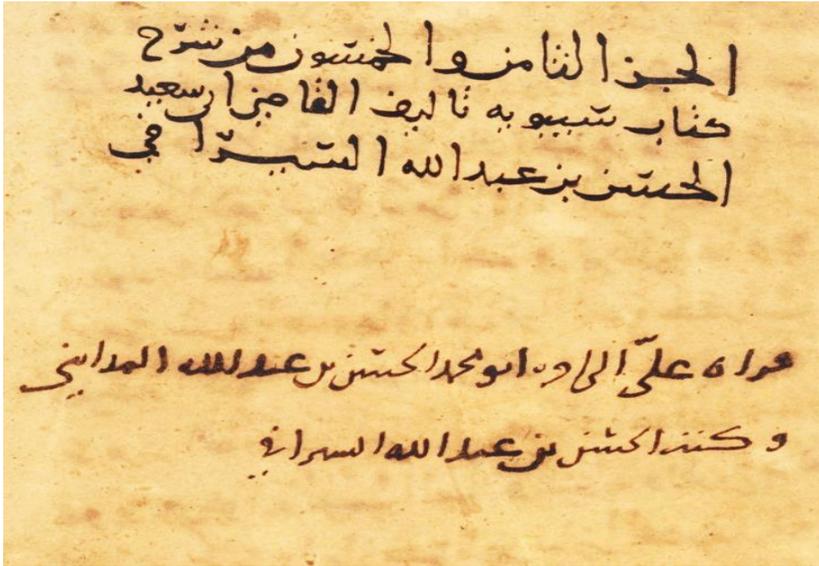
قد سبق أن ذكرنا في مقدمة هذه الصفحات أن دراسة خطوط العلماء من الأهمية بمكان في معرفة تطور الخط العربي، ودقة الكتابة عند العلماء القدامى، ومدى اختلاف طرق الرسم الإملائي بيننا وبينهم، وهذا نموذج عملي لما نهدف إليه، وما أجمل أن يكون النموذج بخط الإمام النحوي الكبير ابن هشام المصري صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعراب (ت 761 هـ = 1360م) في إجازته لرواية كتاب (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) لابن مالك الأندلسي.



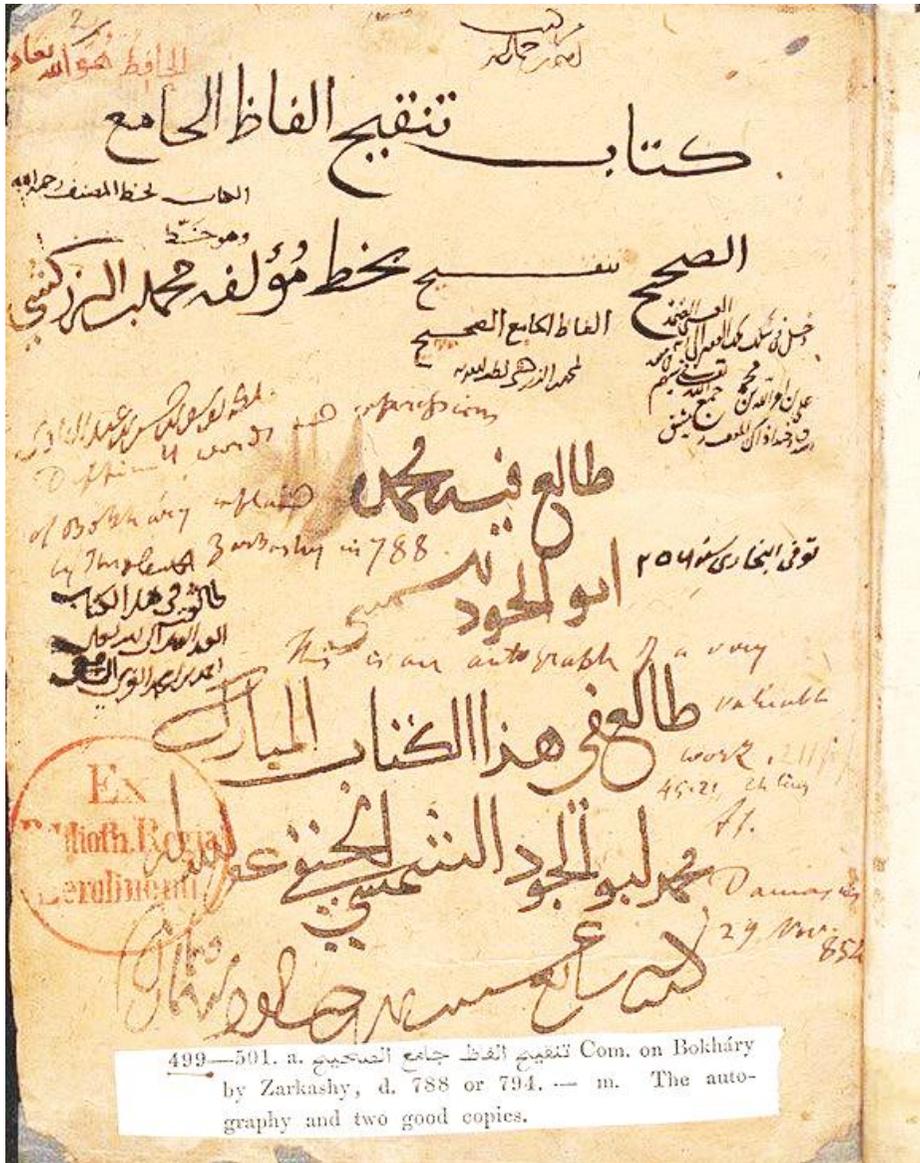
- إن النظرة العاجلة لهذا الكنز الرائع من خط ابن هشام النحوي، تجعلنا نلحظ الأمور الآتية في كتابته:
- الميل إلى تسهيل الهمز في أغلب مواضعه إلا في بعض الكلمات، مثل: (قرأ- إنشاء-العرباء)...
  - كتابة التاء المربوطة هاء في جميع المواضع.
  - عدم كتابة الألف المتوسطة والتعويض عنها بالألف الخنجرية كما في الرسم العثماني للمصحف الشريف، كما في قوله: (والصلاة والسلام).
  - مراعاة نقط الإعجام للكلمات.
  - العناية بالضبط الإعرابي وكذلك البنائي لبعض الكلمات، كوضع الشدة، وضمة المبني للمجهول.
  - مراعاة إقامة السجع كتابة، فكان يلجأ إلى وضع سكون آخر الاسم حتى يقف القارئ عليه مراعاة للجرس الذي أراده بسجعه.

(8)

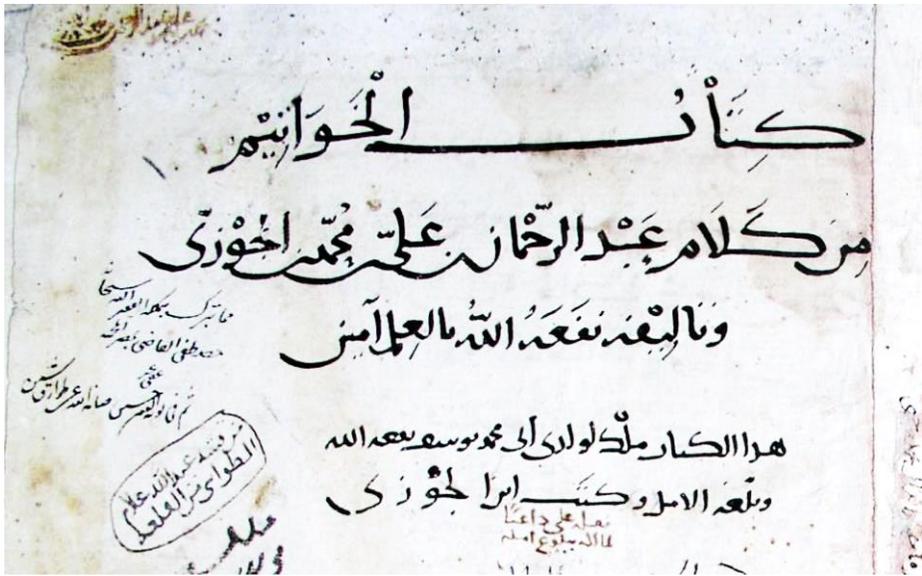
أحسب أن قد بدا واضحًا ما تهدف إليه هذه الورقة، وأترك القارئ الكريم في هذه الصفحات الأخيرة مع نماذج، بل قل كنوزًا محفوظة من خطوط علمائنا الأجلاء في مختلف العلوم من قراءات وتفسير، وحديث، ولغة وأدب، ورقائق، لتجد يومًا من يقوم على شأن توثيقها إلكترونيًا.



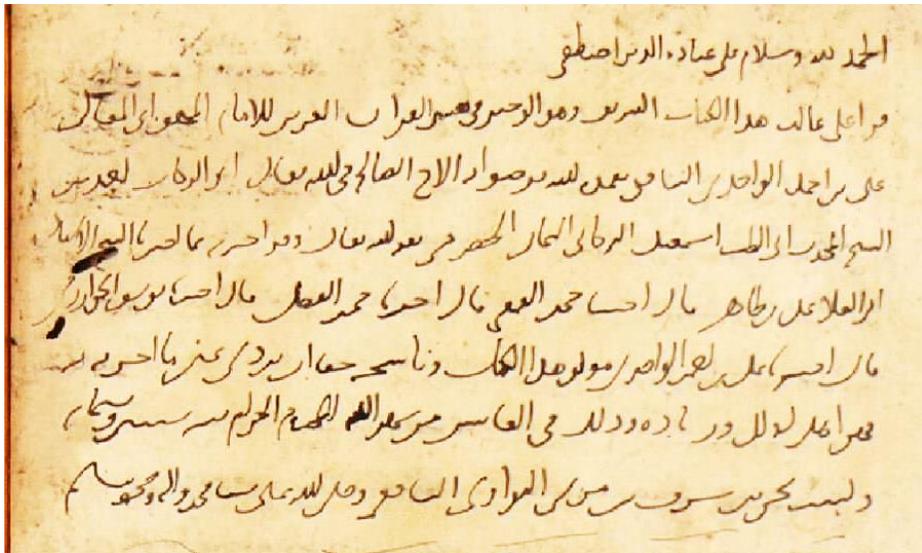
خط أبي سعيد السيرافي (ت 368هـ) على شرحه لكتاب سيبويه



خط محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ) صاحب (البرهان في علوم القرآن) في نسخه  
لكتابه (تنقيح ألفاظ الجامع الصحيح)

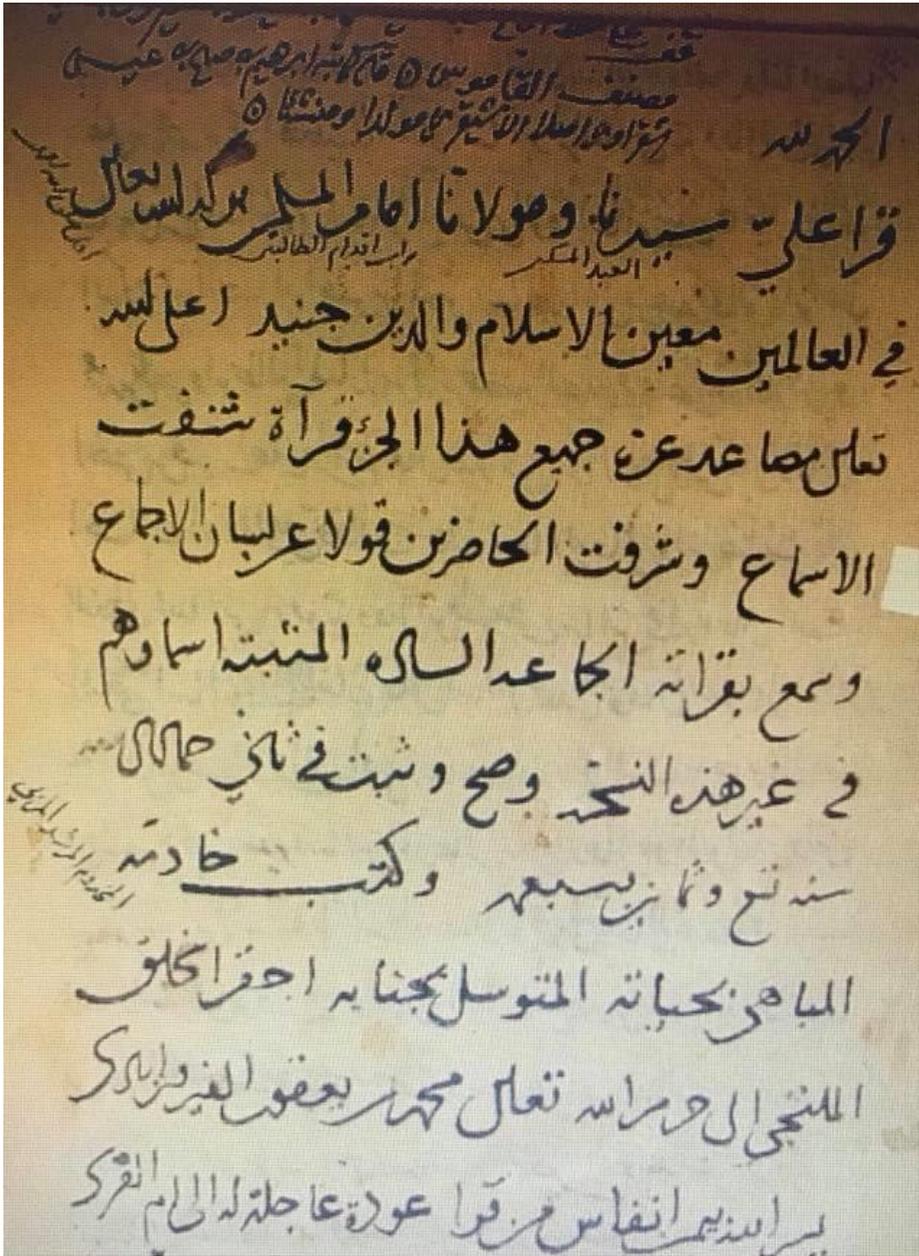


خط ابن الجوزي (ت 597هـ)

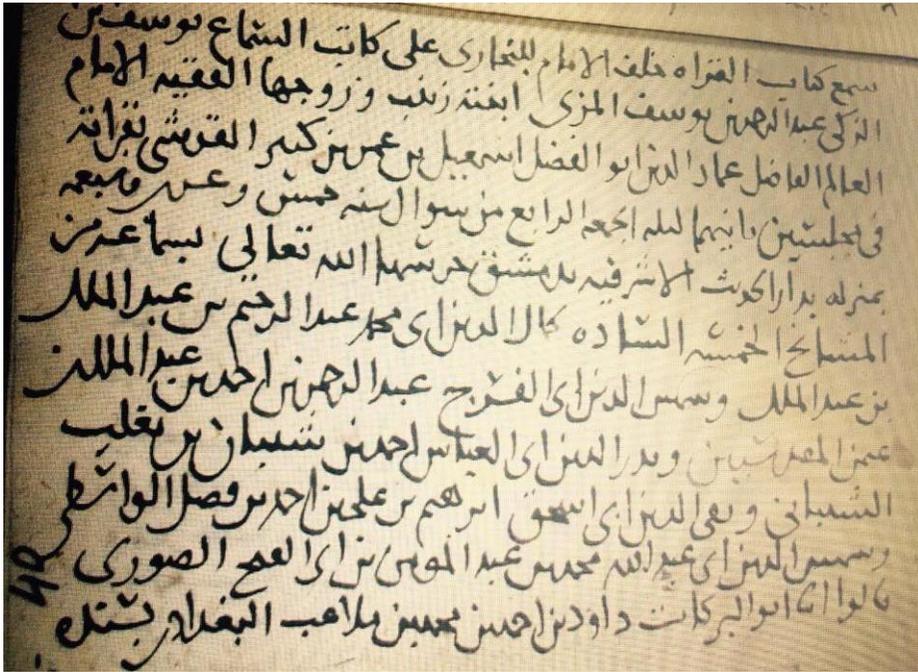


إجازة بخط النووي (ت 676هـ) رحمه الله على نسخة من تفسير الواحدي

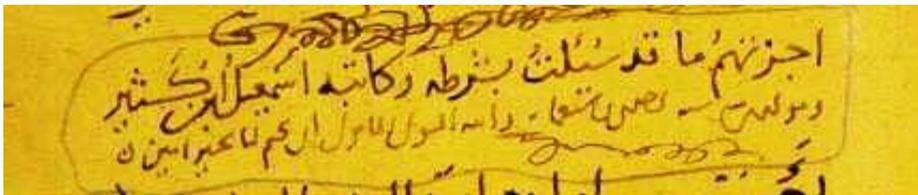




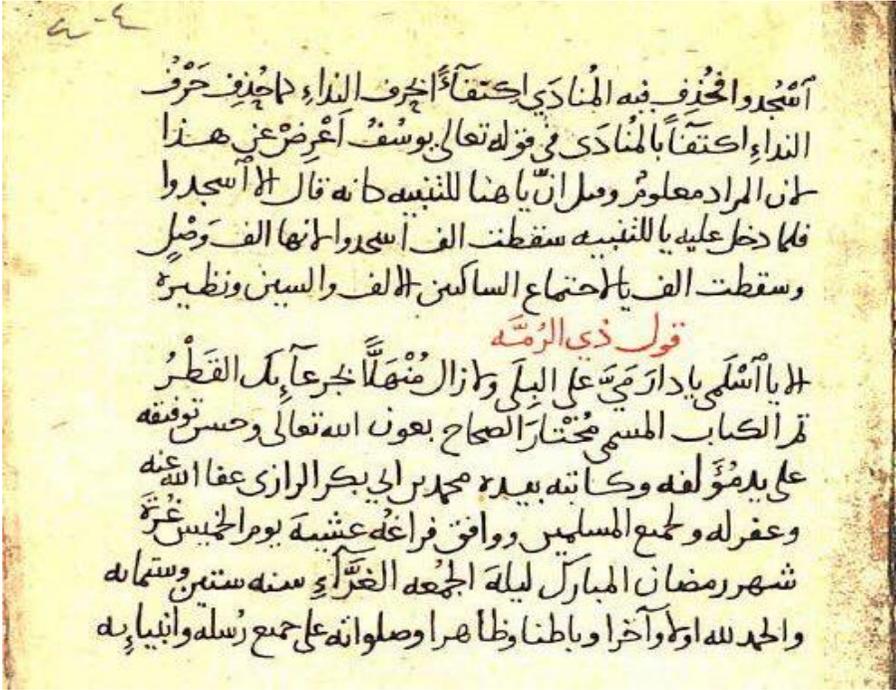
إجازة بخط الفيروزابادي صاحب القاموس مؤرخة سنة ٧٨٩ برواية جزئه الحديثي



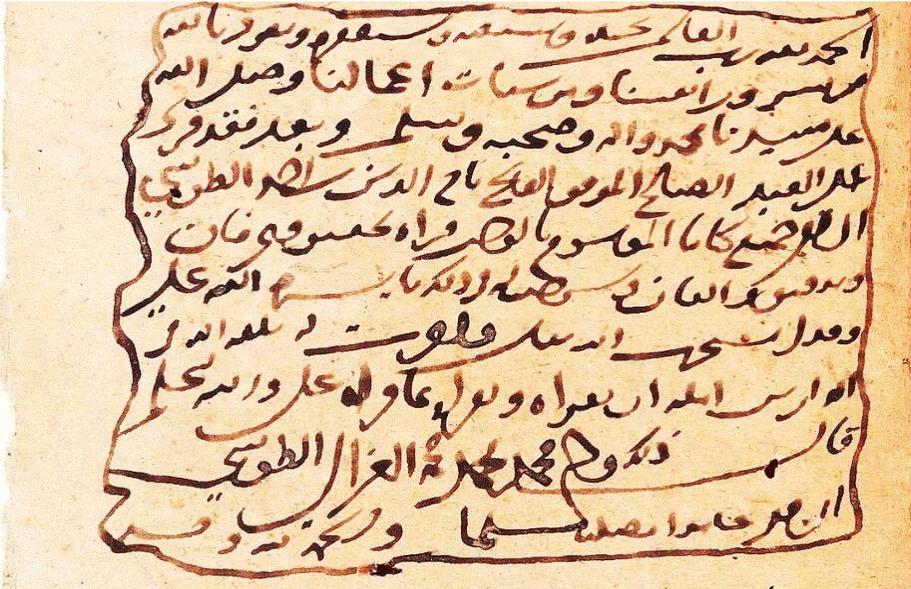
سماع لكتاب (القراءة خلف الإمام) للبخاري بخط الإمام المزي (ت 742هـ) بحضور ابنته زينب وزوجها الإمام المفسر ابن كثير مؤرخة في الرابع من شوال سنة 725هـ



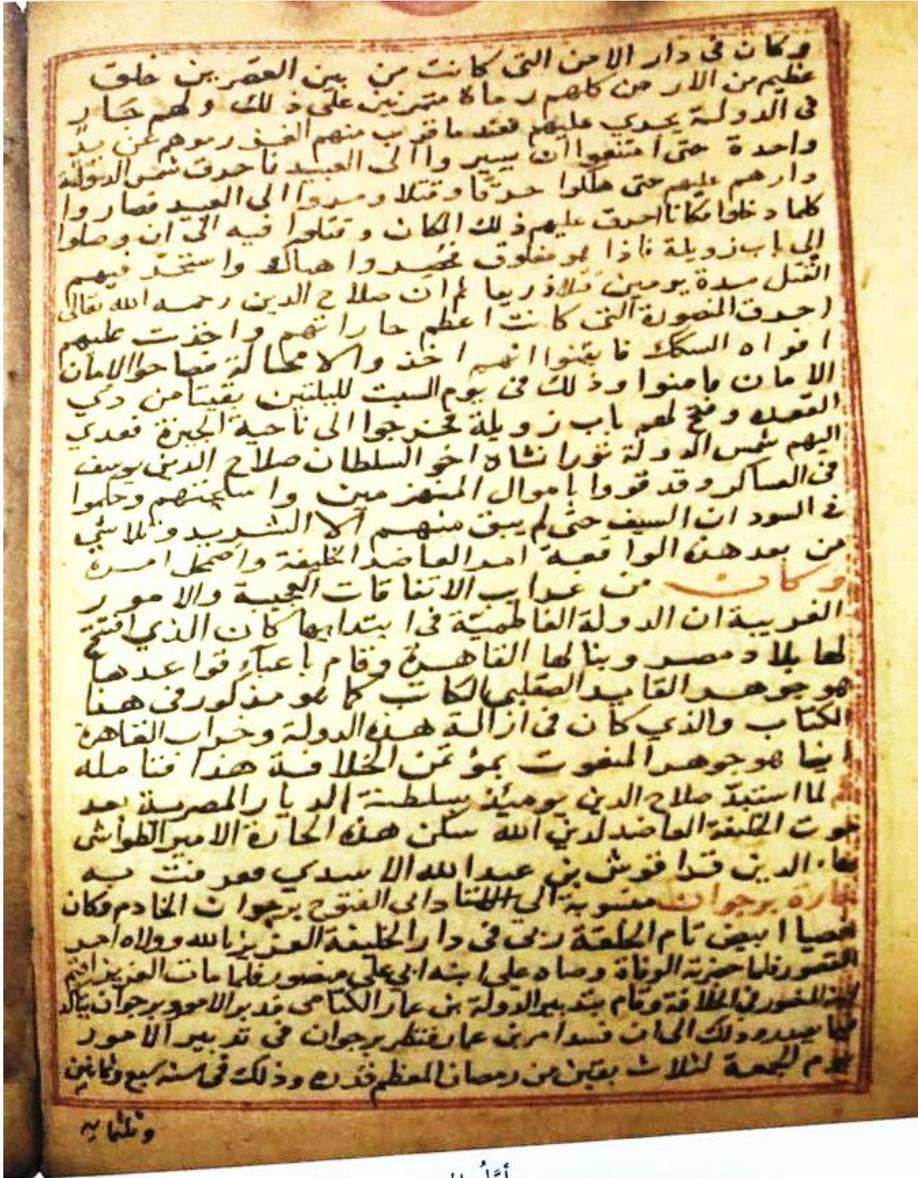
خط الإمام ابن كثير (ت 774هـ)



خط محمد بن أبي بكر الرازي صاحب مختار الصحاح سنة 660هـ

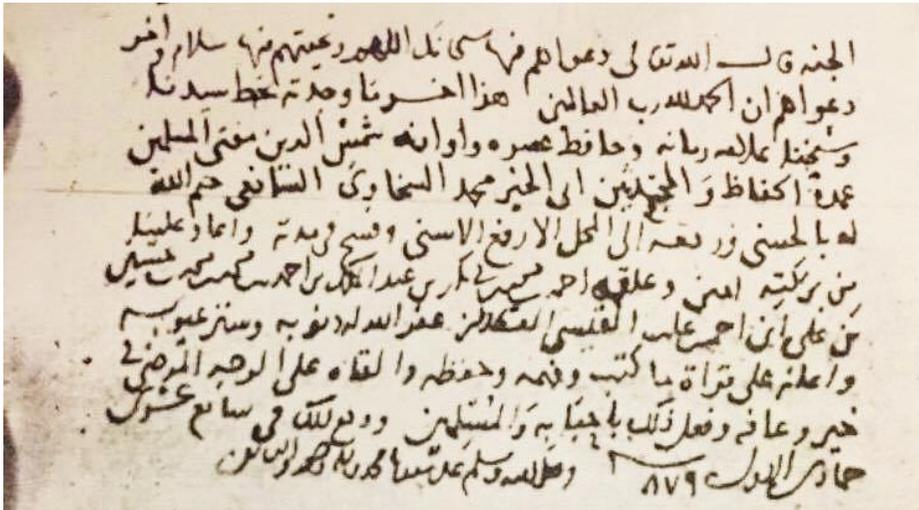


خط الإمام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين (ت 505هـ)



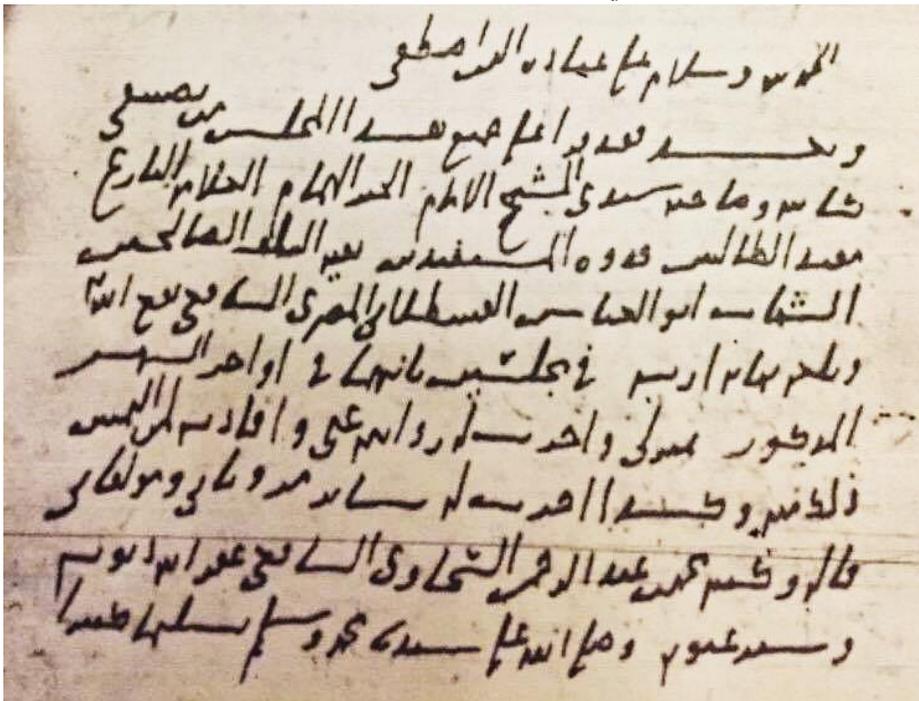
أول الموجود بخط المقرئ من المجلد الثالث (1605)

خط مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المقرئ (ت 845 هـ)



الجنة قال الدعوات الى دعواتهم في سائر اللهد رخصتهم من سلام اخر  
دعواتهم ان اكله رب العالمين هذا اخروننا وحدثه بخط سيدنا  
وسنجدنا علامه ربنا و حافظ عصره واوانه شمس الدين مفتي المسلمين  
عمدة اكفاظ والمجتهدين ابي الخير محمد السخاوي القسطنطيني حم الله  
له بالحسن زرعة الى الكل الارفع الاسنى وفتح في مده واعداد عليا  
بن بركته امن وعلقه احد منسج في كرسى عند الملك بر احمد سنة خمس  
من علي ابن احمد علي القنسي العكلاز عفر الله له نوبه وسنر عيوب  
واعلمه على قراة ما كتب وفيه وحفظه والقطه على الوجه المرضي  
خير وعافه وفعل ذلك باجابه والمستلهن وودع لك في سابع عشر  
جمادى الاولى ٨٧٩ هـ وطلبه لم يعد ساكره ولا كرهه من

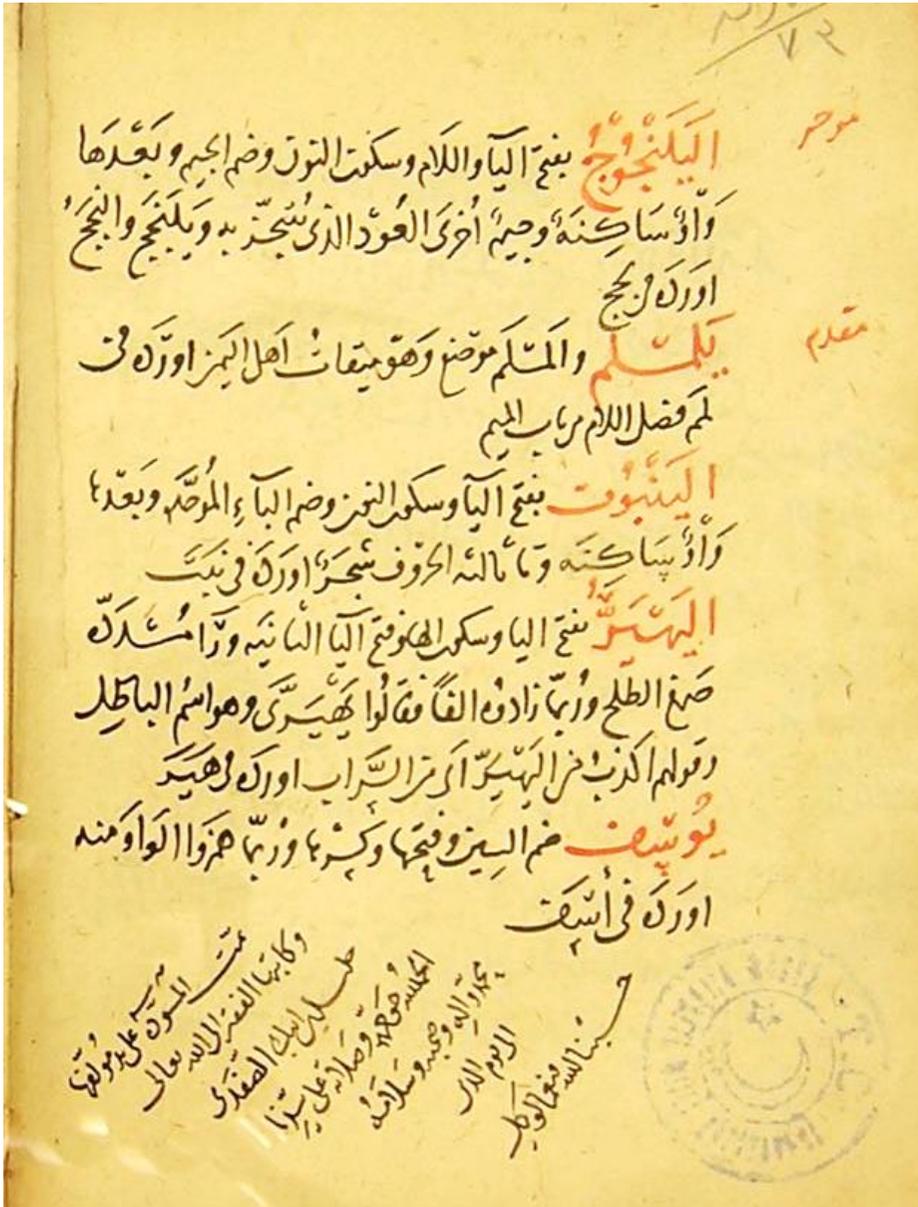
خط الإمام القسطلاني (923هـ) بالسماع عن السخاوي سنة (879هـ)



الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى  
وبعد فقد راى على جميع هذه المجلس من بصري  
شام وما عداه في الشيخ الامام الحد الامام العلام البارع  
معهد الطالبه فوه المستفيدة بغير الملك الصالح محمد  
الشماس ابو العباس القسطلاني المصري الكوفي مع اتنا  
ولم بهام اربم في جلتيه بانها في او اخر الشهر  
المرطور بمصرى واحمد رداهم على وافادهم من المرسه  
لذا فمروا به في احد من ممد وباري ومولكاس  
قاله وتضم محمد بن عبد الرحمن السخاوي الكوفي عن عمه ادم يوسف  
وسعد عموه وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

خط الإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ) بإجازة السماع للقسطلاني

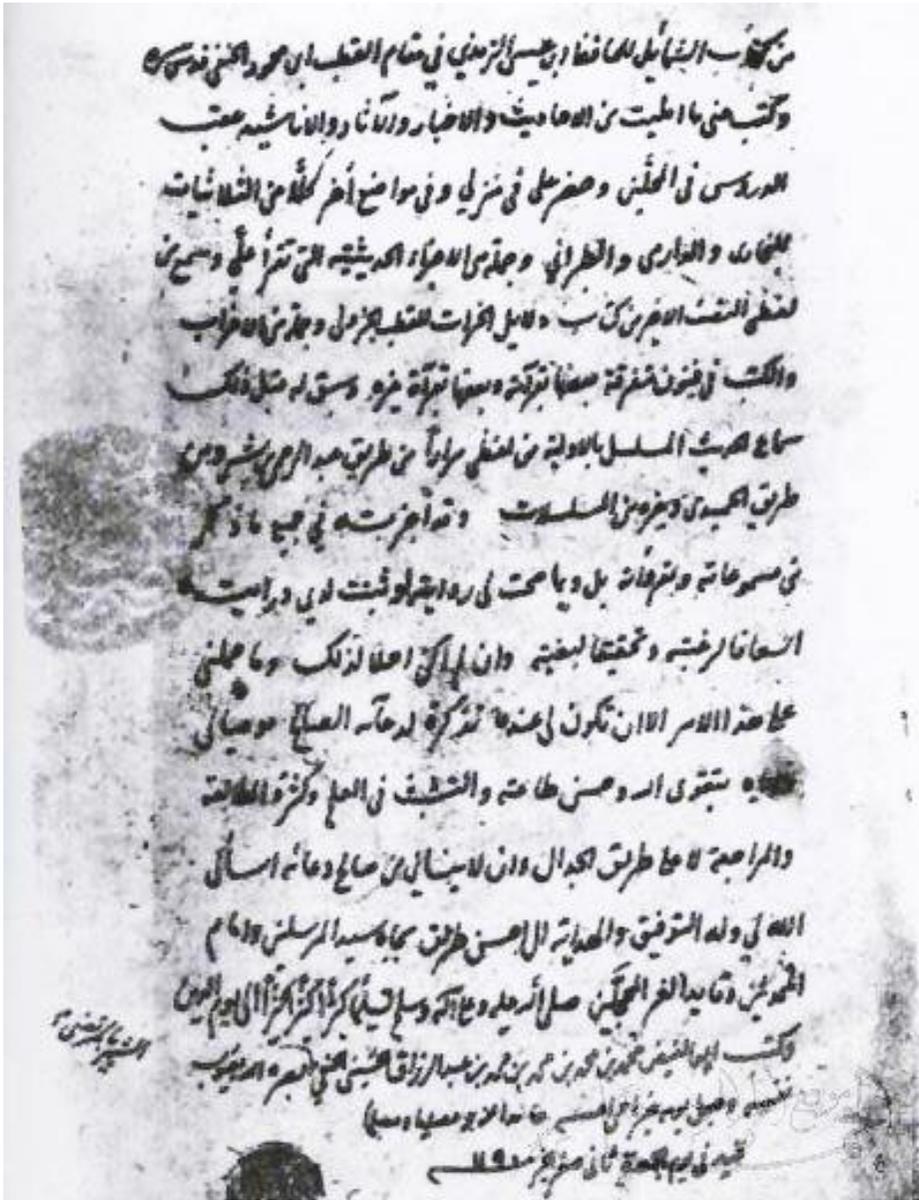




خط المؤرخ خليل بن أبيك الصفدي (ت 764هـ)

منه قوله: يقال الميت اجها ما كان مريثا او ضوفا فهو حيا  
وان لم يكن مريثا فهو ميتة وان كان مريثا فهو منطلق وان كان  
مرادم فهو طراف وقتته وهو القدر ان همه لكسار من لولو  
يخوفه ويجمع على صام وهو الكثرة وعلهم بغيره هو عصور  
مرحباهم نحو محط وسول مصر من سوا الدنيا وقله  
نصوري لفظ الحمة الامامة فصل حتى ملان عندنا ان اقام  
واعله ان صرت صمتة للامامة جعلت كل اقامة حسبا  
وان لم يكن ختمه من احسن ما قيل في ذلك قول ابي بكر الخوارزمي  
ان ال ا اذا ائنته ختمت عندنا بقيا وان ائنته نزلت كما  
بما اتت الا البدر ان قل صوة اعنه وان زاد النيباء اقاما  
وفي الحديث مراعاة ان تنجيم له الرجال ما ان قنته  
ورخام ختم وحتم هم لدا امام ما كان ما لم يقى  
حدثه من احد ان تقوم الرجال له على راسه كما تقدم  
منه من الملوك والامراء  
اخرا من عمدة الحفاظ في تفسير اشرف  
الفاظ تصنيف العمدة العمدة العمدة  
من يوسف بن محمد بن مسعود بن ابراهيم السامعي الحلبي

خط السمين الحلبي (ت 756هـ) على كتابه (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ)



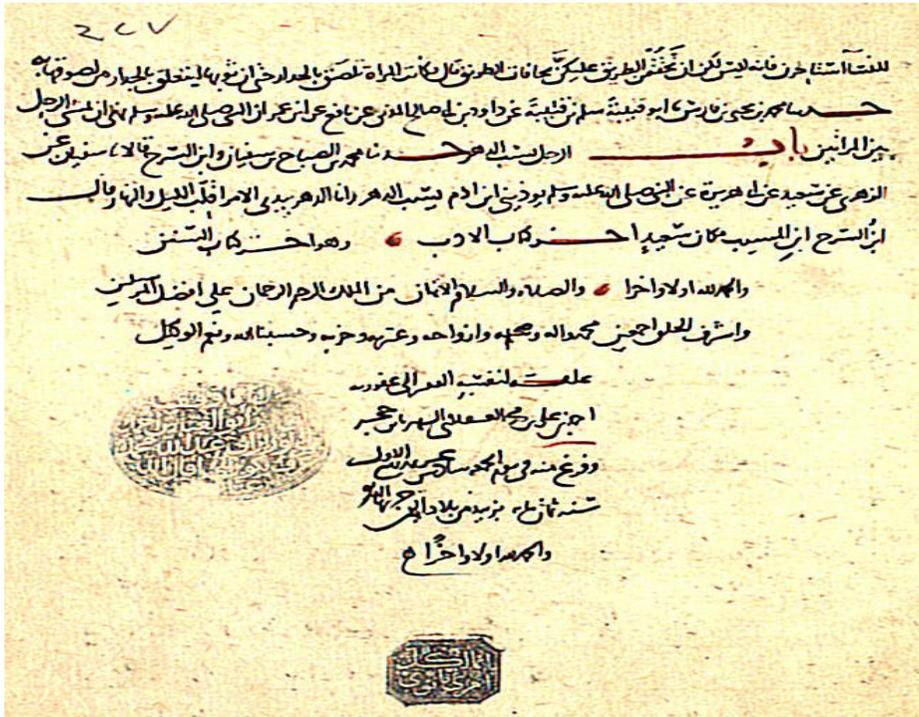
خط الإمام أبي الفيض مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ) صاحب تاج العروس

اجرت للشيخ الامام للعالم الكامل علم الدرهمان السلام  
اي يعقوب يوسف بن  
ادام الله  
سعادته وفتح به روليه هذا الكتاب وقرأه ورواه شرح  
المفصل للمعري ورواه بصني ورواه جمع مصغى ورواه  
وما تقد را حيدى وكتب مصدق الدعاء اليه بحال  
لعمر على نفس النوى ودلالة حرمه اربع ويليها  
وكان طاهر المجد للعظيم وصلنا على سوله اللهم والبره

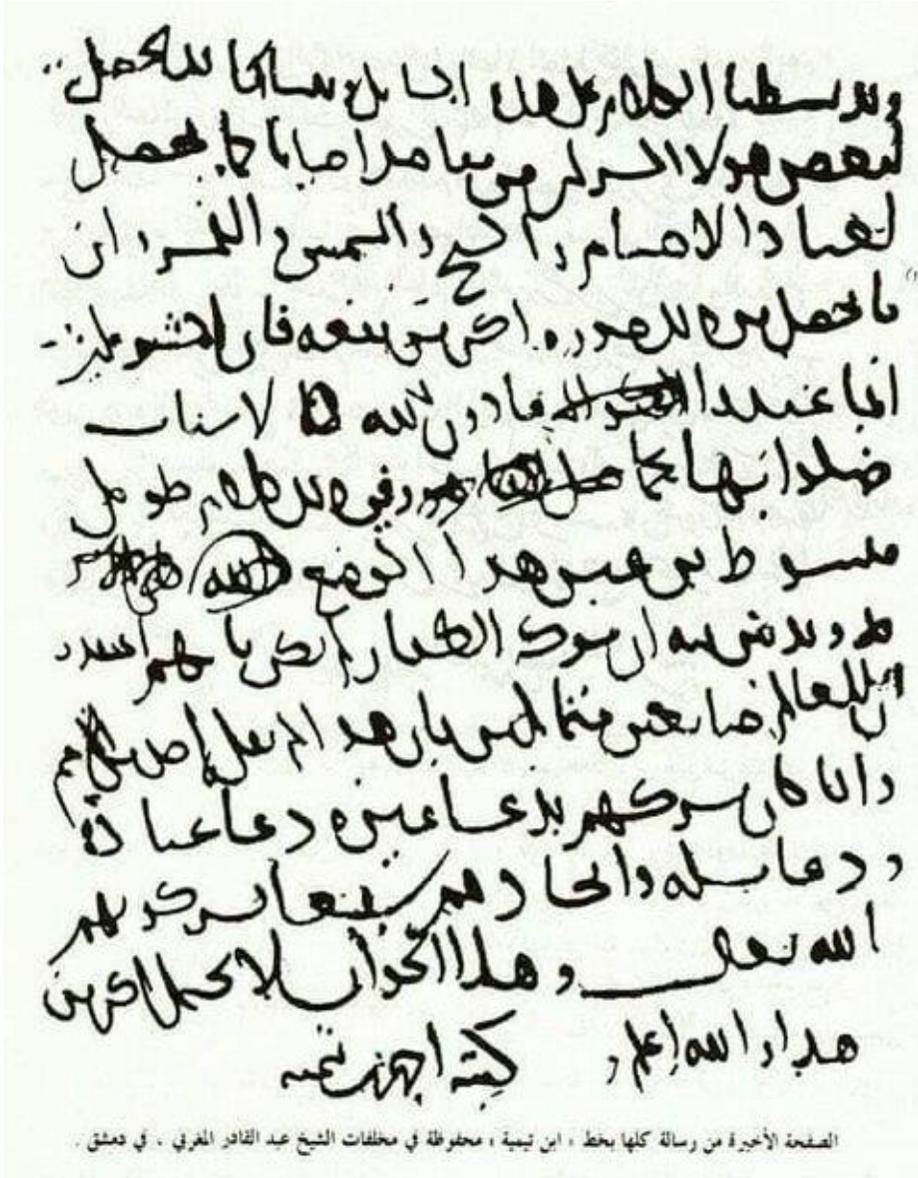
إجازة بخط ابن يعيش النحوي (ت 643هـ) عام (634هـ)

الحمد لله والقلاة والسلام على رسول الله  
اجزقت لهوا السادة والعلماء الفخامة  
اعل التحصيل والاباء والعقل والاجلدة  
والابراء في الكمال والاعلدة جميع ما سألوه  
ورجوه من الاجارة واملوه على شروكة المصنوه  
عن العلماء البررة واخبرهم ان مو  
في غرة رمضان عام اثني وثلاثين وسبع مائة  
ولله تعلى نفعها واهم بالعلم واهله جعلنا  
من سالك سبيله وكتبه على الخمر محمد خلدون  
الحضري المالك في مصنف شعبان عام  
سبع وتسعين وسبع مائة

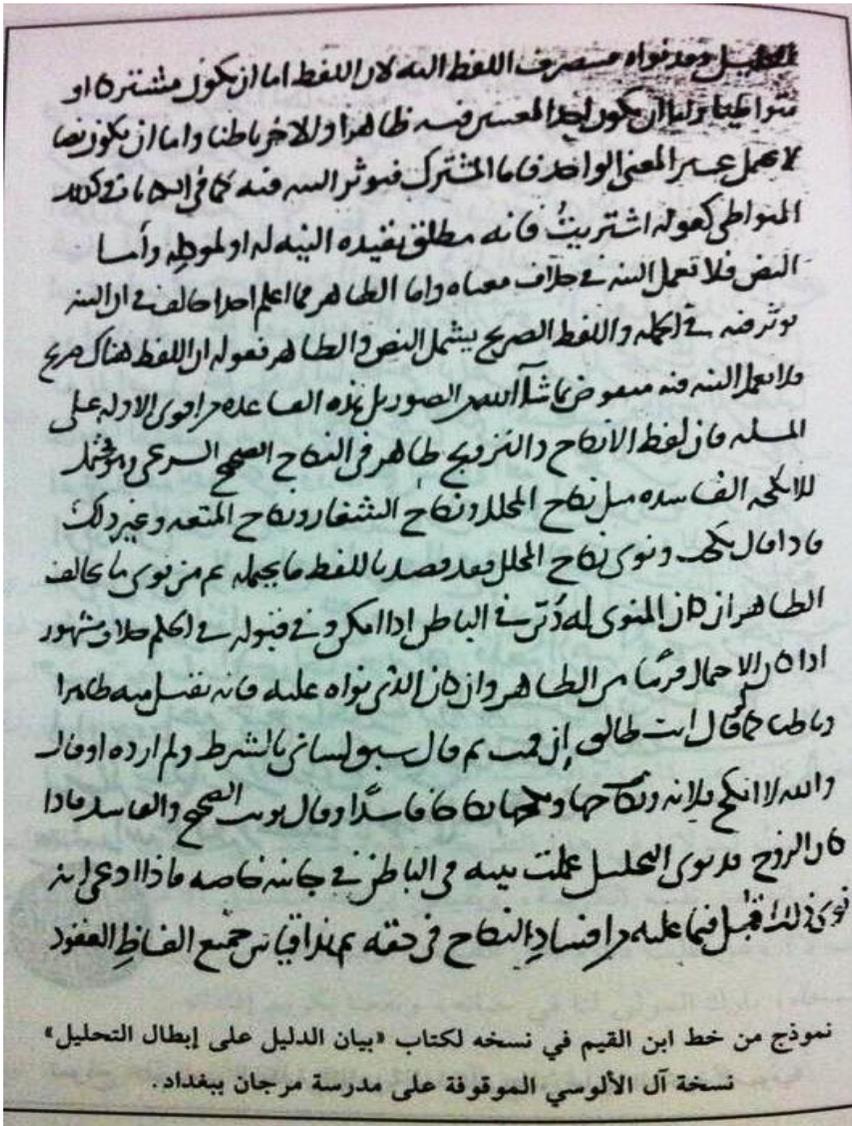
خط المؤرخ الأندلسي عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ)



خط ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ) في نسخة لسنن أبي داود



خط ابن تيمية (ت 728هـ)



خط ابن قيم الجوزية (767هـ)



خط الإمام جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)

وبعد، فأسأل الله أن تكون هذه الورقة قد أدت مهمتها، وأفصحت عن خبيئتها، وأن تجد الدعوة إلى توثيق خطوط العلماء في مشروع إلكتروني يحمل كنوز الأقدمين من ورثة النبيين صداها المبين.

## الهوامش

- (1) عبد الله بن محمد الكندري: خطوط العلماء من القرن الخامس إلى العاشر هجري- نماذج وأسئلة مكتبة نظام يعقوبي الخاصة- البحرين، ودار البشائر الإسلامية- لبنان، ط1، 2014م، ص6.
- (2) د. رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الخانجي، ط1، القاهرة، 1985م، ص71، و72.
- (3) كوكيس عواد: أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى سنة 500هـ (=1106م)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982م، ص145.
- (4) السابق، ص136، و137.
- (5) مناهج تحقيق التراث، ص67.
- (6) أحمد محمد شاكر: النقد: النسخة اليونانية من صحيح البخاري، عالم الكتب، بدون تاريخ، ص5: 8.
- (7) <https://www.bukhari-pedia.net/index.php>
- (8) مناهج تحقيق التراث، ص67، و68. وانظر: أقدم المخطوطات العربية، ص85.

## المراجع

- أحمد محمد شاكر: النقد: النسخة اليونانية من صحيح البخاري، عالم الكتب، بدون تاريخ.
- د. رمضان عبد التواب: مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، الخانجي، ط1، القاهرة، 1985م.
- عبد الله بن محمد الكندري: خطوط العلماء من القرن الخامس إلى العاشر هجري- نماذج وأسئلة مكتبة نظام يعقوبي الخاصة- البحرين، ودار البشائر الإسلامية- لبنان، ط1، 2014م.
- كوكيس عواد: أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم المكتوبة منذ صدر الإسلام حتى سنة 500 هـ (=1106م)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982م.
- موقع موسوعة صحيح البخاري:

<https://www.bukhari-pedia.net/index.php>

## فقه التعايش عند ابن حزم

# The Jurisprudence of Coexistence According to Ibn Hazm

عبد الحميد عبد المنعم مذكور \*

[Drmadkour42@gmail.com](mailto:Drmadkour42@gmail.com)

### الملخص

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وُلد في آخر يوم من شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (= 944م). سكن هو وأبأوه قرطبة، حاضرة الأندلس، ونالوا فيها جاهًا عريضًا، كما يقول صاعد: فكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ثم لابنه من بعده، وكان ابنه الفقيه وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام عضته السياسية بأنيابها، وأدت إلى دخوله السجن، فنبذها، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعنى بعلم المنطق، وألّف فيه كتاب التقريب لحدود المنطق وأوغل - بعد هذا - في الاستكثار من علوم الشريعة، حتى نال منها ما لم ينلّه أحد قط بالأندلس قبله، وصنف مصنفات كثيرة العدد، شريفة المقصد. في فنون كثيرة تدل على ثقافة شاملة عميقة متنوعة المشارب، جمعت بين الفقه والأصول والحديث والتاريخ والأنساب والملل والنحل والشعر والأدب والنحو واللغة والرد على المخالفين في المذاهب الفقهية والاعتقادية والأديان، ولم

---

\* الأمين العام لمجمع اللغة العربية، وأستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

يمنعه هذا كله أن يكتب في الحب، فكتب فيه كتابه: "طوق الحمامة"، وبلغت مؤلفاته كما يقول معاصروه: نحو أربعمئة مجلدٍ تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ويعلق صاعد على هذا بقوله: "وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله، إلا لأبي جعفر ابن جرير الطبري الكبير (310 هـ) فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفاً".

الكلمات المفتاحية: ابن حزم؛ فقه التعايش؛ طوق الحمامة.

## **Abstract**

Ibn Hazm is Abu Muhammad Ali bin Ahmed bin Saeed bin Hazm who was born on the last day of the month of Ramadan in the year three hundred and eighty-four (= 944 AD).

He and his parents lived in Cordoba, the metropolis of Andalusia, and attained great prestige there, according to Sa'id. His father was one of the great ministers of al-Mansur Muhammad ibn Abi Amer, then his son after him, and his son al-Faqih was a minister to Abd al-Rahman al-Mustazhar Billah ibn Hisham.

He was bitten by politics which led to his imprisonment, therefore he rejected it, and accepted the reading of sciences and the restriction of traces and Sunnahs. - In Andalusia, before him, and compiled many works of honorable purpose.

many arts indicate a comprehensive, deep culture of various kinds, combining jurisprudence, origins, hadith, history, genealogy, religion, bees, poetry, literature, grammar, language, and responding to opponents in jurisprudence, belief, and religions. All this did not prevent him from writing in love, so he wrote his book entitled: Tawq al-Hamamah." His books, according to his contemporaries, amounted to about four hundred volumes, comprising close to eighty thousand folios. ewho is a well-established writer in Islam".

**Keywords: Ibn Hazm, The jurisprudence of coexistence according, Tawq al-Hamamah.**

## تمهيد

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، وُلد في آخر يوم من شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (= 944م)<sup>(1)</sup>. سكن هو وأبؤه قرطبة، حاضرة الأندلس، ونالوا فيها جاهًا عريضًا، كما يقول صاعد، فكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ثم لابنه من بعده، وكان ابنه الفقيه وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله بن هشام<sup>(2)</sup>.

عصته السياسية بأنيابها، وأدت إلى دخوله السجن، فنبذها، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، فعنى بعلم المنطق، وألف فيه كتاب التقريب لحدود المنطق "وأوغل - بعد هذا - في الاستكثار من علوم الشريعة، حتى نال منها ما لم ينله أحد - قط - بالأندلس، قبله، وصنف مصنفات كثيرة العدد، شريفة المقصد". في فنون كثيرة تدل على ثقافة شاملة عميقة متنوعة المشارب، جمعت بين فقه والأصول والحديث والتاريخ والأنساب والملل والنحل والشعر والأدب، والنحو واللغة والرد على المخالفين في المذاهب الفقهية، والاعتقادية، والأديان، ولم يمنعه هذا كله أن يكتب في الحب، فكتب فيه كتابه: "طوق الحمامة"، وبلغت مؤلفاته كما يقول معاصروه: نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ويعلق صاعد على هذا بقوله: "وهذا شيء ما علمناه في أحد ممن كان في دولة الإسلام قبله، إلا لأبي جعفر ابن جرير الطبري الكبير (310 هـ) فإنه أكثر أهل الإسلام تأليفًا"<sup>(3)</sup>.

ولم يكن فيما جمعه من المعارف والعلوم ناقلاً، بل كان ذا شخصية علمية أصيلة، يعبر فيها عن رأيه: موافقاً أو مخالفاً، مؤيداً رأيه بالحجج القوية والبراهين الممحصّة، مع اتساع في العرض والتحليل والمناقشة والتعقيب والآراء غير المسبوقة في مسائل العلم المتنوعة، وكثيراً ما أشار المؤرخون له إلى تفردّه بمعانٍ لم يسبقه إليها أحد، ومن ذلك ما حكاه ابن خلكان في حديثه عن بعض مؤلفاته ومنها: "الإحكام لأصول الأحكام" الذي هو في غاية التقصي وإيراد الحجج، وكتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وكتاب: "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل"، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك، مما لا يحتمل التأويل. وهذا معنى لم يسبق إليه، وكتاب "التقريب لحد المنطق"، والمدخل إليه، بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، فإنه سلك في بيانه، وإزالة سوء الظن عنه، وتكذيب المخترقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله ... وله كتاب صغير سماه: "نقط العروس" جمع فيه كل غريبة نادرة، وهو مفيد جداً<sup>(4)</sup>.

ووصف - كذلك - بأنه كان حافظاً، عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمّة .... ذا فضائل جمّة، وتوليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم ولم يقتصر علمه على العلوم الشرعية ذات التخصصات المتنوعة؛ بل "كان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه"<sup>(5)</sup>.

ومن هذا الشعر:

مناي من الدنيا علوم أبثها وأنشرها في كل بادٍ وحاضر  
دعاءً إلى القرآن والسنة التي تناسى رجالاً ذكرها في المحاضر

وكان للفقهاء والأصول حظ كبير في ثقافته العلمية، وقد كان - في أول أمره - على مذهب الإمام الشافعي، مخالفاً بذلك ما كان سائداً في المغرب والأندلس، الذين كان الغالب عليهما مذهب الإمام مالك بن أنس، وقد ناضل عن هذا المذهب "حتى وُسم به، ونُسب إليه، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء"<sup>(6)</sup>.

ولم تكن مخالفته للفقهاء مانعةً له من البحث والتحري والاستقصاء، طلباً لما يرى أنه الحق، وهو - عندئذٍ - لا يبالي بالخلاف، أيّاً كان القائل به، وفي هذا يقول لمن يعيبونه بأنه: "لا يبالي - فيما يعتقد حقا - بمخالفة من خالفه، ولو أنهم جميعاً من على ظهر الأرض: فهذه الخصلة - عندي - من أكبر فضائلي التي لا مثيل لها ... وأنا أوصي بذلك كل من يبلغه كلامي، فلن ينفعه اتباعه الناس في الباطل والفضول، إذا أسخط ربه - تعالى - وغبن عقله، أو ألم نفسه وجسده، وتكلف مؤونة لا فائدة فيها"<sup>(7)</sup>.

وقد بين ابن حزم أنه لا يتخذ هذا الموقف من الاعتزاز برأيه والثبات عليه، والدفاع عنه، كبراً أو تفاخراً أو استعلاءً؛ بل إن ذلك يرجع إلى الصبر على مشقات البحث، وطول النظر والتأمل، والحرص على معرفة الأفكار والآراء وتمحيصها قبل تحديد موقفه منها، وهو يشرح هذا قائلاً: "إن الوقوف على الحقائق لا يكون إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء، وسماع حجة كل محتج،

والنظر فيها وتفتيشها، والإشراف على الديانات والآراء والنحل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس " ولا بد له - كذلك - من الاطلاع على القرآن ومعانيه، والحديث والسير، ومطالعة الأخبار القديمة والحديثة، والإشراف على أقسام البلاد، والوقوف على اللغة والنحو<sup>(8)</sup>. وهذا الجهد الشاق في التعرف على الآراء وموازنتها يعطي صاحبه الحق في التمسك بها، بحيث لا يتوقع منه أن يتنازل عنها إلا ببرهان أقوى من البراهين التي انتهى إليها.

على أن ابن حزم انتهى - بعد طول النظر - إلى ترك المذهب الشافعي إلى قول أصحاب الظاهر الذي وضعه في المشرق داود بن علي (270 هـ) ومن اتبعه من الفقهاء في المشرق وفي الأندلس. وقد اختاره ابن حزم عن اقتناع جعله يعتمد عليه في الفقه والأصول، وفي العقيدة على حد سواء، وبذل جهده في تأصيله، والدفاع عنه، "وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان بن داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر"<sup>(9)</sup>، ووضع الكتب في بسطه، وثبت عليه إلى أن مضى لسبيله، كما يقول بعض مؤرخيه<sup>(10)</sup>.

وابن حزم - كما تدل أقواله وأحواله - قوي الاعتزاز بنفسه، شديد الاعتداد برأيه، وإن لم ينل ما يتفق مع ما يرجوه لنفسه من مكانه. وهو يذكر هذا بحزن وفي صراحة ودون مواربة، وها هو يقول من أبيات له:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة      ولكن عيبي أن مطلعِي الغرب  
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ      لجدُّ على ما ضع من ذكري النهب

\*\*\*

وإن مكاناً ضاق عني لضيق      على أنه فسح مهامه سهب  
وإن رجالاً ضيعوني لضيع      وإن زماناً لم أنل خصبه جدب

ويستشعر ابن حزم ما قد يُوصف به - بسبب هذا الشعر - من اتهام  
بمدحه لنفسه وتفاخره بعلمه، فيقول معتذراً:

ولكن لي في يوسف خير أسوة      وليس على من بالنبي اتسي ذنب  
يقول - وقال الحق والصدق: إنني      حفيظ عليهم، ما على صادق عنب

ودفعه هذا الاعتزاز إلى نبذ التقليد ونفوره منه نفوراً مطلقاً؛ وهو يعل  
ذلك بأن التقليد - لغير الرسول صلى الله عليه وسلم - حرام، وأن تقليد الآراء لم  
يكن - قط - في قرن الصحابة رضي الله عنهم، ولا في قرن التابعين، ولا في  
قرن تابعي التابعين "وهذه هي القرون الثلاثة التي أتى النبي - صلى الله عليه  
وسلم - عليها، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم"<sup>(11)</sup>.

وهو يبين أن التقليد المذموم هو "تقليد كل إنسان، دون الرسول صلى الله  
عليه وسلم، فأما الأخذ بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو  
ائتمار، لا تقليد"<sup>(12)</sup>.

ولا يقتصر ذم التقليد على التقليد في الفروع والأحكام الفقهية، بل إنه  
- من باب أولى - مذموم في باب العقائد التي هي أصول الدين كله؛  
لذلك فالتقليد فيها حرام، واتباع النص فيها فرض واجب<sup>(13)</sup>.

وهو لا يترك رأيه واجتهاده لرأي أحد، حتى لو كان من الأئمة الكبار من العلماء، وهو يذكر هذا في سياق نكر رأي في قضية الاسم والمسمى، وفي الكلام عن أسماء الله تعالى، وكان من القائلين بهذا الرأي الإمام أحمد بن حنبل وأبو زرعة الرازي وغيرهما، لكن ابن حزم يخالفهم الرأي في هذه المسألة قائلاً: "هؤلاء - رضي الله عنهم - وإن كانوا من أهل السنة، ومن أئمتنا فليسوا معصومين من الخطأ، ولا أمرنا الله - عز وجل - بتقليدهم واتباعهم في كل ما قالوه" (14).

بل إنه لا يحاكي محمد بن داود الظاهري، وهو ابن شيخ الظاهرية داود بن علي - فيما ذكره محمد في كتابه "الزهرة"، بل يخالفه فيما كتبه هو في بعض آرائه عن الحب في طوق الحمامة؛ لأنه - كما لاحظ بحق د/ إحسان عباس لا يقبل المحاكاة؛ بل ينفر منها ولأنه "امرؤ لا يؤمن بالتقليد، حسبما يمليه عليه اتجاهه الظاهري" (15).

وكان من الطبيعي أن يفيض ابن حزم - وهو صاحب لسان وبيان - في بيان أصول هذا المذهب الظاهري، وقد كتب في ذلك كتابات كثيرة تمثلت في عديد من كتبه ورسائل في العقيدة والفقہ والأصول، ومن أهمها: كتابه الفصل، وكتابه الإحكام في أصول الأحكام، ورسالته في إبطال القياس، وكان مما كتبه لتحقيق هذا المقصد قوله، وهو يعرض أصول مذهب الظاهرية في كتابه الإحكام: "وأصل مذهبنا أن الأخذ بظاهر القرآن والحديث الصحيح حق، ونحن على يقين من أننا مصيبون في ذلك، وفي كل قول أدانا إليه أخذنا بظاهر

القرآن والحديث الصحيح، وأن من خالفنا مخطئ، عند الله - عز وجل - ونحن على يقين من ذلك، لا نشكُّ فيه، ولا يمكن خلافه"<sup>(16)</sup>.

وهو يعلل ذلك - في الفصل - بأن: "دين الله - تعالى - ظهر لا باطن فيه، وجهر لا سرّ تحته، كُله برهان لا مسامحة فيه ... ولكل من ادعى للديانة سرًا وباطنًا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة... ولا كان عنده - عليه السلام - سر، ولا رمز، ولا باطن، غير ما دعا الناس كلهم إليه"<sup>(17)</sup>. وبناء على ذلك فالوقوف عند النص فرض<sup>(18)</sup> ولذلك لا يجوز تعديّ النص إلا بنص أو إجماع؛ "لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها، والشرائع كلها، والمعقول كله"<sup>(19)</sup>.

ويكرر ابن حزم عند تناوله للمسائل التي اختلف فيها منهج الظاهرية عن منهج غيرهم: أن القرآن واجب أن يُحمل على ظاهره، كذلك كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لم يأت نص في أحدهما، أو إجماع متيقن، أو ضرورة حس على خلاف ظاهره، فيوقف عند ذلك<sup>(20)</sup>.

وأن "جملة الخير كله أن تلتزموا ما نصّ عليكم ربكم تعالى في القرآن بلسان عربي مبين، لم يفرط فيه من شيء، تبيانًا لكل شيء، وما صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم برواية الثقات من أئمة أصحاب الحديث - رضي الله عنهم - مسندًا إليه، عليه السلام"<sup>(21)</sup>.

- \* ويترتب على هذا عدد من النتائج المهمة التي حرص على مراعاتها<sup>(22)</sup>، منها:
- أنه لا يقول بالتأويل في العقائد أو في الأحكام؛ لأن التأويل خلاف الأخذ بالظاهر: "ونحن لا نقول بالتأويل أصلاً، إلا أن يوجب ذلك إجماع أو ضرورة حس، ولا مزيد، وإلا فمن ادعى تأويلاً بلا برهان فقد ادعى ما لا يصح، فدعواه باطلة". ومن قال هذا من عند نفسه فقد تقوّل على الله تعالى، وعلى رسوله - عليه الصلاة والسلام - "إذا لم تأت له حجة خبر، عنه - تعالى - ولا عن نبيه - صلى الله عليه وسلم"<sup>(23)</sup>.
  - ومدّعي التأويل - عندئذ - تارك للوحي، مدّع للغيب، مخالف للرسول، ناقل للغية عن معناها، بغير دليل<sup>(24)</sup>.
  - أنه يقول بإبطال كل اجتهاد أدى إلى ما لا نص فيه، أو إلى خلاف النص<sup>(25)</sup>.
  - أنه يحصر الإجماع في إجماع الصحابة، دون من سواهم، ثم إنه لا يُسلّم بأي إجماع بعد ذلك<sup>(26)</sup>.
  - أن ما ينتهي في إسناده إلى الصحابي أو التابعي أو إمام دونهما، دون أن يستند إلى نص من الكتاب والسنة أو إجماع من الصحابة لا يؤخذ به عنده؛ لأن الحجة في الكتاب والسنة<sup>(27)</sup>.
  - وإن طالع المجتهد أقوال الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم - عصرًا بعد عصر - "فترض عليه أن ينظر في أقوال العلماء كلها نظرًا واحدًا، ويحكم فيها القرآن والسنة، فلايها حكم اعتقده وأفتى به، وأطرح سائرهما. وإن لم يجد

شيئاً مما بلغه منها في نص القرآن ولا في نص السنة لم يحل له أن يأخذ بشيء منه، بل عليه أن يأخذ بالنص ... فهذا هو الاجتهاد الصحيح الذي يؤجر من فعله على كل حال ... وكل ما سُمِّي اجتهاداً من غير ما ذكرنا فهو باطل وإفك، رُئِنَ بأن سُمِّي اجتهاداً، كما سُمِّي اللديغ سليماً<sup>(28)</sup>.

- أن خبر الواحد الصحيح كخبر التواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوب الطاعة ولا فرق<sup>(29)</sup>، وأنه يفيد العلم، خلافاً لكثير من الأصوليين<sup>(30)</sup>.

- أن القياس - عنده - لا يجوز، استعماله في العقائد ولا في الأحكام؛ لأن القياس كله باطل لا يجوز، وقد ذهب أصحاب الظاهر إلى إبطال القياس في الدين جملة، وقالوا: لا يجوز الحكم - ألبتة - في شيء من الأشياء كلها - إلا بنص كلام الله تعالى، أو نص كلام النبي صلى الله عليه وسلم، أو بما صح عنه - صلى الله عليه وسلم - من فعلٍ أو إقرارٍ، أو إجماع<sup>(31)</sup>. وهو يذكر أن البراهين على إبطال القياس كثيرة جداً<sup>(32)</sup> وهو يتتبع المواضع التي يقال: إن فيها قياساً ثم يفندها، بل إنه يبطل القياس بالقياس<sup>(33)</sup>.

- أنه لا يأخذ بما ذهب إليه المالكية من الاعتداد بعمل أهل المدينة. وهو يتتبع بعض آراء المالكية في ذلك مبيناً المخالفة لنصوص ثابتة، أو لإجماع منقول فيها بلا خلافٍ، بل لمخالفتهم عمر بن الخطاب في نيف وثلاثين قضية من موطأ مالك خاصة، ولمخالفتهم أبا بكر وعثمان وعائشة وابن عمر من الصحابة، ومخالفة سعيد بن المسيب والزُّهري وسليمان بن يسار وغيرهم من

فقهاء المدينة في كثير من أقوالهم "فإن كان تقليد أهل المدينة واجباً فمالك مخطئ في خلافه لهؤلاء، فيجب عليهم أن يتركوه إذا خالف من ذكرنا من أهل المدينة"<sup>(34)</sup>. ثم أورد ابن حزم من أقوال مالك نفسه ما ينهى فيه عن اتباعه في كل قول يقوله. ويعلق ابن حزم على ذلك بقوله: "لو اتبع مقلدوه هذا القول منه لاهتدوا"<sup>(35)</sup>.

### **\*\* مواقف تجاه المخالفين له:**

ولسنا في مقام تأصيل هذه الأصول عنده، أو في مقام تفصيل ردوده على أصحاب الآراء الأخرى فيها من أصحاب المذاهب المختلفة التي كان على علم كبير بها، بل إن ما قصدنا إليه في الفقرات السابقة أن نبين أنه كان حريصاً على بيان مذهبه، لا يصرفه عن ذلك شيء، مهما كان، وهو يمضي في الخلاف والنقد إلى أقصى غاياته، وقد يشتط في النقد إلى حد الهجوم القاسي والنقد اللاذع، وهو يصف بعض خصومه بالجرأة على الدين، وبغظم التدليس والتمويه فيه، وبالمكابرة القبيحة، وبالهديان، وبالعجائب المدهشة، وبأن احتجاجهم ببعض الآيات يكاد يخرجهم إلى الكفر<sup>(36)</sup>.

وهو يصف بعض خصومه بالكذب والجهل، وبالكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم بالحماقة والزيغ والشذوذ<sup>(37)</sup> ويقول لأحد المخالفين له: "فما خفاء العلم على الحمير حجة على أهل العلم"<sup>(38)</sup>.

ولا يكتفي ابن حزم بنقد الأفكار والآراء، بل إنه ينتقد مسلك أصحابها بقسوة، وهو يخاطبهم بكلام شديد، يقول مثلاً: "لا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم

الفساق المنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيّنون لأهل الشر شرهم، المناصرون لهم على فسقهم<sup>(39)</sup>.

وهو يصف أحد هؤلاء الفقهاء باتباع الهوى فيما يصدره من فتاوى، على الرغم من المنصب الرفيع الذي يتقلده في مقام الإفتاء؛ إذ "لا يقدّم عليه - في وقتنا هذا - أحد في الفُتيا، يُعتي - بالهوى - للصدّيق فتيا، وعلى العدو فتيا، ولا يستحي من اختلاف فتاويه، شاهدنا هذا منه عياناً"<sup>(40)</sup>.

ووصل به الأمر في الهجوم إلى أن يصف بعضهم "بأن أكثرهم لا يقيم الهجاء، ولا يعرف حديثاً مُرسل من مسند، ولا ثقة من ضعيف، ولا حديث النبي صلى الله عليه وسلم من كلام كعب الأحمار ... ولا يفرقون بين رأي ورواية، وأنهم لا يدرون ما يقولون"<sup>(41)</sup>.

\* ولم ينج المتكلمون من هجوم ابن حزم عليهم، وقد نقد علم الكلام من حيث إخفاق ابن حزم عليهم، وقد نقد علم الكلام من حيث إخفاؤه في الغاية التي نشأ من أجلها، وهي الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ضد خصومها من الملاحدة والتثوية وأتباع العقائد الأخرى ممن هاجموا العقيدة الإسلامية، ويرى ابن حزم أن المتكلمين لم يفلحوا في تحقيق هذا الهدف.

ويذكر ابن حزم إنه سمع من بعض إخوانه كلاماً قال فيه له: "أسألك بالله، هل بلغك أن أحداً أسلم على يدي متكلم من هؤلاء المتكلمين واهتدى على أيديهم من ضلالة ...". ويجيب ابن حزم قائلاً: "فوالله يا أخي ما وجدت لقوله

جوابًا، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقة والشقات والتخاذل وافتراق الكلمة ... وتكفير المسلمين بعضهم بعضًا، وهذا أمر مشاهد<sup>(42)</sup>.

ولا يكتفي ابن حزم بنقد المتكلمين من هذه الزاوية، بل إن نقده يمتد إلى نقد منهجهم ، حيث يصفه بالسفسطة والتخليط والاضطراب والتناقض، وبأنهم أبعد الناس عن المجيء ببرهانٍ حقٍّ يؤدي إلى اليقين<sup>(43)</sup>، ويذكر ابن حزم أنه لا يقول ذلك عن سماع، بل عن خبرة ودراية بهذا العلم وأدلتها: "إني - والحمد لله لست بمبخوس الحظ من هذا العلم، أعني علم أهل الكلام وطريقتهم في الاستدلال، فيظن ظانًّا أنني إنما قلت ما قلت عداوةً لعلمٍ جهلته، لا، ولكن الحق لا يجوز أن يُتعدى"<sup>(44)</sup>.

وقد تتبع آراء بعض الفرق الكلامية في سياق عرضه لآرائه في أصول العقيدة، وردَّ عليها ردًّا مفصلاً، استغرق أكثر كتابه الفصل، بعد الجزء الذي خصه منه للحديث عن عقائد أهل الكتاب وكتبهم، والقارئ لكتابه يلحظ في كل قضية من القضايا صورًا من هذا النقد التفصيلي الذي توصل إليه من منظور انتسابه إلى أهل السنة<sup>(45)</sup>، وقد خص الأشاعرة بكثير من النقد المبني على نسبة بعض الآراء إليهم دون تثبيت، وقد كان المذهب الأشعري هو السائد في المغرب والأندلس في عصر ابن حزم وما بعده، وقد أدرج الأشاعرة ضمن فرقة المرجئة لقولهم في الإيمان، وذكر ابن حزم أنه أوضح شُنع هذه الفرق في كتاب أسماه "النصائح المنجية، من الفضائح المخزية، والقبائح المُرديّة من أقوال أهل البدع من الفرق الأربع: المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيع"<sup>(46)</sup>. وخص

بعض أئمة الأشاعرة بالمزيد من النقد، وكان منهم الأشعري وابن فورك والباقلاني<sup>(47)</sup> ثم اختص بنقده طوائف ممن تسموا بالإسلام، وإن كان جميع فرق الإسلام قد أجمعوا على أنهم غير مسلمين، وذكر من هؤلاء طوائف من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة الباطنية المغرقين في التأويل. وجاء في نقده لهم أنهم لا يتعلقون بحجة أصلاً، وأنه ليس لديهم إلا القحة والمجاهرة بالكذب، وأن جميع فرق الإسلام متبرئة منهم، مكفرة لهم، مجمعون على أنهم على غير الإسلام<sup>(48)</sup>.

\* ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع ما تحدث به ابن حزم عن كتب أهل الكتاب وما وقع فيها من تحريف وتبديل يُخرجها عن أصلها الذي نزلت به على أنبيائهم، ولا سيما موسى عليه السلام، وقد وصف هؤلاء الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم نسبوه إلى الله تعالى وأنبيائه بأوصاف شديدة وردت في تعليقاته على هذه الكتب التي تحدث عنها سفرًا سفرًا، وكان كلما وجد فيها أمرًا لا يصح صدوره عن الله تعالى أو عن أنبيائه عليهم السلام تناول هؤلاء الذين فعلوا ذلك بالدم والهجاء، وقد وصفهم بالكذب الفاحش والنذالة وقلة الحياء، وبالهوس البارد، والجهل المفرط، والحمق وادعاء المحال<sup>(49)</sup>، ووصف أحدهم بأنه ساقط أراد الخروج من مزبلة فوق في كثيف عذرة<sup>(50)</sup>. وبأن كلام بعضهم: "مضحكة تسلي الثكالي، وترد الأحزان"<sup>(51)</sup>.

\* ولا يقتصر هجوم ابن حزم، ونقده الحاد على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين على اختلاف طوائفهم، بل إنه يوجه أسهمًا نافذة من كنانته المألَى بالسهام إلى حكام عصره الذين تفرقوا شيعًا وأحزابًا، واعتدوا على حرمان

المسلمين وأموالهم وتحالفوا مع عدوهم، وناصروه على إخوانهم، وكان مما ذكره أن "كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد، للذي ترونه - عيانًا - من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم ... ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام"<sup>(52)</sup>.

وهو يشكو إلى الله تعالى - في سياق رده على ابن النغريلة اليهودي - تَشَاغُلَ أهل الممالك من أهل الملة الإسلامية بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور سيتركونها عن عمارة شريعتهم، وجمع الأموال عن حماية ملتهم، حتى تناول غير المسلمين على الإسلام، وانطلقت ألسنتهم بالذمة له والعدوان عليه<sup>(53)</sup>، وقد حذر هؤلاء من نقمة الله عليهم إذا استمروا على مخالطة غير المسلمين، ونصرتهم لهم على حساب المسلمين، وأنهم سيكونون - عندئذ - مستحقين لأن يحيق الله بهم ما أحاق بهؤلاء الذين استحقوا من الله في كتابه الذلة والمسكنة والهوان والصغار والخزي في الدنيا، فضلًا عن العذاب الأليم في الآخرة<sup>(54)</sup>.

وقد وصف بعض هؤلاء بضربهم ما يشبه الجزية على المسلمين، وإباحتهم ببيع الخمر، وأنهم بهذا ينقضون عرى الإسلام عروة عروة، وهو يقسم بالله إنهم: "لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصرى، فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم، ورجائهم

يحملونهم أسارى إلى بلادهم ... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس. لَعَنَ اللهُ جميعهم، وسلَّطَ عليهم سيِّفًا من سيوفه" (55).

وهكذا وقف ابن حزم ممن خالفوا الرأي في الفقه والعقيدة والدين والسياسة موقفاً شديداً يتسم بالعنف والحدة في كثير من الأحيان. وقد أشار بعض مؤرخيه من المغاربة والمشاركة إلى تلك الحدة التي أصبحت مقرونة به في كتابتهم عنه. فأبو العباس أحمد بن العريف الصوفي (536 هـ) يقول عنه: "كان لسان ابن حزم ... وسيفُ الحجاج بن يوسف شقيقين" ويعلل ابن خلكان ذلك بقوله: "إنما قال ذلك؛ لأن ابن حزم كان كثير الوقوع في الأئمة المتقدمين والمتأخرين، ولم يكذب يسلم منه أحد" (56).

وجاء في ترجمته في كتاب "المغرب في حلى المغرب" أنه "كان يجادل عن علمه هذا" (57) من خالفه، على استرسال في طباعة ... فلم يك يُطِّف بما عنده بتعريض، ولا يرفُّه بتدريج؛ بل يصكُّ معارضيه صكَّ الجنادل، وينشقه أحر من الخردل" (58).

ويصفه ابن كثير بمثل ذلك عندما قال عنه: "وكان ابن حزم كثير الوقوعة في العلماء بلسانه وقلمه، فأورثه ذلك حقداً في قلوب أهل زمانه" (59). وقال عنه ابن خلدون: "وتعرض لكثير من أئمة المسلمين، فنقم الناس ذلك عليه، وأوسعوا مذهبه استهجاناً وإنكاراً وتلقوا كتبه بالإغفال، حتى إنها ليحظر بيعها في الأسواق، وربما تمزق في بعض الأحيان" (60). ثم تكتمل الحلقة

بكراهة الحكام له، وإبعادهم له عن مجالسهم ومطاردته حتى استقر بقريته التي مات بها(61).

وكان لهذا أثر في إحساسه بالضيق والمرارة والظلم، وفي شعوره بعدم التقدير لكفاءته وعلمه، وكان يزيده أسى أن يزهد الناس في علمه، ويصرفوا طلاب العلم عن التلقي عنه، ولكنه كان يسلي نفسه ويخفف عنها بأن ذلك أمر واقع يعبر عنه المثل السائر: أزهد الناس في عالم أهله. ولقد لقي الأنبياء من أقوامهم ما لقوا من الإيذاء والمعاندة، ووقع من ذلك كثير من الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم، غير أنه يخص الأندلس بنصيب كبير من غمط العلماء حقوقهم، وغضبهم من مكانتهم، "فإنها من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به " واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته ... بأضعاف ما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير، ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد، وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ وفي أي زمان قرأ، ولأمه الهبل ... وربما نجل ما لم يقل، وطوق ما لم يتقلد، ولا اعتقد قلبه ... فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ... واستشنع هين سقطه، وذهبت محاسنه، وسيرت فضائله(62).

وقد اجتهد ابن حزم في رياضة نفسه على تحمل ما لقي من التجاهل والاستغناء عن علمه، وانصراف الناس عن مجلسه، وحاول أن يقنع نفسه بأن في ذلك كله خيرا له؛ لأن مخالطة الناس لا تخلو من مخاطر، ولا يسلم صاحبها من شرور، وفي ذلك يقول: من جالس الناس لم يعدم همًا يؤلم نفسه، وإنما يندم

عليه في معاده، وغيظاً ينضج كبده، وذلاً ينكس همته، فما الظن - بعد - بمن خالطهم وداخلهم ... والعز والراحة والسرور والسلام في الانفراد عنهم ...<sup>(63)</sup>.  
ثم أوضح أن في مجالسة الناس عيبين ينبغي أن يكونا من أسباب التنفير منها؛ أحدهما: أن الإنسان يبوح - عند أنسه بالمجالسة - بأسرار قد تكون مهلكة أو قاتلة، ولولا المجالسة لم يُنح بها، والثاني: أنها تؤدي إلى موقعة أمور قد تكون مهلكة له في الآخرة ومن ثم "فلا سبيل إلى السلامة من هاتين البليتين إلا بالانفراد عن المجالسة جملة"<sup>(64)</sup>.

وقد وصل الأمر بابن حزم - بسبب هذا الذي عاناه من أذى الناس - أن يحذر بشدة من المخالطة، فإذا ما اضطر الإنسان إليها فليلزم اليقظة والحذر ممن يخالطه حذره من عدو لا يتوقع منه إلا الغدر والإيذاء وسوء المعاملة "فإن سلم من ذلك فله الحمد، وإن كانت الأخرى أُلْفِي متأهباً ولم يمت همماً"<sup>(65)</sup>.

ولعل هذه النظرة المتشائمة إلى الناس، وسوء الظن بهم، وتوقع الشر منهم، حتى لو أحسن إليهم<sup>(66)</sup> كانت ثمرة لتجارب قاسية تعرض لها ابن حزم، فقد تعرض للاضطهاد والتضييق والتهمة والسجن والغربة والتنقل في البلاد، لكن حبال السياسة أخذته إلى السجون، ومواقف العلماء طارده وضيق عليه، واتهمه بعضهم بأنه مفتون جاهل أو متجاهل، بل اتهمه بخبث السريرة، وأنه قليل الدين ضعيف العقل، قليل التمييز والتحصيل "بل يدعو عليه بأن يريح الله العباد والبلاد منه"<sup>(67)</sup>.

وتضافرت عليه هذه الظروف والأسباب كلها لتملاً نفسه بمشاعر التحدي والمواجهة والصلابة، على الرغم من قوة الخصوم وشدتهم وكثرتهم، ولكنها جمعت - إلى ذلك - قدرًا لا بأس به من الحزن والأسى، ويعبر أسين بلاثيوس عن ذلك قائلاً: "إن ابن حزم قد عاين من ألوان الظلم ما أنضب معين الرقة واللين في نفسه، وشاهد من مساءات الفوضى السياسية ... ما نقر نفسه، وأوذى في نفسه وكرامته بما لقي من الاضطهاد، ورأى الناس أجمعين ينكرون قدره ويتجهمون له، ويقاطعون مذهبه الديني، فاستقر رأيه على أن يعتزل الدنيا والناس ... وذلك بعد أن صادر المعتمد بن عباد كتبه وأحرقها"<sup>68</sup>.

### **\*\* ابن حزم وفقه التّعائش:**

وعندئذ يبرز السؤال الكبير، الذي يمثل المشكلة الرئيسية أو الجوهرية لهذا البحث، وهذا السؤال هو أنه: إذا كانت الأحوال النفسية، والظروف التي أحاطت به على هذا النحو الذي سبقت الإشارة إليه، فهل لنا أن نتوقع أن يوجد لديه ما يمكن أن يطلق عليه فقه التّعائش؟ وهل ستسهم أفكاره ومواقفه - في هذا المجال - بنصيب معقول أو مقبول، بحيث يمكن إدراجه تحت هذا العنوان؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية:

ويمكن القول - بادئ ذي بدء - إن هذه الأفكار التي نبحت عنها للإجابة عن هذه التساؤلات لن تكون بارزة في كتبه التي يغلب عليها الطابع الجدلي مثل كتاب الفصل، ولا في كتبه التي يعبر فيها عن مذهبه الفقهي والأصولي ككتاب الأحكام، ولا في الرسائل التي يرد فيها على مخالفيه في

العقيدة أو في الفقه أو في بعض التوجهات الفكرية التي كانت موضع انتقاد معاصريه، كانشغاله بالمنطق ومحاولة تقريبه للمسلمين، أو كبعض آرائه المتصلة بالغناء والموسيقى ونحو ذلك من المسائل التي كانت مثار جدل بينه وبين معاصريه من العلماء. إننا لن نجد في هذه الكتب وأمثالها ما نبحت عنه، إلا شيئاً قليلاً يأتي في ثنايا تقريره وتأصيله لبعض القواعد والمبادئ التي كان يصدر عنها ويحتكم إليها، ويعرضها على مخالفه في الرأي، حتى تكون موضع اعتبار عند نظرهم فيما يخالفهم فيه، ولعل كثيراً مما كان يعرضه في هذا المقام كان ذا طابع معرفي أو أخلاقي، وقد كان يمثل - لديه - دوافع أو موانع تحكم نظره إلى ما كان يعالجه من مسائل وقضايا.

أما الذي تتجلى فيه آرائه المتصلة بالتعائش - على نحو بارز - فهو كتبه ورسائله التي تتصل بالجانب النفسي الوجداني من حياته، أو تلك التي كتبها بعد أن عركته الأيام، وصهرته الأحداث فأسبغت عليه نوعاً من الحكمة والالتزان والإنصاف، وألقت عليه ظلاً من الهدوء والرفق والسكينة، وخلّصته من مشاعر العناد، والرغبة في إثبات الذات، والتغلب على الخصوم، ونضّب الأدلة والبراهين التي تلزمهم بالاعتراف بنبوغه وعلمه، وصحة آرائه وأفكاره التي أصر عليها، وأعلن تمسكه بها، حتى وإن خالفه الناس أجمعون.

\* ولعلنا - قبل أن نتحدث عن بعض آرائه التي تتدرج تحت فقه

التعائش - نشير إلى بعض مواقفه التي يظهر فيها هذا الميل واضحاً جلياً.

اهتم ابن حزم - اهتمامًا بالغًا - بدراسة الأديان، وكان له في دراسة العهد القديم والعهد الجديد جهد معروف، وقد تصدّى - بقوة - للرد على من أساءوا إلى الإسلام عمومًا، وإلى القرآن على وجه الخصوص، وقد كتب بعضهم ما أسماه "تناقض القرآن" وكان ممن أسهموا - في هذا الباب - ابن النغيلة، فرد عليه ابن حزم ردًا تفصيليًا في رسالة مستقلة<sup>(69)</sup>.

وتناوله كذلك بالرد في كتاب الفصل عند ذكره لبعض مناظراته معه، وهو يصفه بأنه أعلمهم وأجدهم<sup>(70)</sup>.

غير أن ذلك لم يدفعه إلى كراهته لليهود عمومًا؛ لأنهم أهل الكتاب، وقد أمر الله تعالى في كتابه ببراءهم وبر أمثالهم والإقسط إليهم، ما داموا لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم<sup>(71)</sup>. لذلك لم يكن بينه وبينهم قطيعة؛ إلا لمن أساء إلى الإسلام منهم، وقد عرف شيئًا من أحوالهم بالمجاورة والمشاهدة، وكان يسأل بعض علمائهم ومقدميهم عما يتوقف فيه، ونراه - أحيانًا - يجلس في دكان طبيب إسرائيلي منهم، كان مشهورًا بالفراسة<sup>(72)</sup>.

\* ولا يكتفي ابن حزم بالمخالطة والمجالسة؛ بل إنه يضع لنفسه مبادئ أخلاقية تحكم هذه العلاقة، ويتضح شيء من ذلك في قوله: "ثق بالمتدين، وإن كان على غير دينك، ولا تثق بالمستخف، وإن أظهر أنه على دينك. من استخف بحرمت الله - تعالى - فلا تأمنه على شيء تشفق عليه"<sup>(73)</sup>. وليس بغريب أن يتحدث ابن حزم عن أثر الدين، والتدين في صلاح الأخلاق وكمالها، ومن ثم

وجدناه يبين علاقة الدين بالمرءة التي تجمع عددًا من الفضائل ففيها صدق، وكرم ونجدة، وترفع عن الصغائر، وفي هذا يقول: "لا مرءة لمن لا دين له"<sup>(74)</sup>. وإذا كان بعض الناس قد يستحل الكذب على خصمة، لا سيما إن كان على غير دينه، فإن ابن حزم يقوله له: "فاعلموا أننا لا نستحل ما يستحل من لا خير فيه من تقويل أحد ما لم يقله نصًا، وإن آل قوله إليه؛ إذ قد لا يلزم ما ينتجه قوله... فاعلموا أن تقويل القائل - كافرًا كان أو مبتدعًا أو مخطئًا - ما لم يقله، نصًا كذب عليه، ولا يحل الكذب على أحد"<sup>(75)</sup>.

\* ومن المعلوم أن ابن حزم قد خالف المذهب الفقهي السائد في المغرب والأندلس وهو مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه - فقد كان أولًا شافعياً، ثم أصبح ظاهريًا. وكان شديدًا في حديثه عن معارضيه حتى لقد وُصف بأنه كان يصكهم صك الجندل<sup>(76)</sup> ولكن ذلك لم يصل به إلى النيل من مقام الإمام مالك نفسه، بل إنه برأه من بعض ما نسب إليه بعض أتباعه في المذهب من كتمان بعض العلم، ثم قال عنه: "بل كان - عندنا - أحد الأئمة الناصحين لهذه الملة" ولكنه ليس بمعصوم، إذ ليس هناك معصوم بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أصاب أحيانًا، وأخطأ أحيانًا، ونال حظّه من التوفيق فيما أصاب فيه، وحظّه من عدم التوفيق فيما أخطأ فيه، شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء المجتهدين"، وإذا كان الإمام مالك موصوفًا بالعلم والورع فهذه "صفته عندنا، ونحن على اتباع روايته ورواية غيره من العدول؛ لأنه عدل، وقد أمرنا بقبول خبر العدل... وهو أول الناس ينهي عن تقليده"<sup>(77)</sup>.

وقد حرص ابن حزم في نهيه عن التقليد المطلق للأئمة على بيان "أن أبا حنيفة" في نهيه عن التقليد المطلق للأئمة على بيان "أن أبا حنيفة ومالكاً - رحمهما الله - اجتهدا، وكانا ممن أمر بالاجتهاد... وَجَرِيًّا على طريق من سلف في ترك التقليد، فأجرًا فيما أصابا فيه أجرين، وأجرًا فيما أخطأ فيه أجرًا واحدًا، وسليماً من الوزر في ذلك على كل حال" وهذا هو شأن الشافعي الذي جاء بعدهما، بل هو حال كل عالم ومتعلم غيرهما<sup>(78)</sup>.

وعلى الرغم من أخذ ابن حزم بالظاهر من نصوص القرآن والسنة دون لجوء إلى التأويل إلا في أضيق الحدود، وقوله: إن هذا هو الحق الذي لا يصح خلافه أو المنازعة فيه، على الرغم من هذا، ومما يترتب عليه من تخطئة أتباع المذاهب الفقهية المشهورة كان ابن حزم حريصاً على عدم المغالاة في تلك التخطئة؛ لذلك فرّق بين إنكار الظاهر، وتأويله، فهما لا يستويان، وفي هذا يقول: "وإنما يكفر من أنكر تنزيل القرآن، أو تنزيل بعضه فقط، وأما من أنكر الأخذ بظاهره، وتأول في آياته تأويلات لا يخرج بها عن الإجماع فإننا لا نكفره، ما لم تقم الحجة عليه، كما لا نكفر من خالفنا في قبول خبر الواحد، ما لم تقم الحجة عليه"<sup>(79)</sup>.

وهو يؤكد هذا في حديثه عن الإجماع الذي لا يكون مقبولاً إلا أن يكون على نص من قرآن وسنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأنه ليس بصحيح ولا مقبول إذا كان إجماعاً لا نص فيه، فمثل هذا الإجماع باطل، وإن كان هناك من الفقهاء من يقول به، والقائل بالإجماع المستند إلى النص مأجور

مرتين، مرة على اجتهاده وطلبه الحق، ومرة ثانية على قوله بالحق واتباعه له "ويكون من خالف ذلك النص، غير مستجيز لخلافه، لكن قاصداً إلى الحق مخطئاً، مأجوراً واحداً على طلبه للحق، مرفوعاً عنه الإثم، إذا لم يعتمد له"<sup>(80)</sup>.

وهكذا يتخفف ابن حزم من حدته وشدته إلى حد كبير، ولا شك أن لهجته في هذه النصوص وأمثالها تختلف عن أحكامه القاسية التي أصدرها على الفقهاء في حومة جداله معهم على نحو ما أشرنا إليه من قبل<sup>(81)</sup>.

ولعل ابن حزم كان يستحضر في نفسه ما ينبغي أن يكون عليه أهل العلم - حتى وإن اختلفوا - من آداب وأخلاق تطبع سلوكهم، وتحكم اختلافاتهم، وإلا كان علمهم كالشجرة العقيم الجرداء، التي لا ثمرة لها ولا ظل، وتزداد المحنة إذا كان علمهم علماً شرعياً يُتوقع منه أن يكون له تأثير محسوس في أخلاق صاحبه وسلوكه، وقد كان ابن حزم حريصاً على هذا الجانب الخلفي في علاقاته ومعاملاته، بل إنه كان حريصاً عليه حتى في عاطفته ومشاعره التي يجب أن يُراعى فيها سرِّيُّ النعوت ونبيلُ الصفات، ولذلك وجدناه في طوق الحمامة يتحدث عن كراهيته للغدر، وحرصه على الوفاء، والتعفف، والبعد عن كل ذميم من الأخلاق التي تغضب الله تعالى، وتضع من قدر صاحبها؛ لأنه لا يقع فيها إلا أهل الخسة والدناءة، ولذلك حذر من قبح المعصية، وثقل العقوبة، وأليم الحساب في دار الجزاء<sup>(82)</sup>، وقد تحدث عن نفسه فقال: "... يعلم الله - وكفى به عليماً - أنني بريء الساحة، سليم الأديم، ... نقي الحُجْرَة"<sup>(83)</sup>. وهو يذكر في هذا المقام أحد شيوخه الذين كان لهم "تقدم في الصلاح والنسك الصحيح، وفي

الزهد في الدنيا، والاجتهاد للأخرة ... وما رأيت مثله - جملة - علمًا وعملاً،  
ودنيا وورعًا، فنفعني الله به كثيرًا، وعلمت موقع الإساءة، وقبح المعاصي<sup>(84)</sup>.

\* ويمكن القول إن ابن حزم قد وضع لنفسه منهجًا يتضمن عددًا من  
القيم الخلقية التي ينطلق فيها ويحتكم إليها في جداله الذي شغل مساحة كبرى  
من جهوده، بسبب اختلاف انتماءاته العلمية والفكرية مع البيئة الثقافية التي  
تحيط به؛ إذ هو في الاعتقاد يعلن انتسابه إلى أهل السنة الذين هم "أهل الحق،  
ومن عداهم فأهل البدعة"، وهؤلاء هم "الصحابة - رضي الله عنهم -، وكل من  
سلك نهجهم من خيار التابعين، رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث، ومن  
اتبعهم من الفقهاء، جيلًا فجيلًا، إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في  
شرق الأرض وغربها"<sup>(85)</sup>. ومن شأن هذا الانتساب أن يجعله على خلاف كبير  
مع سائر الفرق الكلامية من الشيعة والخوارج المعتزلة والأشاعرة، وقد رد على  
هذه الفرق جميعها في كتب كثيرة، ولا سيما في الفصل وما يجري مجراه.

ثم هو ينتسب في الفقه والأصول إلى الظاهرية - كما سبق القول -  
وهذا يجعله في خلاف شديد مع أتباع المذاهب الفقهية فيما وضعوه من أصول،  
وما قعدوه من قواعد، وما تناولوه من فروع الأحكام.

وقد كان ابن حزم أحد الدعاة الكبار السابقين في دعوتهم إلى ادخال  
المنطق في جملة العلوم الإسلامية، والانتفاع به في إحكام الأدلة، والبراهين،  
وضبط الأفكار وجودة صياغتها، وكان يرى في عمله هذا نوعًا من الجهاد  
العلمي الذي يرجو به نفع المسلمين في علومهم المختلفة وهو يذكر في مقدمات

كتابه التقريب لحد المنطق فوائد هذا العلم فيقول: "وليعلم من قرأ كتابنا هذا أن منفعة هذه الكتب ليست في علم واحد فقط، بل في كل علم".  
وتتمت هذه المنفعة إلى فهم كتاب الله تعالى، ومعرفة معاني الأسماء والأحكام الواردة فيه، وينطبق هذا على سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما تمتد إلى الفتيا في الحلال والحرام، وإلى النظر في الآراء والديانات والأهواء والمقالات، بل إلى علم النحو واللغة والتاريخ والشعر والبلاغة والعروض، بل إلى الطب والهندسة والفلك وأمثالها<sup>(86)</sup>.

ويذكر ابن حزم أن تعليم الناس طرائق البرهان، وسبل الاستدلال عمل يُرجى ثوابه والأجر عليه من الله تعالى، لما يترتب عليه من إيضاح الحقائق، وإزالة الغموض، ومواجهة الظنون، والتحلي بالعلم الذي به بَانَ البشرُ عن البهائم "فَقَوِيَ رجاؤنا في أننا ببيان ما نبينه منها نكون السبب في هداية من سبقت له الهداية في علم الله - عز وجل - ... ولم نجد أحدًا قبلنا انتدب لهذا، فرجونا ثواب الله - عز وجل - وأمَلنا عونه تعالى في ذلك"<sup>(87)</sup>. ثم يشير إلى هذا المعنى - أيضًا - في مثل قوله: "فتقربنا إلى الله - عز وجل - بأن نورد معاني هذه الكتب بألفاظ سهلة ... يستوي - إن شاء الله - في فهمها العامي والخاصي، والعالم والجاهل، حسب إدراكنا، ومَنَحنا خالقنا - تبارك وتعالى - من القوة والتصرف"<sup>(88)</sup>.

وقد رأى أن هذا من أوجب الواجبات على أهل العلم، أن يسهلوا طرق العلم، ويمهدوا سبله، وأن يقوموا بنشره وتيسيره وتوصيله للناس، وتلك مهمة نبيلة

على العالم أن يقوم بها، ويرفع بها صوته عاليًا، ليقيم بهذه الأمانة الجليلة؛ مرضاةً وقربى إلى الله - عز وجل. وفي هذا يقول عن العالم الذي يتصدى لهذا الأمر؛ إحساسًا منه بالمسئولية، وقيامًا بالواجب "بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة - ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، ويعظم الأفعال عليه للباحثين عنه ... صابرًا - في ذلك - على المشقة والأذى - لكان ذلك حظًا جزيلاً، وعملاً جيداً، وسعيًا مشكوراً كريماً وإحياء للعلم" (89).

ولا نريد أن نستفيض في هذا المعنى الذي أفاض فيه ابن حزم وهو يقدم ما يشبه أن يكون نظرية متكاملة في المعرفة وأخلاقيات العلم وآداب المناظرة - لا سيما إذا ما ضمنا إليها ما بدأ به كتابه الفصل، وكتابه الأحكام، ورسالته في مراتب العلوم - لكننا نريد - هنا - التنبيه على أن هذا الرجل الذي خاض غمرات الجدل مع مخالفيه من القدامى والمعاصرين، في علوم كثيرة لم يكن ليفعل هذا كله خبط عشواء، بل إنه كان يستحضر في ذهنه قواعد ومبادئ علمية وخلقية كان ينثرها بين يدي جداله لهم، لتكون مرجعاً ينبغي الاحتكام إليه، حتى لا يجري الجدل على غير هدى، وهي تكشف - في الوقت نفسه - عن موقف من "الأخر" يسمح بالتجاوز والتعائش معه، حتى لو كان بينه وبينهم اختلاف في الرأي أو في الرؤية والمذهب والانتماء.

وسنشير إلى بعض هذه القواعد والمبادئ على سبيل البيان، لا على سبيل الاستقراء والاستقصاء؛ لأن ذلك باب يطول.

- وكان ابن حزم أيضًا - في سياق عرضه لأرائه، وجداله لمخالفه - على التصريح بضرورة أن يتجنب الباحثون عن الحقيقة الوقوع في الأهواء، وأن يتحلوا بطلبها بتجرد وإخلاص وموضوعية، وفي ذلك يقول: "واعلم أنه لا يدرك الأشياء على حقائقها إلا من جرد نفسه عن الأهواء كلها، ونظر في الآراء كلها نظرًا واحدًا مستويًا، لا يميل إلى شيء منها، وفتش أخلاق نفسه - بعقله - تفتيشًا، لا يترك فيها من الهوى والتقليد شيئًا ألبته ... فإن من فعل ما قلنا فزمانًا له إدراك الحقائق على وجوهها في كل مطلوب"<sup>(90)</sup>. وبهذا يتخلص من الإعجاب بالرأي الذي يدفع إلى الاستعلاء والتعصب والكبر على الخلق، وغمط الحق ورفضه. وقد كان ابن حزم حريصًا على أن يخلص نفسه من الأهواء والآفات الخلقية التي يعترف بوجود بعضها فيه وهو يتحدث - في هذا السياق - بصراحة مذهشة غير معهودة، وقد بيّن أن أول ما يُعين على التخلص من هذه الرذائل هو الإقرار بها، وعدم الإنكار لوجودها، وفي ذلك ما يعين طالب الفضائل على الاتعاض بها. وكان من وسائله لتحقيق ذلك: رياضة النفس، والاطلاع على ما قاله الأنبياء، وأفاضل الحكماء<sup>(91)</sup>، والتخلق بأخلاق العلم الذي يؤدي إلى الخلق الحسن؛ حيث إن "منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة، وهو أنه يُعلّم حُسْنَ الفضائل فيأتيها [طالب العلم]، ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل، فيتجنبها، ولو في الندرة ... فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعمل حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة"<sup>(92)</sup>.

وتسوقه تلك الرياضة للنفس ومجاهدتها، وحب العلم وإيثاره والرغبة في إرضاء الله - تعالى - إلى التخلق بخلق العدل، والتمسك بقيمة الحق، وهذا من أفضل نعم الله على الخلق "أفضل نعم الله على العبد أن يطبعه على العدل وخبه، وعلى الحق وإيثاره، وأما من طبع على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه فليأس من أن يصلح نفسه، ويقوم طباعه أبداً، وليعلم أنه لا يفلح في دين، ولا خلق محمود. والزهد والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي - قط - وكأنني لا حمد لي في تركها؛ لمنافرة جبلتي إياها"<sup>(93)</sup>.

ونحن نلاحظ في نصوص ابن حزم هذه، وفيما يماثلها، وهو كثير - أنه كمن يضع لنفسه أصولاً، وإطاراً يحكم حركته العلمية والفكرية، ويجعل عليها سياجاً خلقياً يمنعها من الخروج عليه في جداله، ولذلك وجدناه حريصاً على تجنب ما لا يتسق معها، سواء أكان ذلك متعلقاً به، أم متعلقاً بغيره.

ولذلك حذر من التعسف في رفض الحق، ومن الغرور بالرأي، ومن طلب المحمدة من الناس، ومن تحقير أحد، ومن التكلم بغير الحق، أو المجادلة في باطل، ثم قال: "واعلم أنه لا يقدر أحد على هذه الشروط إلا بخصلة واحدة، وهي أن يروض نفسه على قلة المبالاة بمدح الناس أو ذمهم إياه، ولكن يجعل وكده طلب الحق لنفسه فقط"<sup>(94)</sup>.

ثم إنه يشير - فضلاً عن ذلك - إلى خصال وفضائل أخرى، منها التواضع للحق، وتقبله برضا نفس، دون كبير أو استعلاء؛ لأنه لا يوجد معصوم بعد الأنبياء، وما من أحد إلا يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول صلى الله عليه

وسلم كما قال ابن عباس وغيره، ولا ينبغي لأحد أن يظن في نفسه أن الحق مربوط به، ودائر عليه وحده؛ فذلك من الغرور والكبر، وكلاهما مذموم. وقد أفصح ابن حزم أنه ابتلي - في أوائل عمره بمرض العجب الشديد بالنفس "فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له - والحمد لله - أثر، بل كلفني نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع"<sup>(95)</sup>.

ويحكي ابن حزم عن نفسه حكاية تجمع بين التواضع في نفسه والإنصاف لغيره؛ رجاء الاعتبار والاتعاظ بها، يقول: إني ناظرت رجلاً من أصحابنا في مسألة، فعَلَوْتُه فيها؛ لُبُكُوِّه كان في لسانه. وانفصل المجلس على أني ظاهر. فلما أتيت منزلي حاك في نفسي منها شيء. فطلبتها في بعض الكتب فوجدت برهاناً صحيحاً، يبين بطلان قولي، وصحة قول خصمي. وكان معي أحد أصحابنا، ممن شهد ذلك المجلس، فعرفته بذلك، ثم رأني قد علمت على المكان من الكتاب، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد حمل هذا الكتاب، وعرضه على فلان، لإعلامه بأنه المحق، وأني كنت المبطل، وأني راجع إلى قوله. فهجم عليه من ذلك أمر مُبْهَت، وقال لي: وتسمح نفسك بهذا؟ فقلت له: نعم، ولو أمكنني ذلك في وقتي هذا لما أخرته إلى الغد"<sup>(96)</sup>.

\* وإذا كان التواضع للحق من أهم الفضائل التي يتحلى بها العلماء فإن طلب الحق يجب أن يكون من مقاصدهم وغاياتهم؛ بحيث لا يُلقون بأنفسهم في مهاوي الباطل ووهاده، بل ينبغي أن يكون من مقاصدهم نصرُ الحق، وقمع الباطل<sup>(97)</sup> لكن تحقيق هذه الغاية النبيلة لا يتحقق بالأمانى والادعاء، بل إن

ذلك يحتاج إلى جهد واستعداد؛ وترويض للنفس على التواضع، وتخليصها من الكبر، لأن ذلك لا يكون "إلا بشدة البحث، وشدة البحث لا تكون إلا بكثرة المطالعة لجميع الآراء والأقوال، والنظر في طبائع الأشياء"<sup>(98)</sup> وسماع حجة كل محتج، والنظر فيها وتفتيشها، والإشراف على الديانات والآراء والنحل والمذاهب والاختيارات واختلاف الناس وقراءة كتبهم". إلى علوم أخرى كثيرة<sup>(99)</sup> مع ضرورة الحرص على ألا يقبل قول إلا ببرهان وحجة، "وأن من لم يأت على قوله بحجة فهو مبطل بنص حكم الله عز وجل ... وأنه لا يفلح إذا قال قوله لا يقيم على صحتها حجة" وعلل ذلك بأن "الحجة الصحيحة أقوى في مواجهة الخصوم من السلاح الشاكي، والأعداد الكثيرة؛ لأن الأعداد قد تهزم، أما الحجة فلا تهزم أبدًا"<sup>(100)</sup>.

\* وإذا كانت هذه الخلائق والفضائل من الأمور المرغوبة والمطلوبة في الشخص نفسه فإنها مطلوبة - كذلك - في علاقته بغيره من العلماء فهو يطلب من يجادله بما يلزم احترامه وتحققه بين المتجادلين من بيان الحق، واستعمال البرهان، وفي هذا يقول: "قبل كل شيء، أريد أن تنظر في كلامي بعين سليمة من الإعراض والاستحسان معًا، وبنفس بريئة من النفاق والسكون معًا، لا كما ينظر المرء بما لم يسمعه - قط - فيسبق إليه منه قبول، يُسهل عليه الباطل، أو نفاق يوغر عليه الحق، فمن هذين السعيين تاه أكثر الناس، وفارقوا المحجة"<sup>(101)</sup>.

ويعلم ابن حزم - بقوة - أن المسامحة في طلب الحقائق لا تجوز أثبتة، فالأمر إما حق، وإما باطل، ولا يجوز أن يكون حقاً باطلاً ولا باطلاً حقاً، والحق يثبت بالبرهان لا بشيء سواه، وهو إما أولي يعتمد على النص الصحيح، أو بدهاة العقل، أو بالحس أو بالخبر الصادق الصحيح، وإما بوسيلة ترجع إلى هذه المصادر الأولية للمعرفة. وما سوى ذلك فباطل<sup>(102)</sup>.

ويفرق - ابن حزم - في المناظرة والجدال بين من يطلبون الحق، ومن يعرضون عنه، وهو يرتضي أن يقع الجدل مع الفرق الأول منهما دون الثاني؛ لأن الأول منهما طالب حقيقة ومريد بيان، وهو يريد أن يوصل إلى من يناظره من الحقيقة مثل الذي عنده منها، وأن يزيل الشكوك التي تحول في صدره فتمنعه من قبولها<sup>(103)</sup>.

\* فإذا اتفق أن يكون المتناظران من طالبي الحقيقة فهذه - كما يقول ابن حزم - مناظرة فاضلة، حميدة العاقبة، يوشك أن تتحلَّ عن خير مضمون"، أما إذا كان المتناظران من أهل المغالطة فتلك "مناظرة يكثر فيها الشغب، ويعظم النصب، ويكثر الصخب، ويشد الغضب، ويوشك أن تشتد مضرتها. وأما المنفعة فلا منفعة"<sup>(104)</sup>.

\* ويلحُّ ابن حزم على التخلق بخلق الإنصاف مع الخصم إذا كان هو الذي هُدي إلى الحق في القضية المختلف فيها؛ لأنه إذا رفض الحق سيكون ظالماً لخصمه؛ بل سيكون - عندئذ - ظالماً لنفسه، وهو يحذر من التقول عليه بنسبة شيء إليه لم يقله ولم يلتزمه. ثم لا يتوقف ابن حزم عند هذا الحد؛ بل

يقول ناصحاً "واعترف لمن هو أعلم منك؛ فإنه أزين لك، ولا تبخسه حقّه، فلن ينقصه تنقصك إياه، بل هو نقص فيك، واحذر كل من لا ينصف ... ولا تكلم إلا من ترجو إنصافه وفهمه"<sup>(105)</sup>.

ثم يحذر المغلوب في الجدل من أن تغلبه نفسه فتستعظم أن يُعرف عنها أنها خرجت مهزومة؛ لأنها - إذا لم يحكمها دين وضمير - تستكثر ذلك، وعندئذ قد تلجأ إلى المغالطة وقلب الحقائق، والإخبار بغير الذي وقع، ويقول ابن حزم لمثل هذا "ولا يكن غرضك أن توهم نفسك أنك غالب، أو توهم من حضرك، ممن يغتر بك، ويثق بحكمك، أنك غالب، وأنت في الحقيقة مغلوب، فتكون خسيماً وضيعاً جداً، وسخياً ألبتة، وبمنزلة من يوهم نفسه أنه ملك مطاع، وهو شقي منحوس"، والراضي بهذا المسلك مغرور أحمق، وقد يأنس بهذا قليلاً، لكنه إذا ثاب إليه عقله ونظر في حاله علم أنه في أضاليل، وأنه ليس في يده شيء<sup>(106)</sup>.

\* وتتجاوز فضيلة الإذعان للحق وللرضا به، حتى ولو جاءه على لسان خصمه، مع فضيلة الإنصاف التي تتكرر في وصايا ابن حزم ونصائحه؛ لأن الإنصاف في الناس قليل، ويقتضي الإذعان للحق إثبات ما يثبت البرهان، وإبطال ما يبطله البرهان، فإذا قصر مقصر عن إقامة البرهان فذلك لا يضر الحق شيئاً، وعليه أن يقبل الحق من كل من جاء به، حتى لو كان خصمه، وفي هذا يقول "ولا تقنع بغفلة خصمك؛ بل انظر في كل ما يمكن أن يصح به قوله، فإن وحدت حقاً ببرهان فارجع إليه ولا تتردد، ولا ترص لنفسك ببقاء

ساعة، آبيًا من قبول الحق ... ولا تستوحش مع الحق إلى أحد، فمن كان معه الحق فالخالق - تعالى - معه" (107).

فأما الإزراء بالحق، والإهدار له، وقلب الحقائق فليس من شيمة الفضلاء؛ بل هو من شيمة أهل التبجح والادعاء، الذين يصل بهم الغرور والجهل والحماقة إلى أن يقول قائلهم: "إني قادر على أن اجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، فلا تصدق مثل هؤلاء الكذابين؛ فإنهم سفلة أرذال، أهل كذب وشر ومخرقة" (108).

ويمعن ابن حزم في تأكيد قيمة الحق، ودعوته إلى الالتزام بها، منه وممن يختلفون معه؛ حتى إنه لا يلتزم بهذا فيما توصل إليه - فقط - من رأي أو حكم، وما اعتمد عليه من حجة، بل إنه يقول: "وكذلك نقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن، فنقول، مُجدين مُقرين: إن وجدنا أهدى منه اتبعناه، وتركنا ما نحن عليه" (109). وقد يظهر هذا الحق على لسان الخصم، وعندئذ يجب الرجوع إلى قوله، وهو لا يدعي أنه هو - وحده - الذي يمتلك الحقيقة كلها؛ بل يمكن أن يظهر الحق على يد غيره، وخصوصاً فيما يقع فيه إشكال في الفهم، أو اختلاف في النظر، وهو يقول في مثل هذه الحالة: إننا "قاطعون باتون على أن علم الحقيقة - فيما أشكل علينا - موجود عند غيرنا، ولا بد" (110).

وهو يقبل هذا الحق من خصمه، حتى ولو كان خصمه مخطئاً في بعض ما ذهب إليه من رأي أو اجتهاد في مسائل أخرى؛ لأن الاهتمام إلى الحق المطلق لا يكون لأحد إلا بعصمة إلهية، وهذا لا يكون إلا للأنبياء عليهم

السلام، "وليس أحد بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا وهو يخطئ ويصيب، فليس خطؤه بمانع من قبول صوابه" (111).

وليس غريباً - وهذا هو رأيه وشأنه - أن يحكم على من لا ينقاد للحق ويدعن له ويرجع إليه إذا ظهر بأنه فاسق، بسبب جوده للحق ونكوله عنه (112) أما إذا عجز المختلفان في الرأي عن الوصول إلى الحق، بأن أثبت أحدهما شيئاً ونفاه الآخر، ثم أقام كل منهما الدليل على صحة دعواه، أو عجزا عن إقامة الدليل "فحكّم ذلك الشيء أن يُتَوَقَّفَ فيه ... إلا أننا لا نقول به، ولا نحكم به، ولا نقطع أنه باطل ... ولكن نقول: الله أعلم" (113).

\* وهكذا يحتكم ابن حزم - فيما تحدث به عن علاقته بالمخالفين له في الرأي - إلى مجموعة من الفضائل والقيم التي تفتح المجال - إلى حد كبير - للتفاهم والتحاور، وتؤدي إلى التواصل العلمي الذي يؤدي إلى تخفيف العصبية المذهبية، وتمحيص الحقائق، والتقليل من شقّة الخلاف الواقع بين العلماء، وما أجمل ما تحدث به ابن حزم! ولكن ما أبعد المسافة بين الدعوة والتطبيق، كما تدل على ذلك وقائع التاريخ!

\* على أن آراء ابن حزم لم تقتصر على علاقته بنظرائه من أهل العلم والفكر، المشغولين بالعقيدة والفقهِ وغيرهما من العلوم؛ بل إنها تتناول دائرة أوسع من الحياة الاجتماعية التي عاش ابن حزم في ظلها، وقد تفاوتت علاقته بها ضيقاً وسعة، وقرباً وبعُدًا، وقد اتضح من حديثه عن هذه الدائرة الواسعة أنها كانت محكومة - كسابقتها - بمنظومة من القيم الخلقية التي كانت ثمرة لتدينه

وعلمه الكبير بالشريعة، والمعرفة الواسعة بالحديث الشريف والسيرة النبوية، وجاء الحديث عن أكثر هذه القيم في رسالته: مداواة النفوس، وجاء بعضها في بعض رسائله الأخرى.

\* وتتجلى قيمة التعاون والتكامل في الجهد الإنساني ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في الحياة الاجتماعية بصفة عامة؛ لأن الفرد لا يستطيع - وحده - أيا كانت قدراته العقلية والعلمية والمادية، أن يقوم بمصالحه كلها؛ ولهذا سيظل - دائماً - بحاجة إلى معاونة الآخرين له، على قضاء حاجاته، وتلبية مطالبه، ومن قديم قال الفلاسفة والمفكرون إن الإنسان مدني بالطبع، أي أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا أن يلبي جميع مطالبه دون الاستعانة بالآخرين، وهو لا يستطيع مثلاً أن يكون عالماً وقاضياً وطبيباً وزارعاً وصانعاً، وعارفاً بالمهن، وتاجراً وجندياً حارساً، وهكذا، ومن ثم فهو في حاجة دائمة إلى الآخرين، ويتضح هذا المعنى في حديث ابن حزم عن ضرورة التعاون في مجال العلم بالشريعة، وفيما تتطلبه من معرفة الأحكام وإقامة البراهين، والدراسة بعلوم الفقه والحديث واللغة والحساب والطب والبلاغة ونحوها من العلوم، وقد طالب بأن يكون الناس في تعاونهم على تحصيل هذه العلوم، وإقامة الواجب فيها "كالمجتمعين لإقامة منزل، فإنه لا بد من بناء وأجراء ... ومن صنّاع وقطاعي خشب، وصنّاع أبواب ومسامير حتى يتم البناء، وينطبق ذلك على كل ما بالناس الحاجة إليه من الزراعة والحرف فإنه لا يتم إلا بالتعاون على القيام بآلاته والعمل بها، وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقي إلى عالم

الخلود" ويؤيد ابن حزم كلامه هذا بذكر كلام لأحد شيوخه، ويوجه فيه نظره إلى أن الحرث يحرث للإنسان، والطحان يطحن له، والخباز والجزار والبناء وسائر الناس، وهذا كله يستوجب أن يقوم الإنسان الذي يحتاج إلى معاونة الناس له - في كل أمور حياته - بالمعاونة لهم أيضاً، وأن يكون متعاوناً معهم في أداء الوظائف والمصالح الاجتماعية، "أفما يستحي أن يكون عيالاً على كل العالم، لا يعين هو - أيضاً - بشيء من المصلحة؟!".

ويعلق ابن حزم على هذا قائلاً: ولقد صدق، ولعمري إن في كلامه من الحكمة لما يستثير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له، وأي كلام في نوع هذا أحسن من كلامه في تعاون الناس؟ وقد نبه الله تعالى عباده بقوله: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) (114) [المائدة: 2]

ولكن الناس ليسوا سواءً في طبائعهم وأخلاقهم وأحوالهم؛ ففيهم الخير والشرير، وفيهم ذو الأخلاق الحسنة والفضائل، وفيهم ذو الأخلاق السيئة والردائل، وفيهم المحب وفيهم المُبغض، وفيهم المُحِقّ وفيهم المَبطل، وفيهم من يسعى إلى تحقيق المصالح، ومن يسعى إلى الإيذاء والمضار، ولا يمكن أن يقع التعاون مع هؤلاء جميعاً بطريقة واحدة، أو بصورة واحدة من صور التعاون، ومن ثم يحتاج التعامل معهم - وهم على هذا النحو من الاختلاف - إلى استحضار بعض المبادئ والقواعد الخلقية التي تمثل منطلقاً للسلوك، وسياجاً له من الخطأ والظلم وسوء التصرف.

وقد حفلت نصوص ابن حزم بعدد من هذه المبادئ الخلقية التي كان يوصي نفسه وغيره بها، ومن ذلك قوله:

- من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله تعالى، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فإنه يحتوي على جميع الفضائل<sup>(115)</sup>، وأن الاتساء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في وعظه أهل الجهل والمعاصي والردائل واجب<sup>(116)</sup>، وأنه إن لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل، ولم يكن للإنسان مندوحة عن منافرة الحق ومنافرة الخلق فليغضب الناس وينافرهم؛ لأنه لا يصح له أن ينافر الحق، أو يغضب ربه تعالى<sup>(117)</sup>.

- وإذا كان ابن حزم يركز - فيما سبق - على المنطق الديني في التعامل مع الناس فإنه لا يغفل أمر الاحتكام إلى العقل الرشيد في هذا التعامل أيضًا، فالشرع والعقل يتكاملان في ضبط السلوك وتهذيب الأخلاق، والارتقاء بها، وفي ذلك يقول:

إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سُور  
فأتحلّ العقل بالعلم م وإلا فهو بُور<sup>(118)</sup>

وقد كان ابن حزم واقعيًا في نظرتة إلى بني الإنسان، فهم ليسوا جميعًا من الأطهار الأبرار، وهم كذلك ليسوا جميعًا من الأشرار؛ بل إنهم يجمعون مزيجًا من الخير والشر، وعلى كل منهم أن يعمل على أن يزداد حظه من الخير والفضائل، دون ركون إلى الإعجاب الزائد بالنفس، إعجابًا يصرّفها عن رؤية نقائصها، لذلك قال: "واعلم يقينًا أنه لا يسلم إنسي من نقص، حاشا الأنبياء -

صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين - فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط، وصار من السخف والضعة والردالة والخسة، وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم؛ بحيث لا يتخلف عنه متخلف من الأردال<sup>(119)</sup>.

- وإذا كانت المخالطة للناس ضرورية، وكانت حظوظ هؤلاء من الأخلاق متفاوتة فإن الإنسان قد يُبتلى بمخالطة أهل السوء من بينهم، ولا يخلو الأمر من شيء من هذا، خصوصاً إذا كان كابن حزم، الذي كثر خصومه ومخالفوه في الرأي والمذهب في الفقه والاعتقاد، ثم جمع إلى ذلك شجاعة في إبداء الرأي، وقوة في الحجج والجدل، وجرأة في الصدع بالحق، دون مبالاة بالعواقب، وأورثه هذا كله خصوماً أشدّاء من الحكام والفقهاء، وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى، وكان ذلك سبباً في الشعور بثقل الخصومة، وتأثيرها في مشاعره ومواقفه؛ ولهذا وجدناه يقول - في لهجة مشبعة بالأسى "محنُ الإنسان في دهره كثيرة، وأعظمها محنته بأهل نوعه من الإنس، وداء الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبة والأفاعي الضارية؛ لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلاً"<sup>(120)</sup>.

وهو يشكو من النفاق الغالب على أكثرهم، ومن ميل بعضهم إلى الأذى، ورمي غيرهم بالقبائح والفضائح، ومن وقوع بعضهم في الكذب والافتراء واللجاج إلى غير ذلك من الشرور<sup>(121)</sup>.

وهنا نجد ابن حزم يعتصم بما تأصل في طبعه وعقله من القيم؛ حتى لا ينتقل عما يحرص عليه من السلوك القويم، ومنها العدل الذي هو "حصن يلجأ

إليه كل خائف ... فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين<sup>(122)</sup>. وهذا العدل يزين للنفس "الإنصاف، ويجيب إليها موافقة الحق" وهذا مما أمر الله تعالى به في كتابه، ثم هو ما يرتضيه العقل أيضًا<sup>(123)</sup> وهذا العدل هو أفضل نعم الله على عبده<sup>(124)</sup>.

وهذا الإنصاف - الذي هو ثمرة من ثمرات العدل - يدفع صاحبه إلى إنصاف الخصم بأن يتوهم نفسه مكان خصمه، حتى يبرأ من الظلم له والتعسف معه، وهو مكلف - بحسب العدل والإنصاف - ألا يُسلم عدوّه ظلم، أيًا كان، بل إنه مكلف بأن يساوي - في النظر إليه والحكم عليه - بينه وبين الصديق<sup>(125)</sup> وعليه - في كل الأحوال - أن يحذر كل من لا ينصف<sup>(126)</sup> كما هو شأن أهل الجور، ومن يصدقون أن من الناس من هو سالم من الرذائل التي يتصفون هم بها<sup>(127)</sup>.

وأيوطن الإنسان نفسه على أنه لن ينجو - مهما كان سليم الصدر، جميل الطبع، حسن الأخلاق - من ظلم الناس وطعنهم فيه، وفي هذا يقول: "من قَدَّر أن يَسَلَّمَ من طعن الناس وعيبيهم فهو مجنون"<sup>(128)</sup>.

ولن يخفف إحساسه بالألم من ذلك إلا أن يطرح المبالاة بكلام الناس، وأن يراعي الله عز وجل، وهذا باب عظيم من أبواب العقل والراحة<sup>(129)</sup>.

وينتهي ابن حزم - في تقريره لما ينبغي علمه في هذا الشأن - إلى أن على الإنسان ألا يستعمل سوء المعاملة مع الخلق، حتى لا يلحق بذوي الشرارة من الناس، وأن عليه أن يعامل كل أحد من الإنس أجمل معاملة<sup>(130)</sup>.

\* وأما الأصدقاء فلهم - فوق هذه الأخلاق والحقوق - حقوق أخرى كالنصح<sup>(131)</sup> والمسامحة<sup>(132)</sup> والإيثار<sup>(133)</sup> ورعاية مشاعر الصديق؛ بحيث لا ينقل إليه ما يسوؤه، أو يؤلمه، والتحمل لما يقع فيه من خطأ في حقه، والصبر الطويل على ما يقل منه في جفاء، يقول: "وإني لأجفئ فأحتمل، واستعمل الأناة الطويلة، والتلو الذي لا يكاد يطيقه أحد، فإذا أفرط الأمر، وحميت نفسي تصبرت، وفي القلب ما فيه"<sup>(134)</sup>.

ويتوج ابن حزم هذا كله بخلق الوفاء الذي يقول إنه جُبِلَ عليه، وهو وفاء "لا يشوبه تلؤن، وقد استوت فيه الحضرة والمغيب، والباطن والظاهر"<sup>(135)</sup>. وهو يذكر أن الله منحه من هذا الوفاء قسطاً عظيماً حتى إنه ليفي "لكل من يمتهن إليه بلقبة واحدة" ثم يقول: "وهبني من المحافظة لمن يتذممني، ولو بمحادثة ساعة - حظاً أنا له شاكر وحامد ... وما شيء أثقل عليّ من الغدر. ولعمري، ما سمحت نفسي - قط - في الفكرة في إضرار من بيني وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إليّ ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل، فما جزيتُ لي السؤاى إلا بالحسنى، والحمد لله على ذلك كثيراً"<sup>(136)</sup>.

### **تعقيب:**

ولعله بات واضحاً مما سبق أن ابن حزم لم تستغرقه تلك الحدة التي طبعت مواقفه تجاه الآخرين من العلماء والحكام وأمثالهم، وأدت به إلى بعض المواقف التي يمكن وصفها بالشدّة والعناد والصراحة الموجهة؛ بل إن القراءة المتأنية لمجمل كتاباته تكشف عن جوانب أخرى، تحدث فيها عن قيم كانت

تظل علاقاته بالآخرين، وتمتد هذه القيم إلى علاقاته بخصومه من أولئك المخالفين له، في مجال العلم أو في مجال الحياة الاجتماعية الإنسانية، وقد وجدناه - في كثير مما أوردنا نصوصه فيه - يتحدث عن المودة، والتعاون والتسامح والتعائش والصبر على الجفاء، والتخلق بالوفاء، وهذا يفتح آفاق العلاقة الإنسانية بينه وبين بني البشر، على اختلاف أخلاقهم ومواقفهم تجاهه.

- ويلاحظ أن تكوينه العلمي، المرتبط بالشرعية كان له دخل كبير في إضفاء هذا الطابع الإنساني على أفكاره، وقد كان يؤسس كثيرًا من أفكاره، أو يشفعها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بل إنه كان يستحضر دلالاتها ومضامينها حتى في حديثه عن مشاعره الذاتية وعواطفه الشخصية، على نحو ما يتجلى في كثير من الوقائع التي ساقها في كتابه طوق الحمامة، وكذا في رسالته عن مداواة النفوس.

- ثم يلاحظ - كذلك - أن حديثه عن علاقته بالآخرين - في دوائر علاقاته المتعددة، في العلم والسياسة، والحب، والصدقة، والعداوة ونحوها، - كان يأتي مقروناً - في الغالب - بتجارب شخصية عاناها بنفسه، أو حُكيت له ممن يثق في صدقهم وأمانتهم. وقد كان يذكر الأسماء والأماكن والأحداث، على نحو أضفى على كلامه - بل على ما يمكن تسميته بأدب الاعتراف - مسحة قوية من الصدق والصراحة التي لم تكن معهودة في كثير ممن كان لهم مثل مكانته من السابقين أو اللاحقين، وظهر هذا في كتبه ورسائله، وبخاصة في طوق الحمامة.

ولقد كان من صراحته وصدقته، وعدم مبالاته بقدر القادحين أو لوم اللائمين أن يقول عن نفسه "وكانت في عيوب، فلم أزل بالرياضة واطلاعي على ما قالت الأنبياء والحكماء والمتقدمون في الأخلاق وآداب النفوس أعاني مداواتها، حتى أعان الله - عز وجل - على أكثر ذلك"، فمنها كلف في الرضا، وإفراط في الغضب، ودُعابة غالبية، وعُجْب شديد، ومحبة في بُعد الصيت والعُلبَة، والإفراط في الأنفة؛ بل منها حقد مفرط وسوء ظن، وهو يذكر - في صراحة مدهشة - ما استطاع أن يتغلب عليه منها، وما استطاع أن يتخلص من أكثره، دون أن يقضي عليه تمامًا، وفي ذلك يقول عما ابتلي به من حقد مفرط "قدرت - بعون الله - على طيه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه، أما قطعه - ألبتة - فلم أقدر عليه، وأعجزني - معه - أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبدًا"<sup>(137)</sup>.

- إن بعض ما يتصف به كلام ابن حزم من حدة قد يمكن تفهمه إذا لاحظنا ما كان يقع بين أصحاب المذاهب المختلفة من صراعات، عالية النبرة، شديدة اللهجة، لا سيما إذا كانت بين المختلفين في الدين، أو في المذاهب الاعتقادية، ولقد كان الأمر يصل إلى حد تكفير الخصوم في بعض الأحيان، ويظهر هذا - مثلاً - في كتابات علماء الفرق بعضهم عن بعض، ككتابات علماء المعتزلة ومؤرخيهم عن الأشاعرة، أو كتابات علماء الأشاعرة ومؤرخيهم عن المعتزلة، وينطبق هذا على غيرهم من الفرق أيضًا، وقد امتدت هذه الحدة إلى مجالات أخرى مما وقع فيه الاختلاف، بل إنه

امتد إلى مدارس الأدب والنحو وغيرها، فإذا كان ابن حزم قد جمع هذه كله فكأنه استجمع كثيراً من الروافد في تلك الحقول التي كثر فيها مخالفوه، وليس هذا ببعيد، لا سيما إذا اقترن بذلك اعتزازاً بالنفس، وبالعلم، وبالمكانة الموروثة عن أسلافه، وبالمكانة الطارفة التي حصلها، حتى وصل إلى الوزارة، وكان - وقتاً ما - من أهل السلطان.

- ولقد يضاف إلى ما سبق إحساسه بكثير من الغبن بسبب ما أصابه من تقلب الزمان، وتبدل الأيام، ونكبات السلطان، والاعتقال، والغرم الفادح، وذهاب المال والجاه<sup>(138)</sup>.

ومن شأن هذا كله أن يحدث أثره في النفس فيصيبها بالحزن والأسى والمرارة، بل قد يصيب صاحبه باليأس من استرجاع ما وضع، أو الاستعاضة عنه بالجديد، وليس بمستغرب أن يؤدي هذا كله إلى تلك الحدة التي هي أشبه بنفثة المصدور.

ولكن الأمر لا يستقر عند ذلك؛ بل يكفكف منه، ويخفف من حدته تدين ينقله إلى سعة في الصدر، وفسحة في الرجاء، تهدأ فيها ثائرة نفسه، وشدة لسانه، حتى يصل به ذلك إلى تعايش وإنصاف وتعاون ومسالمة ووفاء.

وهكذا وجدنا ابن حزم يقول:

إذا ما صح لي دينٌ وعرضٌ      فلستُ لما توَّيُّ ذا اهتمام  
تولى الأمس، والغد لست أدري      أدركه ففي ماذا اغتامي<sup>(139)</sup>

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحمد أولاً وآخرًا.

## الهوامش

- (1) أخبر هو بذلك فيما كتبه للقاضي صاعد الأندلسي الذي كان معاصراً له، انظر: طبقات الأمم، تحقيق وتعليق د/ حسين مؤنس، طبع دار المعارف، مصر، ط (1)، 1998م، ص 99
- (2) السابق: 98
- (3) السابق: 98
- (4) ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 325/3، 326، والمقصود بالألفاظ العامية هنا: الألفاظ الشائعة المعروفة السهلة، التي لا تقتصر على ألفاظ المناطق بما فيها من مصطلحات صعبة يعسر على غير أهل الاختصاص فهمها.
- (5) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008م، القسم الثاني 416، 417
- (6) المغرب في خلي المغرب، لمجموعة من أدباء الأندلس، تحقيق د/ شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: (3) 1964/3 ج 1 / 355، ويقال: إنه بدأ مالكياً لكنه انتقل عن هذا المذهب السائد إلى مذهب الشافعي. انظر: د/ الطاهر مكي، دراسات عن ابن حزم وطوق الحمامة، دار المعارف ط: (3)، 1981م ص 88، 89
- (7) ابن حزم: رسالة في مداوة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق د/ إحسان عباس، طبع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2 / 1987م، ج 1 / 355
- (8) انظر: التقريب لحد المنطق، ضمن رسائل ابن حزم 2 / 343، 344
- (9) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تأليف عبد الواحد المراكشي، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط: (1)، 1963م، ص 94، وانظر: 97 التي يشير فيها إلى استمرار المذهب في الأندلس بعد وفاة ابن حزم بنحو قرنين أو يزيد.
- (10) المغرب، مرجع سابق 355/1
- (11) المعجب، ص 95

- انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني المطبعة الأدبية 1317هـ، 118/2، وانظر: رسائل ابن حزم 192/3/2، والمحلى 69/66/1
- (12) انظر: رسالتان، ضمن رسائل ابن حزم 109/3/2، 110، وانظر: 167
- (13) رسائل ابن حزم 35/3/2
- (14) الفصل 35/5، 36، والنص من ص 36 الفصل 2/116
- (15) انظر: مقدمة د/ إحسان عباس لتحقيق رسائل ابن حزم 45/1، 46، 51، 52، وانظر كذلك الرسائل 191/3/2، والإحكام 59/6 - 149 وهو فصل كبير في إبطال التقليد لغير المعصوم - صلى الله عليه وسلم.
- (16) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر، تقديم د/ إحسان عباس، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، مجلد 2/ ج 5/ 81
- (17) الفصل 2/116
- (18) الفصل 118/2 بتصريف يسير جداً
- (19) الفصل 3/3
- (20) انظر: الفصل 1/82
- (21) الفصل 2/116
- (22) سنشير إليها بإيجاز، دون دخول في كثير من التفاصيل
- (23) رسائل ابن حزم 2/3/100، 101
- (24) انظر: الإحكام 3/43، 44
- (25) انظر: الإحكام 4/209
- (26) انظر: الإحكام 4/172 - 178، وانظر: 53/7، 54، 71، 73
- (27) انظر: الفصل 2/80 - 84 وما بعدها.
- (28) الإحكام 5/129، 130، وانظر: 5/121، 125، 137، 138
- (29) انظر: الإحكام 4/121
- (30) انظر: الإحكام 1/107، 108، 119، 3/126
- (31) الإحكام 7/53

- (32) انظر: الإحكام 1/ 77، 2/ 31، 3/ 149، 4/ 77، 139، 140، 7/ 56 - 99، وما بعدها ثم 110، 153، 194 / 8 / 3، 9 - 22، 168، وانظر الفصل 1/ 39، 51، 2/ 148، 149، 158، 159، ورسائل ابن حزم 4/ 298، وعشرات المواضع الأخرى
- (33) انظر: الإحكام 7/ 195، 196
- (34) انظر: الإحكام 6/ 169، وما بعدها، ولا سيما 6/ 171، 172
- (35) السابق 6/ 181، وانظر: 6/ 173، وانظر: كذلك 4/ 41، 202، وما بعدها 6/ 117، 118 في إبطال قول من قال: الإجماع هو إجماع أهل المدينة، انظر: 4/ 50، ومواضع أخرى.
- (36) انظر: الإحكام 7/ 77، 78، 79، 81، 86
- (37) انظر: رسائل ابن حزم 2/ 3 / 74، 75، 76، 79
- (38) السابق 2/ 3 / 83
- (39) رسائل ابن حزم 3/ 173
- (40) الإحكام 2/ 309 وانظر: الرسائل 3/ 109
- (41) رسائل ابن حزم 2/ 3 / 82، 83
- (42) رسائل ابن حزم 2/ 3 / 200، 201
- (43) انظر: السابق 2/ 3 / 201، وانظر: 194
- (44) السابق 2/ 3 / 191، وراجع الفصل 4/ 35، 38، 39، والفصل 4/ 35، 38، 39، والفصل 2/ 121، 177
- (45) انظر: الفصل 2/ 113
- (46) الفصل 2/ 116
- (47) انظر: مثلاً الفصل 3/ 15، 206/4، وما بعدها من صفحات كثيرة، منها 4/ 204، 215، 49/5، 53، وانظر: رسائل ابن حزم 2/ 3 / 193، 194
- (48) انظر: الفصل 2/ 114، 215
- (49) انظر: الفصل في مواضع كثيرة منها 1/ 116، 118، 122، 123، 131، 136، 138، 140، 141، 148، 162، 168، 171، 179، 186، 197 إلخ إلخ

- (50) الفصل 1 / 127
- (51) الفصل 1/219، وانظر كذلك إحدى الشرائح المقذعة 1/221، 222
- (52) رسائل ابن حزم، رسالة التلخيص في وجود التلخيص 2/2/173
- (53) رسائل ابن حزم، رسالة الرد على ابن النغيلة اليهودي 2/3/41
- (54) السابق 2/3/67، وانظر: دولة الإسلام في الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، ج 3، 419 - 423
- (55) رسائل ابن حزم، رسالة التلخيص 2/3/176
- (56) وفيات الأعيان 1/169، وانظر: 3/327، 328
- (57) أي عن مذهبه الظاهري
- (58) المغرب 1/355
- (59) البداية والنهاية تحقيق: د/ أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، ط: (3)، 1987م، ج 12/98
- (60) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د/ علي عبد الواحد وافي، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006، ج 3/949، وانظرها من 1374 بهذه الصفحة نفسها
- (61) المغرب 1/355، وانظر: وفيات الأعيان 3/329، 330
- (62) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ضمن رسائل ابن حزم مجلد 1 ج 2/177، 178، وقد عُني في هذه الرسالة بذكر فضائل علماء الأندلس، في مجالات عديدة من فنون العلم، ليثبت أنه لم يقع فيما وقع فيه كثير من أهل الأندلس من جحود لمكانة علمائهم، وفضل أهل الفضل منهم.
- (63) رسالة: مداواة النفوس ضمن رسائل ابن حزم مجلد 1 ج 1/348
- (64) السابق: الموضوع نفسه
- (65) السابق 1/359، وذكر في هذا المقام غدر أحد أصدقائه به بعد اثني عشر عاماً من الصفاء والمودة، ولكنه ينصح - مع ذلك - بالألا يستعمل الإنسان سوء المعاملة حتى لا يلحق بذوي الشرارة من الناس 1/360
- (66) رسائل ابن حزم 1/360

- (67) السابق: رسالة في الرد على الهاتف من بُعد 2 / 3 / 121، 123، 125، وقد ردّ عليه ابن حزم ردًا قويًا يتكافأ مع هذا التهجم الشديد عليه وعلى علمه، وانتمائه النابع من استقلاله الفكري، المتحرر من الانتماء المذهبي.
- (68) بالنيثيا، أنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د/ حسين مؤنس تصوير مكتبة الثقافة الدينية د.ت عن الطبعة الأصلية التي صدرت 1955، ص 216
- (69) انظر: رسائل ابن حزم، رسالة: رد ابن حزم على ابن النغريلة اليهودي مجلد 2 / ج 3 / ص 41 - 70 ومقدمة هذا الجزء من الرسائل 3 / 7 وما بعدها إلى 19
- (70) انظر مثلاً: الفصل 1 / 135، 152، 153
- (71) انظر الآية رقم (8) من سورة الممتحنة.
- (72) انظر: تقديم د/ إحسان عباس لرسالة ابن حزم في الرد على ابن النغريلة مجلد 2، ج 3، 16، 17، ثم انظر: 3 / 57
- (73) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1 / 1 / 350
- (74) السابق 1 / 1 / 338
- (75) الفصل 4 / 178؛ ولعله قال: لا يلتزم ما ينتجه قوله
- (76) انظر مثلاً: الأحكام 4 / 171، 183، 129 / 5، 78 / 7، 79
- (77) انظر: الأحكام 2 / 122، ثم 6 / 117، 118، وانظر: مقدمة د/ إحسان عباس لرسائل ابن حزم 1 / 20
- (78) الأحكام 2 / 120، وانظر: 2 / 128، ومقدمة الأحكام 1 / ز.
- (79) الأحكام 3 / 153
- (80) انظر: الأحكام 4 / 128، 129
- (81) انظر أيضًا: رسالتان له، أجاب فيهما عن رسالتين، سئل فيهما سؤال التعنيف، ضمن رسائل ابن حزم مجلد 2 / جزء 3 / صفحات 74، 80، 81، 82، 83، وما بعدها.
- (82) انظر: طوق الحمامة 1 / 1 / 282، 285، وضمّن هذا في شعره، انظر: 1 / 301 - 306
- (83) السابق 1 / 1 / 272

- (84) السابق 1 / 1 / 273
- (85) الفصل 2 / 113، وانظر: 2 / 116، ورسائل ابن حزم 2 / 3 / 120، 121، 124، 127، ومواطن أخرى كثيرة في كتبه ورسائله
- (86) انظر: التقريب لحد المنطق، ضمن رسائل ابن حزم 2 / 4 / 120، 103
- (87) السابق 2 / 4 / 99، 100
- (88) السابق 2 / 4 / 100
- (89) رسائل ابن حزم 2 / 4 / 101
- (90) رسائل ابن حزم 2 / 4 / 319
- (91) انظر: رسائل ابن حزم، رسالة مداواة النفوس 1 / 353 - 355
- (92) السابق 1 / 1 / 346
- (93) لكن ابن حزم يعترف بأن فيه عيوبًا أخرى ومن هذه العيوب: الإفراط في الغضب، والدعابة الغالبة، ومحبة الشهرة وتُعد الصيت، وإفراط في الأنفة ومنها سوء الظن، بل منها كما يقول: وحقد مفرط قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره" لكنه لم يقدر على التخلص منه تمامًا، إلخ انظر: رسائل ابن حزم، رسالة مداواة النفوس 1 / 1 / 353 - 355 لكن هناك فرقًا بين طبيعة هذه العيوب التي نفاها عن نفسه وهذه التي أقر بوجوده فيه، ومع ذلك جاهدتها حتى تغلب عليها.
- (94) رسائل ابن حزم: التقريب لحد المنطق 2 / 4 / 341، ويمكن أن نقرأ: يروض.
- (95) رسائل ابن حزم، مداواة النفوس 1 / 1 / 354. وانظر لقول ابن عباس رضي الله عنهما: قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي، طبعة الحلبي 1961 ج 1 / 326 وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر: إدارة الطباعة المنيرية وينسب فيه قول مقارب لمجاهد تلميذ ابن عباس - وينسب مثل هذا القول أيضًا للإمام مالك بن أنس: 2 / 91 وانظر: البداية والنهاية لابن كثير، طبع بيروت بعناية د/ أحمد ملحم وآخرون 14 / 145
- (96) رسائل ابن حزم، التقريب 2 / 4 / 337، 338.
- (97) يقول ابن حزم: إن هذا الصنف من الناس قليل جدًا؛ بل لا يوجد في الموجودات شيء أقل منه. انظر: رسائل ابن حزم: التقريب لحد المنطق 2 / 4 / 343.

- (98) قارن ابن خلدون في حديثه عن ضرورة عناية المؤرخين فيما يذكرونه من الوقائع التاريخية بعلم كفيات الوقائع وطبائع العمران وأحواله التي ترجع إليها الأخبار. انظر: المقدمة، طبعة وافي، مرجع سابق 1/ 282، 283، 285، 320، 325 إلخ.
- (99) رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4، 343، 344.
- (100) الإحكام 1/ 20 ثم 1/ 25
- (101) رسائل ابن حزم، رسالة التبيان عن حقيقة الإيمان 2/ 3، 198، 199.
- (102) رسائل ابن حزم، التقريب لحد المنطق 2/ 4، 306، وانظر: 320، 321
- (103) انظر: السابق 2/ 4، 325، 326
- (104) السابق 2/ 4، 326
- (105) السابق: 2/ 4، 340، 341، ويلاحظ أنه دعا إلى الإنصاف - في هذا النص وحده - ثلاث مرات.
- (106) انظر: رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4، 338
- (107) السابق، التقريب 2/ 336
- (108) رسائل ابن حزم، التقريب 2/ 4، 338
- (109) الإحكام 1/ 20، 21
- (110) الإحكام 1/ 74
- (111) الإحكام 5/ 128
- (112) انظر: رسائل ابن حزم، رسالتان 2/ 3، 97
- (113) الإحكام 1/ 76
- (114) رسالة مراتب العلوم، ضمن رسائل ابن حزم 2/ 4، 83، 84
- (115) رسالة مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1، 401
- (116) السابق 1/ 383
- (117) انظر: السابق 1/ 383
- (118) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 1/ 1، 380
- (119) السابق 1/ 1، 386

- (120) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 402 / 1 / 1
- (121) انظر مثلاً: السابق 403، 402، 381 / 1 / 1
- (122) السابق 399 / 1 / 1
- (123) انظر: الإحكام 4 / 1
- (124) مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم، انظر 357 / 1 / 1، وقد أمر الله تعالى عباده بذلك في الكتاب الكريم في مثل قوله - عز وجل - " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" - الآية (المائدة: 8) وانظر الآية (2) من السورة نفسها
- (125) السابق 165، 164 / 1 / 1
- (126) انظر: التقريب، ضمن الرسائل 341 / 4 / 2
- (127) النظر: مداواة النفوس 399 / 1 / 1
- (128) انظر: السابق 339 / 1 / 1
- (129) انظر: السابق 339، 338 / 1 / 1
- (130) انظر: مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 360 / 1 / 1
- (131) السابق 367، 364، 362 / 1 / 1
- (132) السابق 365، 364 / 1 / 1
- (133) السابق 365 / 1 / 1
- (134) طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم 256 / 1 / 1
- (135) السابق 256 / 1 / 1
- (136) السابق 210 / 1 / 1 وانظر: 211، 212
- (137) انظر: مداواة النفوس، ضمن رسائل ابن حزم 354 / 1 / 1، والنص من 355
- (138) انظر نصاً مهماً في هذا الشأن ذكره في طوق الحمامة 310، 309 / 1 / 1
- (139) طوق الحمامة، ضمن رسائل ابن حزم 310 / 1 / 1

## عبقريّة التّأليف العلمي عند العرب

مقالة في ضوء القمر لابن الهيثم أنموذجًا

### Arab's Genius in scientific Writing

“An Article in the Moonlight ‘*Maqālah fī daw’ al-qamr*” by Ibn al-Haytham as a Model

أحمد فؤاد باشا \*

[afbasha@gmail.com](mailto:afbasha@gmail.com)

#### المُلخَص

يعتبر الحسن بن الهيثم رائدًا في التّأليف بلغة عربية علمية ذات خصائص مميزة من أسلوب، ومصطلحات، ورموز، ورسوم توضيحية، وغيرها. وقد عرض رسالته " مقالة في ضوء القمر " بلغة عربية فصيحة، سهلة الألفاظ، ومحددة المصطلحات، وواضحة المعاني والدلالات، الأمر الذي جعل من أسلوبه اللغوي، ومنهجه العلمي في وضع المصطلحات واستعمالها وإشاعتها، أنموذجًا راقيا للمستوى الرفيع الذي وصل إليه التّأليف العلمي والتقني باللغة العربية في عصر الازدهار الإسلامي.

فهو عندما يستخدم - مثلا - تعبير "تفوذ الضوء في الأجسام المشقّة"، يتكئ في ذلك على المعنى اللغوي في الاشتقاق: قد شَفَّ عليه ثوبه يشفُّ شُفُوفاً وشفيفًا، أي رقَّ حتى يرى ما خلفه، وشفَّ الشيء: لم يحجب ما وراءه. يقول ابن

\* نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق، وأستاذ الفيزياء وتاريخ العلوم.

الهيثم في كتابه " المناظر": " إن الهواء جسم مشفٌ شديد الشفيف، إلا أنه ليس  
ففي غاية الشفيف، بل فيه غلظ يسير"  
ونلاحظ أن جميع المصطلحات العلمية التي استخدمها ابن الهيثم ففي  
"مقالة ففي ضوء القمر" اشتقاقية، أو مجازية، أو تراكيب ومتلازمات تعبير، دون  
أن يلجأ إلى التعريب.

### الكلمات المفتاحية:

ابن الهيثم، العبقرية، التأليف.

## **Abstract**

Al-Hassan Ibn al-Haytham is considered a pioneer in writing in a scientific Arabic language with distinctive characteristics such as style, terminology, symbols, illustrations, etc. He presented his message "An Article in the Moonlight" in a standard Arabic with easy to words, defined terms and clear meanings and connotations. This made his linguistic style as well as his scientific method in the development, use and dissemination of terms, a classy model for the high level achieved by the scientific and technical authorship in Arabic in the era of Islamic prosperity.

When he uses, for example, the expression of “**the penetration of light on transparent bodies**”, he depends on the linguistic meaning in the following derivation: one says, “شَفَّ عَلَيْهِ ثَوْبُهُ يَشْفُ شُفُوفًا وَشَفِيفًا” “His garment was thin”; this means that his garment (or piece of cloth) was thin, fine, or delicate upon him so that what was behind it was visible. In his book “Book of Optics ‘*al-Manāzir*’”, Ibn Al-Haytham says: “The air is a very transparent and translucent body. However, it is not extremely transparent; rather it has a slight thickening.” We note that all the scientific terms used by Ibn Al-Haytham in “An Article in the Moonlight” are etymological or figurative, or structures and conjunctions of expression, without resorting to Arabization.

## **Keywords:**

**Ibn al-Haytham, the genius, authorship.**

بسم الله الرحمن الرحيم  
 في بيان ما يظهر من سطحيه وتقبل الضوء  
 في جميع جهاته مبادئ لجميع الاجرام المنصبة السامية ولذلك اعتقد المحصلون من  
 اهل النظر ان جرمه غير منصف وان ضوءه الذي يظهر فانه ضوءه يحسبه من الشمس  
 انهم وجدوا كل جزء من سطحيه يحيط به ابراهم عند نهاية السطح الظاهر من جرمه  
 من دائرة يكون حدتها على جهة الشمس يكون العرض موضع عنه مساحة انفس  
 جرم الشمس وجدوا كلما قرب من الشمس تصاعدها ذلك الجزر وجدوه اذا كان  
 وقد عمل النور جميع سطحيه الظاهر يكون سطحيه الغير المتكسفة متقابل للجرم الشمس  
 ويكون المتلاعن حقيقة المقابلة وجدوه في وقت كسوفه يكون ابد في متابلة  
 الشمس يكون في حقيقة المقابلة ويكون جرم الارض متوسط بينه وبين جرم الشمس  
 فاستدلوا بجميع هذه الاعراض على ان ضوءه اياه مستفاد من الشمس وان سطحيه  
 المنصبي هو الذي يكون متقابل للجرم الشمس وان الارض اذا استقرت عنه ضوء الشمس  
 في وقت كسوفه عاد الى جرمه واستقرت ارجح اهل النظر المحصلين على ذلك  
 مع اختلاف مذاهبهم وتفرقت كلتاهم في غير من العلوم لانه ليس يوجد لا احد  
 منهم قول بها فيقول على ان ذلك واجب ضرورة اعلا انه لم يتكلف احد ذلك مما  
 نظروا او علمت من العلم او كان عندهم مبرهنا لكن لم يفتة اليها براهنتهم  
 وبما فهم البرهان ان ذلك واجب فانه ليس يتقبل وجهها غير ذلك الوجه كان ذلك  
 امكانا او اجبا ضرورة او كان مطلوبنا لا يتقنا ولم يوجد ايضا من المتقدمين  
 لمحض القول في كيفية ضوءه الجرم بعد قوله ذلك الضوء من الشمس اما اصحاب التعاليم  
 فان المنطوق من رايهم ان جرم القمر لا ضوءه وان ضوءه المشرق على الارض انما هو شعاع  
 الشمس المشرق عليه انعكس من سطحيه الى الارض وانه جرم القمر كروي كثير  
 سقيل اذا قابلته الشمس واستنى شعاعها الى سطحيه انعكس عنه وامتنعت ما صادف  
 جسما كشيئا اشرف عليه كما يعرض في المرايا وجميع الاجسام الصقيلة من افكاس  
 الشعاع وان اللون الغير الذي يعبر للقمر عنده بعده من الشمس انما هو عرض الشمس  
 عليه لكن ليس حفة لاحد منهم كلام محقق في هذا المعنى لافي قوله المنور ولا في انعكاس  
 الضوء فاستغراب اصحاب التعاليم من الفاترين في ما يتبعه الاجرام العلوية  
 فانهم يعتقدون ان القمر يقبل الضوء من الشمس ويوجد ذلك في كلامهم ولكن من لا  
 لا يبرهنوا ولا يوجد لهم قول في كيفية ضوءه المشرق على الارض هذا ما حستنا

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة (ن)

ثم يعكس منها إلى كل نقطة يصح أن يعكس إليها ضوء من ذلك الجسم وهذه خواص الأجسام  
المضيئة، وأما إذا يشرق الضوء بالنعوذ وهو أن يشرق عليها ضوء من أجسام  
أخر مضيئة وينتقل إليها إلى كل نقطة يصح أن ينفذ إليها ضوء من ذلك الجسم وهذه خواص  
الأجسام المشعة، فلما ثبتت لنا خواص جميع الأجسام المضيئة غير خواص ضوء  
القمر في حدنا كل نقطة من سطحه المضي يشرق منها ضوء على كل نقطة بقابلها ويستيق  
بما بعد الطريق إلى اعتبار هذه المعنى، ومجد ما جرت القصر مع هذه الخصال كما جرت جميع  
الناسر يكون كل جزء منه مضي إلى الأجزاء الشمس وذلك أن السطح الذي يليها من  
القمر مقابل لظلم الشمس وجدنا النضوء قد شمل جميع سطحه الظاهر وإذا تجرت الأرض  
بينه وبين الشمس انكسرت ضوءه فوجدنا الماء على الصفة الأولى وهو أن كل نقطة من  
سطحه المضي يشرق منها ضوء على كل نقطة بقابلها دعانا إلى أن نظن أن جرم القمر مضي  
مؤاته لأن هذه الخاصة هي خاصة الأجسام المضيئة من ذواتها، ووجودنا الماء  
على الصفة الثانية وهو أن جزء المضي يبدأ الموجة الشمس وإذا تجرت الأرض بينه  
وبين الشمس انكسرت ضوءه دعانا إلى أن نظن أن ضوءه مستفاد من الشمس وإن جرمه  
غير مضي من ذاته فمن أجل ذلك وجب أن يروى في نظره على ما يمكن أن يكون جرم القمر  
مضيًا من ذاته مع انتقال الضوء في سطحه واختلاف ما يظهر من مقدار المضي من  
جرمه وكونه بدأ ما يملك إلى جبهة الشمس وانكساره عند مقابلة الشمس لئلا يكون ضوءه  
لا محالة يكتسب من الشمس وإن كانت كل نقطة من سطحه الظاهر المضي يشرق منها  
ضوء على كل نقطة بقابلها وإن كان ضوءه مستفاد من الشمس فعلى أي وجه يشرق  
ضوءه على الأرض على طريق الانعكاس كما يجوز في الأجسام المضيئة وكما يظن من  
اعتقاد أصحاب التعاليم فيه لم على طريق النعوذ كما يجوز في الأجسام المشعة لم  
على صفة تالفة مخالفة لها بين المضيئين اللتين هما صفتا جميع الأجسام المضيئة  
للضوء التي يتبين أنها غير مضيئة من ذواتها، فنظن في كبرية ما يظهر لنا من  
الأجسام المضيئة من ذواتها فوجدنا كما ما يظهر لنا منها أنما هو بالمكن من ابصارنا  
وبينه ساتر يحجب عن ابصارنا ويوجدنا لكل جسم مضي من ذاته إذا تجرت بين  
ابصارنا وبينه جسم كثيف أخفاء عنا وإذا كان الجازر يسررنا بعض الجسم المضي  
احترقنا ذلك البعض ونظن لنا الباقي منه أنه موجودنا أيضا بالاستقرار كما يصح  
نستزجدهما لئلا ويسر بعضه إذا كنا لا بعدد المسافة جازر عن ابصارنا جميعا كما يتبين  
الموجود ولم يتمر أحد من الآخر وجوده ① أيضا كل جسم إذا لم يكن شكله كرويا وكان

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة (ن)

• ترجمة ابن الهيثم:

صدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال "اليونسكو" في العام الدولي للضوء وتقنياته 2015م بمرور ألف سنة على تأليف الحسن بن الهيثم لكتابه "المناظر" الذي أسس به علم "البصريّات الهندسيّة والفيزيائيّة"، وأفاد منه كلُّ من جاء بعده من العلماء والباحثين في هذا المجال.

وفي ترجمته للحسن بن الهيثم ذكر أحد المحقّقين (أحمد فؤاد باشا) في المقدمة أنه وُلد في البصرة في حوالي عام 354هـ/965م، استنادًا إلى كلام ابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" (تحقيق ودراسة: د. عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م):

"... ونقلت من خط ابن الهيثم في مقالة له في ما صنعه من علوم الأوائل إلى آخر سنة سبع عشرة وأربعمائة لهجرة النبيّ - صلى الله عليه وسلم - الواقع في شهور سنة ثلاث وستين الهلالية من عمره، ما هذا نصّه".  
أما وفاته، فيقول يوسف القفطي في كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" (دار الآثار، بيروت، بدون تاريخ للنشر) إنها في حدود عام 430 هـ / 1039م، في القاهرة، ثم يزيد القفطي بعد ذلك:  
"ورأيت بخطه جزءًا في الهندسة كتبه في سنة 432 هـ / (1040-1041م)، وهو عندي والله المنة".

وهذا يجعلنا نرجح أكثر أنّ وفاة ابن الهيثم وقعت بُعيد هذا التاريخ؛ أي حوالي سنة 433 هـ / 1042 م، وهو ما نرتاح إليه وسجلناه على غلاف هذا الكتاب.

وفي ما يتعلق بنسبة "مقالة في ضوء القمر" لأبي علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، فإنّ هذا هو الاسم الأرجح، لوروده في كثير من كتب ومقالات ورسائل ابن الهيثم نفسه، فجملة ما ذكره ابن الهيثم بنفسه من مؤلفاته، طبقاً لما نقله عنه ابن أبي أصيبعة (ت 668 هـ)، حتى عام 419 هـ / 1029 م بلغ اثنين وتسعين عملاً. ويضيف ابن أبي أصيبعة، نقلاً عن ابن الهيثم:

"وذلك سوى رسائل ومصنفات عدة حصلت لي في أيدي جماعة من الناس بالبصرة والأهواز، ضاعت دساتيرها، وقطع الشغل بأمر الدنيا وعوارض الأسفار عن نسخها. وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء. وإن أطل الله لي في مدة الحياة، وفسح في العمر، شرحتُ وصنفتُ ولخصتُ من العلوم أشياء كثيرة تتردد في نفسي، ويحثني على إخراجها فكري، والله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وبيده مقاليد كل شيء، وهو المبدئ والمعيد."

مما يعني أن يكون بعض النسخ حوّروا اسم الحسن بن الحسن بن الهيثم - خطأً أو عمدًا إلى الحسن بن الحسين، أو إلى الحسين بن الحسن، أي بزيادة حرف الياء على اسمه أو اسم أبيه. وذكرت بعض المصادر، مثل كتاب "عيون الأنبياء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، أن اسمه هو أبو علي محمد بن الحسن، وهو خطأ؛ لأنّ محمدًا لا يكنى بأبي علي، بل يكنى بذلك من كان

اسمه "الحسن"، لكن الدكتور رشدي راشد - أطال الله عمره - في تقديمه للطبعة الجديدة من كتاب "الحسن بن الهيثم: بحوثه وكشوفه البصرية" للأستاذ مصطفى نظيف، رجح أن يكون الحسن بن الحسن بن الهيثم ومحمد بن الحسن بن الهيثم شخصين مختلفين، وليسا شخصًا واحدًا، إلا أن دلالته على ذلك لا تبدو كافية للاقتناع، والأمر بحاجة إلى المزيد من الدراسة والتحقيق.

ولم نجد أحدًا ممن ترجموا لابن الهيثم عرض لنشأته الأولى بالبصرة، والظاهر من اسمه أنه من أصل عربي؛ واسم جده الأعلى "الهيثم" ليس من الأسماء التي تداولها الأعاجم في الإسلام. والهيثم هو فرخ النسر. وإذا كان ابن الهيثم بصريّ المولد، فقد انتقل إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره، ولا غرو أن يلقيه صاعد الأندلسي في كتابه "طبقات الأمم" بابن الهيثم المصري.

وقد علمت مؤخرًا، بالاتصال الشخصي، من الأستاذ الفاضل الدكتور محمد حمزة الحداد، أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية وعميد كلية الآثار جامعة القاهرة (2015م) أنه تعرّف مما ورد في كتب المزارات على قبر الحسن بن الهيثم في حوش حديث بالقرافة الصغرى بجوار قبر الصحابي الجليل عقبة بن عامر، جنوبي قبة الإمام الشافعي بمصر القديمة، راجع في ذلك:

- "الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى" لابن الزيات (ت 814 هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة 1907م.

- "تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات" لأبي الحسن علي بن نور الدين السخاوي الحنفي (ت 902 هـ)،

نشر: حسن قاسم ومحمود ربيع، القاهرة، 1936م؛ والطبعة الثانية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1986م.

وقد رأيت أن أسجل هذه المعلومة المهمة، عسى أن تكون دافعاً وحافزاً للمعنيين بقضايا الآثار والسياحة والتعليم والثقافة وتحقيق التراث على أن ينفصوا الغبار عن قبر الحسن بن الهيثم، الذي ظلّ مجهولاً طوال ما يقرب من ألف عام حتى كاد يطويه النسيان، ويردد بعضهم قول الشاعر:

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مَرَارًا ضاحك من تزاحم الأضداد.

### • مكانة ابن الهيثم في تاريخ العلم والحضارة:

عندما أطلق اسم ابن الهيثم على فوهة تقع في الجانب الشرقي المرئي للقمر من الأرض، عند خط عرض  $15.9^{\circ}$  شمالاً وخط طول  $71.9^{\circ}$  شرقاً، في حين أطلق اسم ألبرت أينشتين على فوهة أخرى تقع في الجانب الغربي عند خط عرض  $16.3^{\circ}$  شمالاً وخط طول  $88.7^{\circ}$  غرباً، كان في هذا إشارة ذكية إلى الموطن الأصلي لأشهر عالمين في الشرق والغرب.

وإذا راجعنا تاريخ العلم في الألفية الثانية، وعقدنا مقارنة بين الثورة العلميّة لنموذج ابن الهيثم في وضع الأساس التجريبي للفيزياء في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وبين نموذج أينشتين الذي أسهم في تأسيس الفيزياء الحديثة مع بدايات القرن العشرين، فإننا نجد أن "معجزة الضوء" كانت الموضوع المحوري لأبحاث كل من العالمين.

وفي عام 2006م ظهر كتاب بعنوان "ابن الهيثم العالم الأول" من تأليف "برادلي ستيفنز" Bradley Steffens، وفيه يترجم لابن الهيثم باعتباره أول عالم وفيلسوف علم حقيقي في تاريخ الحضارة الإنسانية؛ لأنه أسس وطبق المنهج التجريبي الاستقرائي الذي يُعَوَّل عليه في الاستدلال على الحقائق العلمية، واستخلاص أي نتائج مرجعية.

وقد عُرف الحسن بن الهيثم في الغرب، منذ العصور الوسطى، باسم "الهازن" Al Hazen - تحريف "الحسن" - بفضل أعماله في الرياضيات والفلك والأرصاد والبصريّات والإلهيّات والهندسة، وقد سبق أن نشرنا دراسة تحليلية وافية عن حياته ومآثره العلميّة، مع قائمة بمؤلفاته ومكان الموجود منها، في المرجعين التاليين:

- 1- الحسن بن الهيثم ومآثره العلمية، د. أحمد فؤاد باشا، كتاب المجلة العربية، المملكة العربيّة السعوديّة، الرياض، 1436 هـ / 2014م.
- 2- رسائل المكان والضوء وأضواء الكواكب، تأليف: الحسن بن الهيثم، تحقيق ودراسة: د. أحمد فؤاد باشا، سلسلة "تراثنا العلمي" (2)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1435هـ/2014م.

### • تحقيق "مقالة في ضوء القمر":

وردت هذه المقالة في "فهرست" ابن أبي أصيبعة، وفي ثبت ابن القفطي ضمن قائمة مؤلفاته في الفلك والأرصاد. والمخطوطة المعروفة لهذه المقالة موجودة بمكتبة "إنديا أوفيس" (India Office) بلندن تحت رقم 734 فرعية 9

وفرعية 15. وقد اعتمدنا في تحقيق المقالة على نسخة مطبوعة في الهند في حيدر آباد الدكن سنة 1357 هـ ضمن مجموعة رسائل لابن الهيثم، وعلى صورة المخطوطة المحفوظة في مكتبة لندن التي أفادتنا في استكمال الصفحات الناقصة في آخر النسخة المطبوعة، كذلك استخدم برنامج الرسم الهندسي "الأوتوكاد" لضبط رسم جميع الأشكال الهندسية وتصويبها لكي توافق النص الأصلي للمقالة بأكبر قدر ممكن من الدقة.

ومن الجدير بالذكر أن الطبيب الشهير في مدينة القاهرة "ابن رضوان" المعاصر لابن الهيثم كان قد نسخ هذه المقالة، وهذه النسخة أنهيت في يوم الجمعة من منتصف شعبان 422 هـ الموافق 7 من أغسطس 1031م، مما يعني أن الأوساط الثقافية المصرية في ذلك الزمن كانت متابعة لمؤلفات ابن الهيثم.

وقد حرص المحققان على تذييل الكتاب بملخص باللغة الإنجليزية تعميمًا للفائدة.

### • محتويات "مقالة في ضوء القمر":

ينطلق ابن الهيثم في دراسته لضوء القمر، ماهيته وأشكاله وأعراضه، مُفندًا أقوال السابقين [أي نظرياتهم] فيقول:

"إن جرم القمر في تغير أحواله، واختلاف أشكال ما يظهر مضيئًا من سطحه، وتنقل الضوء في جميع جهاته، مباين لجميع الأجرام المضيئة السماوية. ولذلك اعتقد المحصلون من أهل النظر أن جرمه غير مضيء

[بذاته]، وأن الضوء الذي يظهر إنما هو ضوء يكتسبه من الشمس. وذلك أنهم وجدوا كل جزء من سطحه يحيط به أبداً عند نهاية السطح الظاهر من جرمه قوس من دائرة تكون حُدبها تلي جهة الشمس، ويكون أعرض موضع منه مساوياً لنفس جرم الشمس ... ووجوده إذا كان ممتلئاً [أي بَدراً]، وقد شمل النور جميع سطحه الظاهر، يكون سطحه النير المنعكس مقابلاً لجرم الشمس، ويكون مائلاً عن حقيقة المقابلة [أي ليس في خط واحد مع الشمس والأرض]. ووجوده وقت كسوفه يكون أبداً في مقابلة الشمس، ويكون في حقيقة المقابلة [أي في خط واحد مع الشمس والأرض]، ويكون جرم الأرض متوسطاً بينه وبين جرم الشمس".

وعلى الرغم من إجماع السابقين على أن ضوء القمر إنما هو مستفاد من الشمس، وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلاً لجرم الشمس، وأن الأرض إذا سترت عنه ضوء الشمس في وقت كسوفه عاد إلى جوهره [أي طبيعته المعتمة]، إلا أن ابن الهيثم لم يجد لأحد منهم "قولاً برهانياً" [أي نظرية علمية] تدل على أن ذلك واجب ضرورة؛ إما لأنه لم يتكلف أحد لذلك برهاناً، أو لعله من العلل، أو كان عندهم براهين لم تصلنا. ويجد العالم الفيلسوف مبرراً للاستدراك على السابقين بقوله:

"وما لم يقدّم البرهان على أن ذلك واجب، وأنه ليس يحتمل وجهاً غير ذلك الوجه، كان رأيهم ذلك إكتمالاً [احتمالياً]، لا واجباً ضرورياً، وكان مظنوناً لا متيقناً".

من ناحية أخرى، لم يجد ابن الهيثم من المتقدمين [من] لخص القول في كيفية ضوء هذا الجرم بعد قبوله ذلك الضوء من الشمس، ولم يحفظ لأحد منهم كلام محقق في هذا المعنى، لا في قوله الضوء، ولا في انعكاس الضوء عنه. وبهذا يصل ابن الهيثم إلى تحديد "إشكالية البحث" بقوله:

"ولما كان ذلك كذلك، ولم نجد كلاماً شافياً يفصح عن حقيقة كيفية ضوء هذا الجرم، وكانت النفوس تتوق إلى الوقوف على ماهيات الأمور الموجودة، ولا تسكن إلا عند اليقين الذي تسقط معه الظنون، دعنا هذه الحال إلى البحث عن كيفية ضوء هذا الجرم، واستقصاء النظر فيه، وكشف ما هو ملتبس من أمره، فجعلنا ابتداء نظرننا تفقد [أي استقراء] أعراض جميع الأجرام المضيئة، واعتبار [أي ملاحظة واختبار] أحوالها".

ويواصل فيلسوف العلم العربي شرح خطوات منهجه التجريبي الاستقرائي في البحث العلمي بقوله:

"فلما تصقحنا [أي استقرأنا] كيفية الأجرام المضيئة [أي جميع النيرات من كواكب ونجوم وشمس وقمر]، وميزنا خواصها، وجدنا كل جسم يشرق منه ضوء على جسم آخر إنما يكون على أحد وجوه ثلاثة:

إمّا أن يشرق من كل نقطة منه على كل نقطة تقابلها [على جسم آخر]؛ وهذه خواص الأجسام المضيئة من ذواتها.

وإما أن يشرق الضوء عنها بالانعكاس، وهو أن يشرق عليها ضوء من أجسام أخرى مضيئة، ثم ينعكس عنها إلى كل نقطة يصح أن ينعكس إليها ضوء من ذلك الجسم؛ وهذه خواص الأجسام الصقيلة..

وإما أن يشرق الضوء عنها بالنفوذ، وهو أن يشرق عليها ضوء من أجسام أخر مضيئة، وينفذ فيها إلى كل نقطة يصح أن يُنفذ إليها ضوء من ذلك الجسم؛ وهذه خواص الأجسام المشقة [التي تسمح كثافتها الضوئية Optical density بنفاذ الضوء خلالها حسب درجة شفيفها].

فلما تميّزت لنا خواص جميع الأجسام المضيئة، ميّزنا خواص ضوء القمر، فوجدنا كل نقطة على سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها [على الأرض].

ويصم ابن الهيثم تجربة لاعتبار هذا المعنى، أي اختباره والتأكد من صحته بالبرهان التجريبي، باستخدام آلة على شكل "ذات الشعبتين" التي ذكرها بطليموس لرصد ارتفاع القمر، وجاء وصفها في كتاب "تحرير المجسطي" لنصير الدين الطوسي [ص 53 من مخطوط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة]، ويصل إلى نتيجة مهمة عبّر عنها بقوله:

"تُبّت من بعد البرهان أن جرّم القمر إذا أشرقت عليه الشمس صار في تلك الحال مضيئاً من ذاته، وصار الضوء الذي يخرج منه وينبسط على الأرض هو ضوء جرمه في ذلك الوقت، وصار اللون النير الذي يرى له إنما هو لون جرّمه في تلك الحال..."

... إن ضوء القمر المشرق على الأرض ليس هو ضوء الشمس ينعكس على سطحه إلى الأرض".

وبهذا يقدم ابن الهيثم نظرية غير مسبوقة ولا ملحوقة يصف فيها كيفية ضوء القمر وتغير أشكاله بعد قبوله ذلك الضوء من الشمس، ويزيد التجربة إيضاحاً برسوم هندسية للضوء الذي يخرج من الشمس إلى القمر، ومن القمر إلى الأرض، في جميع حالاته. ويعمم نظريته على الأجرام السماوية جميعها بافتراض ما أسماه بالأضواء الأولية والأضواء الثانوية [أي الثانوية]، ولا شك أن هذه النظرية تحظى بأهمية تاريخية ومعرفية في مجال الفيزياء الفلكية.

### • عبقرية التأليف العلمي بالعربية

يعتبر الحسن بن الهيثم رائداً في التأليف بلغة عربية علمية ذات خصائص مميزة من أسلوب، ومصطلحات، ورموز، ورسوم توضيحية، وغيرها. وقد عرض رسالته "مقالة في ضوء القمر" بلغة عربية فصيحة، سهلة الألفاظ، ومحددة المصطلحات، وواضحة المعاني والدلالات، الأمر الذي جعل من أسلوبه اللغوي، ومنهجه العلمي في وضع المصطلحات واستعمالها وإشاعتها، أنموذجاً راقياً للمستوى الرفيع الذي وصل إليه التأليف العلمي والتقني باللغة العربية في عصر الازدهار الإسلامي.

فهو عندما يستخدم - مثلاً - تعبير "نفوذ الضوء في الأجسام المشقة"، يتكئ في ذلك على المعنى اللغوي في الاشتقاق: قد شفت عليه ثوبه يشف شفوفاً وشفيفاً، أي رق حتى يرى ما خلفه، وشف الشيء: لم يحجب ما وراءه. يقول

ابن الهيثم في كتابه "المناظر": "إنَّ الهواء جسم مشفٌ شديد الشفيف، إلا أنه ليس في غاية الشفيف، بل فيه غلظ يسير".

ونلاحظ أنَّ جميع المصطلحات العلميَّة التي استخدمها ابن الهيثم في "مقالة في ضوء القمر" اشتقاقية، أو مجازية، أو تراكيبي ومتلازمات تعبير، دون أن يلجأ إلى التعريب.

ويحرص ابن الهيثم في أسلوبه العلمي السهل الممتنع على أن يجذب انتباه القراء والمتعلِّمين بحرفية المعلم الماهر، ونلاحظ من خلال ذلك دقة بناء التراكيبي وهندستها، واستمرارها طولاً حتى يتم المعنى المراد منها، شأن كل معلم يستطرد في شرح أفكاره، وكثيراً ما يستخدم التراكيبي السالبة أولاً، ثم يأتي بالتراكيبي التي تدلُّ على المفهوم الموجب، وكأنه كأستاذ معلم يريد لتلاميذه وقرائه أن يهتدوا إلى المراد بأنفسهم.

وكمثال لهندسة تركيب الفكرة وتفكيكها عند ابن الهيثم، حيث تلد الجملة الجملة وتترتب عليها، نجد روعة أدائه اللغوي في النص التالي المقتبس من رسالة "مقالة في ضوء القمر":

"وإذ قد ثبتت هذه المعاني فلنشرع الآن في البحث عن كيفية إشراق ضوء هذا الجرم [أى القمر] على الأرض، ولنرتب أولاً الطريق التي بها تُعتبر خاصته التي بها يستدل على كيفية إشراقه، فنقول:

إنَّه قد تبين عند أصحاب التعاليم [أى العلوم الرياضياتية] أن كل ضوء يشرق من جسم مضيء على جسم مشفٍ فإنه يمتد في الجسم المشفٍ عن

سموت خطوط مستقيمة، ما لم يصادف جسمًا مخالف القوام للجسم المشف الذي هو فيه، فإذا صادف جسمًا آخر مشفًا مخالف الشفيف للجسم الأول فإنه ينعطف انعطافًا مخصوصًا عند الفصل المشترك بين الجسمين المشفّين [أي السطح البيني الفاصل بين وسطين مختلفين في درجة الشفيف]، ويمتد أيضًا على خطوط مستقيمة [وهذا هو نص القانون الأول لانعطف الضوء المنسوب إلى إسحاق نيوتن].

وإن كل ضوء ينعكس عن جسم صقيل فإنه ينعكس على زوايا متساوية، تكون بين الخطوط التي تخرج عليها الأضواء، وبين العمود الخارج من نقطة الانعكاس على السطح المستوي المماس للسطح الذي يقع عنه الانعكاس [وهذا هو نص القانون الأول لانعطف (انكسار) الضوء].

ويتكرر مثل هذا الأسلوب الرائع الذي يميز لغة ابن الهيثم، دون أن تشغله خبرته في "الهندسة التركيبية" للأفكار العلمية عن دقته في أداء المعنى الذي يريده، بصرف النظر عن أن يكون ما عبّر عنه صحيحًا من الوجهة العلمية المعاصرة، فالمهم أنه قال كلامًا مفهومًا لكل من يقرؤه في عصره، أو في عصرنا؛ لأنه مبني على المعلومات المتاحة له، بعيدًا عن أساليب البلاغة التقليدية في العلوم الأدبية. وهو وإن كان قد استخدم أحيانًا بعض التعبيرات التي يبدو فيها ملمح المجاز، مثل: كيفية إشراق الجزم، وهو جسم صقيل، سموت خطوط مستقيمة، نقطة الانعكاس... إلى آخره، فإن ذلك لم يكن إلا لهدف تعليمي وتنقيفي يراد منه الفهم والإفهام.



## نحو إستراتيجية للعمل في التراث العربي المخطوط

### Towards a strategy for working in the Arabic manuscript heritage

كمال عرفات نبهان \*

[Kamal.mohamed.arafat@gmail.com](mailto:Kamal.mohamed.arafat@gmail.com)

#### الملخص

التفكير في إنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث هو تفكير يقع في قمة مراحل التخطيط، وأعتقد أنه لا بد أن تسبقه إستراتيجية شاملة للعمل في التراث والمخطوطات على وجه الخصوص؛ من أجل إنقاذ ذاكرة هذه الأمة من الضياع، ومن أجل الاستفادة منه حاضراً ومستقبلاً.

إنَّ الجهود الفردية في تحقيق المخطوطات أو فهرستها أو تصويرها.. سواء قام بها أفراد أو مؤسسات، هي جهود نبيلة ومشكورة، ولكن هذا التراث الضخم من المخطوطات، والذي يُقدَّر بعدة ملايين من المجلدات لا تكفيه هذه الجهود المتفرقة رغم عظمتها، بل يحتاج إلى توجُّهٍ وعمل جماعي، يحكمه مخطط إستراتيجي يحدد الأبعاد والأدوار والمراحل والأولويات، ويجمع بين حركة المبدعين من الأفراد والمؤسسات في أداء متكامل، ونامٍ، ومتطور.

وأتمنى أن نخلق بهذه الإستراتيجية ما يمكن أن نُطلق عليه "المستقبل التراثي" -إن صح التعبير- فيجمع بين عطاء الماضي ورؤى المستقبل، وهذه

---

\* أستاذ علم المعلومات والمكتبات وعميد المكتبات الجامعية بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

الإستراتيجية هي التي ترسم خطة هذه الأمة في تعاملها الصحيح مع ثراثها من المخطوطات وغيرها، وتجدد أملها في إنقاذ ذاكرتها الحضارية من الضياع. فالمهم أن يكون الحاضر والمستقبل متكاملًا ومتناغمًا مع التراث القديم في منظومة فكرية وحضارية تبرز أروع ما أنجزته الحضارة العربية وما قدمته وسوف تقدمه بسخاءٍ وتعاطفٍ مع الحضارة الإنسانية.

**الكلمات المفتاحية:** إستراتيجيات، التراث، التراث العربي.

### **Abstract**

Thinking about establishing an Arab network for heritage information lies at the top of the planning stages. I think that it must be preceded by a comprehensive strategy to work on heritage and manuscripts in particular, in order to save the memory of this nation from being lost, and in order to benefit from it now and in the future.

Individual efforts to investigate, prepare index for, or depict manuscripts are noble and commendable efforts whether they are undertaken by individuals or institutions.

However, this huge heritage of manuscripts, which is estimated at several millions of volumes, is not sufficient for these sporadic efforts despite their greatness. Rather, it needs a collective direction and action, governed by a strategic plan that defines the dimensions, roles, stages and priorities, and combines the movement of creative individuals and institutions in an integrated, growing and developed performance.

With this strategy, I hope that we will create what we can call the “heritage future”, if we will, which combines the giving of the past and future visions. This strategy is what draws the plan of this nation in its correct dealing with its heritage of manuscripts, among others, and renews its hope to save its civilizational memory from being lost.

What is important is that the present and the future be integrated and harmonious with the ancient heritage in an intellectual and civilized system that highlights the most wonderful achievements of Arab civilization and what it has provided and will offer generously and sympathetically with human civilization.

**Keywords: Strategies, heritage, Arab heritage.**

يحتاج العمل في أي مجال له أبعاد واسعة في البعد الإنساني أو الزمني أو المكاني أو في كل هذه الأبعاد مجتمعة إلى التفكير الاستراتيجي، الذي يمكن من خلاله التخطيط للسيطرة والتعامل والإنجاز الصحيح الذي يتناول كل أبعاد المجال أو الظاهرة التي يتناولها العمل، وينطبق ذلك تمامًا على مجال التراث العربي المخطوط بأبعاده الإنسانية، والزمانية، والجغرافية، والعلمية.

وإن التفكير في إنشاء شبكة عربية لمعلومات التراث هو تفكير يقع في قمة مراحل التخطيط، وأعتقد أنه لا بد أن تسبقه إستراتيجية شاملة للعمل في التراث والمخطوطات على وجه الخصوص، من أجل إنقاذ ذاكرة هذه الأمة من الضياع، ومن أجل الاستفادة مه حاضراً ومستقبلاً..

إن الجهود الفردية في تحقيق المخطوطات أو فهرستها أو تصويرها.. سواء قام بها أفراد أو مؤسسات، هي جهود نبيلة ومشكورة، ولكن هذا التراث الضخم من المخطوطات، والذي يُقدَّر بعدة ملايين من المجلدات، لا تكفيه هذه الجهود المتفرقة رغم عظمتها، بل يحتاج إلى توجُّه وعمل جماعي، يحكمه مخطط إستراتيجي يحدد الأبعاد والأدوار والمراحل والأولويات، ويجمع بين حركة المبدعين من الأفراد والمؤسسات في أداء متكامل، ونامٍ، ومتطور.

وإنني أتمنى أن نخلق بهذه الإستراتيجية ما يمكن أن نطلق عليه "المستقبل التراثي" - إذا صح التعبير - الذي يجمع بين عطاء الماضي ورؤى المستقبل، وهذه الإستراتيجية هي التي ترسم خطة هذه الأمة في تعاملها الصحيح

مع تراثها من المخطوطات وغيرها، وتجدد أملها في إنقاذ ذاكرتها الحضارية من الضياع.

ومن أجل الوصول إلى إستراتيجية، أقترح هنا بعض العناصر البذرية التي أرى لها أولوية.. ومنها على سبيل الإيجاز:

1- اجتماع كل المؤسسات المهمة بالتراث والمخطوطات الإسلامية، في مؤتمر أو لقاء؛ للاتفاق على مخطط مبدئي للتعاون والتخطيط فيما بينها، واستشارة كل ذوي الاختصاص.

2- إنشاء "اتحاد عالمي لمؤسسات حماية التراث"؛ لكي نخلق مجتمعاً علمياً بحثياً متواصلاً للمحققين وعلماء التراث، للتعاون والتشاور، من أجل هدفهم العلمي الجليل.

ومن المنطقي أن ينشأ في البداية اتحاد عربي لمؤسسات حماية التراث، تلتقي فيه المؤسسات العربية أولاً ثم تبدأ خطوات تشكيل الاتحاد العالمي لمؤسسات حماية التراث، حتى تتكامل جهود المؤسسات العاملة في التراث خارج العالم العربي في الشرق والغرب، في الجامعات والمعاهد والمكتبات والمؤسسات، ولا يبعد عن أنظارنا دور الاتحادات الإقليمية والعالمية في مجالات كثيرة مثل المكتبات والطب وغيرها، وما أدته هذه الاتحادات من أدوار هامة وحيوية في خدمة مجالاتها، وتحقيق التكامل بين الطاقات الفكرية والمادية، لإنجاز أعمال تعجز المؤسسات عن إنجازها فرادى.

3- إنشاء بنك للأفكار والمقترحات والمشروعات التراثية، وتكون وظيفة هذا

البنك كما يلي:

أ- تلقي كل الأفكار التي تدور من أذهان العلماء والباحثين في مجال المخطوطات والتراث ومجالات العلم عمومًا فيما ينعكس على التراث، والتي يرغب أصحاب الأفكار في تنفيذها سواء بأنفسهم أو بطرحها للتنفيذ اليوم أو غدًا.

ب- يهتم هذا البنك بإجراء استبيان لجمع آراء العلماء والمتخصصين وتوصياتهم حول ما ينبغي تحقيقه من المخطوطات؛ للخروج بقائمة مبدئية تحدد الأولويات في تحقيق المخطوطات في كل مجال من مجالات المعرفة على حدة، واقتراح من يقوم به إذا كان ذلك متاحًا في حينه، أو تحديد مواصفات وإمكانيات من ينبغي أن يقوم به مستقبلاً.

ج- كما يهتم هذا البنك بتحديد الحالات العاجلة لإنقاذ المخطوطات في شتى بقاع العالم، وخصوصًا في المناطق الفقيرة والمنعزلة، سواء للمجموعات الخاصة للأفراد والعائلات أو للمجموعات المملوكة للمؤسسات الرسمية.

د- يوفر هذا البنك كل الاستشارات المطلوبة لصيانة وترميم المخطوطات والمواد التراثية.

ومثل هذا البنك سوف يمثل مرجعية خصبة وركيزة محورية للباحثين والعلماء والمحققين والدارسين، يستطيعون البداية منه، وينبغي أن تكون له الصفة الدولية؛ حتى لا يعزل في إطار البيروقراطية أو العزلة أو النزعة

الإقليمية الضيقة، كما ينبغي أن يكون في مكان يسهل الاتصال به والوصول إليه، ولا يقف على أبوابه حرس متوجس يتصور أنه يمنع الشياطين من دخول الجنة، كما يحدث في حدود عالمنا العربي في كثير من الأحيان.

كما أن هذا البنك سوف يمثّل -في حالة إنشائه- مشروعاً حضارياً، ولعل من أروع الأمثلة على هذا المشروع الحضاري ما نجده متمثلاً في عملٍ ببلجيوجرافي ظهر خلال القرن الثالث الهجري في عصر النهضة العربي، حينما ألف حنين بن إسحاق عمله التاريخي الرائع، وعنوانه: "رسالة إلى علي بن يحيى فيما تُرجم من كتب جالينوس - بعلمه - وما لم يُترجم" والذي نُشر في كتابٍ يحتوي على النصّ الأصليّ لرسالة حنين مع دراسة وتحليل قام به كاتب هذا المقال، ونُشر في مركز تحقيق التُّراث بجامعة مِصرَ للعلوم والتكنولوجيا (بمدينة 6 أكتوبر - مصر )، وذلك في عام 2021م، ولنا أن نتصوّر دور قائمة ببلجيوجرافية صغيرة مثل هذه بالنسبة لحضارة كانت ناشئة ومبدعة في حينها، وهي الحضارة العربيّة، وهي تتطلّع إلى ترجمة كتب الطّب التي ألفها الطبيب اليوناني جالينوس (توفي حوالي 190م في القرن الثاني الميلادي) باللُغة اليونانيّة، وكان من المهم أن يهتمّ حنين بن إسحاق (توفي 260 هـ)، بتوضيح ما تُرجم من مؤلفات جالينوس من اليونانيّة إلى السريانيّة والعربيّة أو كليهما، وما لم يُترجم حتى عصره، وما عثّر عليه حنين من مخطوطات جالينوس بالكامل، أو بصورة جزئية مفككة وما لم يعثر عليه حتى عصره، بعد جهودٍ عظيمة قام بها حنين للبحث عن المخطوطات اليونانيّة في الطّب والفلسفة وغيرهما في

عواصم تاريخية كثيرة، مثل: الإسكندرية ودمشق وفلسطين وغيرها، وكان حين  
يجيد اليونانية إجادة تامّة، ويستطيع تمييز مؤلفات جالينوس الحقيقية والمزيفة،  
كما كان يجيد العربية والسريانية.

أليس في ذلك أروع مثال على الوعي الحضاري في بداية نهضة  
وحضارة عربية استوعبت علم السابقين ثم هضمته وأضافت إليه وتجاوزته  
بالإبداع والنقد والتصحيح، ثم أخذته عنها الحضارة الأوروبية في عصر النهضة  
الغربي واعترفت الحضارة الغربية بهذا الجميل للحضارة الإسلامية في أحيان  
قليلة وأنكرت ما استطاعت إنكاره جرياً على عادة البشر من الإنكار أو النسيان  
أو الإساءة إلى صاحب الإحسان.

و- كما أنّ من أهم ما يمكن أن يقوم به بنك الأفكار المقترح، تسجيل بدايات  
الأعمال البليوجرافية والتحقيقية في التراث، لضمان متابعة استكمالها حتى ولو  
استمرت أجيالاً بالمحافظة على الفكرة، حتى لا تستمر ظاهرة "البدايات  
المقطوعة" والمشروعات التي تبدأ، ثم تتوقف، ثم تنسى وتموت فكرتها، ثم ننسى  
أن نتذكرها ثم ننسى أننا نسيناها.

4- ومن المهم أن نتصور أن هناك مجموعة من الناس يجمع بينهم الاهتمام  
بالتراث من جانب أو آخر من جوانبه العلمية أو الوعائية أو غيرها، وهم مجتمع  
المعلومات التراثية أو مجتمع المخطوطات .. وينبثق عن هذا التصور المنطقي،  
أن نطالب بإعداد دليل كامل ومتجدد بأسماء العلماء والمؤسسات المهمة  
بالتراث؛ لتسهيل الاتصال في مجتمع المخطوطات، سواء لتقسيم الأدوار أو

تحقيق التكامل في العمل أو تبادل الرأي أو التعليم والتعلم .. فقد لاحظت أن هناك علماء وباحثين يعملون في صمت وفي مناطق معزولة أو نائية سواء جغرافياً أو اجتماعياً أو نفسياً.. سواء من العرب أو المسلمين أو من دول العالم، وكثير من هؤلاء يعمل في المخطوطات العربية الإسلامية من مداخل جديدة مثل دراستها وتحليلها فزيائياً وكوديكولوجياً وفنياً.. إلخ.

ولا بد أن نعطي الظاهرة وجهها الاجتماعي إلى جانب التفكير في وجهها التكنولوجي والشبكي؛ لأن ظاهرة التخلف في مجال حفظ التراث هي ظاهرة اجتماعية في الأساس، بكل ما يعنيه التخلف الاجتماعي من أبعاد وانعكاسات، على السياسات التنظيمية والتمويلية في هذا المجال، كما أن هذا التخلف لن تعوضه التكنولوجيا بكل تقدماتها، طالما كانت الظاهرة الاجتماعية متخلفة!!

5- إنشاء معاهد دائمة، وبرامج مستمرة في الجامعات والمؤسسات التراثية، لتدريس مناهج تحقيق التراث، مع ما تحتاج إليه من علوم مساعدة كالبليوجرافيا والكتابة العربية وعلم النصوص وعلم المخطوط والتاريخ وسوسولوجيا المعرفة الإسلامية وغيرها؛ وذلك لنقل فنون التحقيق ومناهجه من جيل الأساتذة إلى أجيال جديدة من المحققين، فهم أقوى سلاح للاستمرار والإبداع والتقدم.

إن ما أعنيه هو خلق الظروف لتلمذة حقيقيّة من الطلاب على شيوخ التحقيق وعلمائهم، في ملازمة وتعلم وتدريب ومشاركة.

6- تشجيع كل أستاذ محقق على تسجيل تجربته الخاصة وحكايته مع كل مخطوط، وسرد المشكلات والحلول التي وصل إليها، ولو في كراسة صغيرة،

فهذه خبرات لن نعوضها، وكل منها نموذج فريد وتاريخي، ولا يكفي أن نعرف أنهم تعبوا، فإن معرفة الماء لا تطفئ العطش. ولقد عرفت من هؤلاء العلماء من كرس حياته لتحقيق معظم مخطوطات مؤلف واحد، فكيف وكم تكون تجربته لو كان سجلها قبل أن يودعنا إلى رحاب ربه. ولا بد أن ننظر إلى علمائنا باعتبار كل منهم مدرسة وطريقة ومنهجًا، وباجتماع هذه المدارس والمناهج يكتمل لدينا تيار حضاري وعلمي وعملي للتعامل مع المخطوطات والتراث؛ ليتحقق فيه تراكم المعرفة وتفاعلها وتطورها.

7- إعداد أجيال من الببليوجرافيين في مجال النصوص والمخطوطات العربية والإسلامية، وهناك في الحضارة الإسلامية علوم وقضايا في الببليوجرافيا النصية والمعلومات تحتاج إلى درجة عالية من التخصص والوعي بأسرار اللغة العربية، وينبغي أن يتحمل العلماء العرب أساسًا أكبر قدر من المسؤولية عنها، والباب مفتوح أيضًا لمن يريد أن يسهم من المستشرقين، ولكن ذلك لا يعني أبناء هذه الأمة من مسؤولية البحث والدراسة والتعمق في هذه المجالات.

8- وإلى جانب الببليوجرافيين فلا بد من البدء بإعداد الوعي الشبكي في المجتمعات العربية، سواء بين المسؤولين أو المتخصصين أو المستفيدين، ولا يعني الوعي الشبكي الاقتناع بأهمية شبكات المعلومات فحسب، بل القدرة على إنشاء وتطوير الأدوات الببليوجرافية والتراجمية والقواعد الضرورية لإنشاء هذه الشبكات.

9- إعداد نص نموذجي في تحقيق المخطوطات يجمع خلاصة خبرات المحققين وأصحاب المناهج في التحقيق، ويكون أساساً للدراسة وحقلاً للتطوير. وليس المقصود بهذا النصّ النموذجي أن نخلق إطاراً جامداً يلتزم به المحقق، بل يحتوي على بذور وأسس ينطلق منها سواء وافقها أو خالفها، ولكنها مخالفة العالم المبدع، وليست مخالفة الجاهل المغرور.

10- تأليف معجم موسوعي يضمّ كلّ مصطلحات المخطوط الإسلاميّ، ويجمع شتات المصطلحات والمفاهيم في كتب القدماء والمحدثين، ويغطي مصطلحات الوراقة والبيبلوجرافيا والفهرسة وعلم المخطوط بجوانبه المادية والتاريخية والبيئية، ومناهج تحقيق المخطوطات، ومصطلحات التأليف وعلم النصوص وعلاقات النصوص التي أصبح لها منهج جديد لدراساتها دراسة تكوينية، وأصبح لها نظام لوصف كل العلاقات في إطار عائلة النصّ، قام بإعداده كاتب هذه السطور.

11- ولقد بُذلت جهود مشرّفة من أجل فهرسة المخطوطات، ومن أجل إدماج فهارس المخطوطات في كيان واحد، ولكن لا زالت هناك مشكلة في التشتت المكاني واللغويّ، وفي تشتت البيبلوجرافيات وتعدد أساليب الفهرسة والفهارس بشكل محير.

12- وكما نعلم، فإنّ البيبلوجرافيات هي تمثيلٌ للنصوص ودليل إليها، ولكن تبقى مشكلة إتاحة النصوص نفسها للباحث، ولا بد من العمل على مستوى عالمي لخلق تشريعات متطورة تيسّر تداول المخطوطات وتصويرها في شكل

ورقي أو فيلمي أو على أقراص ضوئية، ولا بد من تغيير التشريعات المتعسفة التي تتسم بالبيروقراطية والمتحفية في معظم البلدان، والتي تسوم الباحث العذاب لكي يصل إلى مخطوطة واحدة.

13- ولقد آن الألوان، في ظل تكنولوجيا المعلومات، لكي تدمج كل الببليوجرافيات القديمة والحديثة للمخطوطات في بنك معلومات لمخطوطات العالم، وهناك جهود سابقة للبناء عليها، وهناك مكتبيون عرب قادرون على ذلك بشيء من التنظيم والمؤازرة.

كما أن تطور تكنولوجيا التصوير والاختزان والاسترجاع يدعونا إلى سرعة إيجاد صور للمخطوطات على أقراص مدمجة (CD ROM) لضمان وجود نسخة منها في مواجهة أي خطر على المخطوطات، وكذلك لضمان الحفاظ على الألوان الموجودة في المخطوطات؛ لأن تصوير الميكروفيلم يضحى بهذه الألوان، ولقد انتهى عصر الميكروفيلم، الذي لم يدخله بعد كثير من بلدنا، ولنكن على وعي بأن يكون الضبط الببليوغرافي وحصر المخطوطات مصاحباً للضبط الوعائي بتصويرها وحفظها ثم إتاحتها للباحثين.

14- كما آن الألوان لإدماج كل التراجم العربية والإسلامية في هذا البنك، واستخراجها من كتب التراجم والببليوجرافيات والتواريخ وبرامج الشيوخ وغيرها، لأن التراجم هي شقيقة الببليوجرافيا وتوأماها.

15- أحذر من تحويل فهارسنا وتراجمنا إلى حروف رومانية، ثم نعود إلى قراءتها بشكل مأساوي، وينبغي دائماً أن يكون الحرف العربي هو الأساس، ثم

يسانده الحرف الروماني مساعدًا على الانتشار، ولكن ليس من الصحيح أن تكون الأسماء العربية والعناوين العربية في بعض فهارسنا بحروف لاتينية بحجة العالمية والانتشار، وسوف يكون العالم أكثر احترامًا لنا إذا حافظنا على رسالتنا الأصلية إليه في الاتصال البليوجرافي.

16- إنشاء صندوق لتمويل ومساعدة الباحثين في المخطوطات في كل البلدان والمساهمة في تخفيف غربة المحقق وعزله وتضحيته من أجل تحقيق المخطوطات، ويحتاج ذلك إلى مؤازرة من عظماء عصرنا الذين يحبون العلم والعلماء، وكذلك مؤازرة الحكومات.

17- الاهتمام باللغة العربية، التي تحمل على كتفيها تراث هذه الأمة، ويكفي أنها تحمل معجزة القرآن.

18- وإلى جانب الجهود الرائعة التي قام بها كثير من المستشرقين في مجال دراسة وتحقيق هذا التراث العظيم، فإن حجم العمل المطلوب لا يزال بالغ الضخامة؛ ولذلك فلا بد أن نؤمن بأنه لن يقيم صلب هذه الأمة إلا أبناءها. وليكن بستان هذه الأمة في صدرها، وليس في أعالي البحار، أو في المتاحف. أي أننا يجب أن ندرس ونفهم ونستوعب، لا أن نحتمي بالجوانب المتحفية والمباهاة بتراثنا.

إن في بلادنا أبطالًا يقاتلون في سبيل تحقيق التراث ويضحون بأعز سنوات العمر، ولكننا يجب أن ندرك ذلك ونحن مشفقون خائفون على كنوزنا أكثر مما نحن مباهون فخورون، وكم يكون رائعًا لو تكاملت جهود علمائنا،

فالمسئولية كبيرة .. والأعمار محدودة .. والوقت يضيع .. فلنعش زمن التدارك  
قبل أن تأتي عصور الندم.

### تكنولوجيا المعلومات في خدمة التراث:

يَجُودُ عصرنا بإمكانيات تكنولوجية هائلة يمكن استغلالها في خدمة  
التراث، ويمكن - في حدود تصورنا الحاضر - أن نذكر الإمكانيات التالية:

1- ميكنة كل فهارس المخطوطات الموجودة حالياً في كل المؤسسات  
العربية والعالمية في فهرس موحد عالمي للمخطوطات التي تمت  
فهرستها.

2- إنجاز فهرسة كل ما يمكن التعرف عليه من المخطوطات حسب نماذج  
متطورة وموحدة لفهرسة المخطوطات آلياً على أن تُعمم هذه النماذج  
بشكل عالمي موحد.

3- إتاحة كل هذه الفهارس الآلية على شبكة الإنترنت.

4- إقامة برامج دراسية أكاديمية في معاهد تنتشر في معظم العواصم  
الحضارية في العالم العربي والأجنبي لدراسة تحقيق وفهرسة وصيانة  
وخدمة المخطوطات.

5- يمكن تطوير تكنولوجيا (التعرف الضوئي على الحروف OCR)؛ لقراءة  
نصوص المخطوطات وإعادة كتابتها، وإذا حدث ذلك سوف يمكن نشر  
وتحقيق عشرات الآلاف من المخطوطات في زمن وجيز وبأقل الجهود.

6- إقامة دورات تدريبية على مستوى عربي وعالمي بشكلٍ مقننٍ ومتواصل لتدريب كوادِر جديدة ومتزايدة لفهرسة المخطوطات.

7- وسوف يتيح الذكاء الصناعي آفاقاً هائلة لخدمة التراث المخطوط ودراسته وتحليله والاستفادة منه بأشكالٍ تكاملية معرفية لا حدود لها.

8- تطبيق نظام البليوجرام (مخطط علاقات النصوص) الذي قام بابتكاره وتقنيته كاتب هذا المقال من أجل إيجاد فهارس جديدة تتيح وصف العلاقات بين كل كتابٍ مخطوطٍ وما يدور حوله ويتعلق به من نصوصٍ أخرى وهو ما نسميه (عائلة النص)؛ حيث توضح العلاقات بين النص وشروجه وتلخيصاته وتهذيباته والاستدراك والتذييل عليه ونظمه والهجوم عليه والدفاع عنه وترجمته، إلى آخر ذلك من علاقات النصوص التي توصل البليوجرام إلى أكثر من سبعين نوعاً منها.

والمهم أن يكون الحاضر والمستقبل متكاملًا ومتناغمًا مع التراث القديم في منظومةٍ فكريةٍ وحضاريةٍ تُبرز أروع ما أنجزته الحضارة العربية وما قدمته وسوف تقدمه بسخاءٍ وتعاطفٍ مع الحضارة الإنسانية.



## الزراعة في التراث العربي

### Agriculture in Arabs heritage

عبد الفتاح غنيمية \*

[mmerna90@gmail.com](mailto:mmerna90@gmail.com)

#### الملخص

لا ينكر فضل العرب على الأمم لما قدموه من علوم مختلفة ساعدت على بناء الحضارة الإنسانية الحالية، وكان علم الزراعة من العلوم التي اهتم العرب بها، وأبدعوا فيها، وأثبت العلم الحديث صحة المعلومات وأهمية النظريات التي ذكرها علماؤهم في مؤلفاتهم، ومن الأمور الجليلة للعرب أنهم أول من قسم الزراعة إلى عدة علوم على الرغم من أن الغرب بدأ العمل بذلك الرأي منذ القرن التاسع عشر وادعاه لنفسه.

وهذا البحث يتناول تاريخ الزراعة عند العرب منذ ما قبل الميلاد، وقبل الإسلام، ثم بعد دخول الإسلام، والعصور المختلفة من صدر الإسلام والأموي والعباسي، ثم الزراعة في الأندلس، وأهم علمائها وطرق ممارستها.

الكلمات المفتاحية: الزراعة؛ التراث؛ العرب.

---

\* أستاذ تاريخ العلوم والتكنولوجيا بجامعة المنوفية، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو اللجنة الوطنية لليونسكو، وعضو المجمع العلمي المصري.

## **Abstract**

The favor of the Arabs over the nations cannot be denied, they've provided various sciences that Contributed to building the current human civilization. The Arabs were experts in the science of agriculture, and modern science has proven the fact of these information and the importance of the theories mentioned by their scholars in their books. Among the great advantages of the Arabs is that they were the first to divide agriculture into several sciences, although the West began to work with that point of view in the nineteenth century and claimed it for themselves.

This research deals with the history of agriculture among the Arabs since BC, before Islam, then after Islam, and the different eras from the beginning of Islam, the Umayyad and Abbasid era, then agriculture in Andalusia, and its most important scholars and practices.

Agriculture appeared more than 8000 years ago and developed in several places in the Arab world, including the Arabian Peninsula, Mesopotamia, the Nile Valley, and the Levant. In the plains of these places and in the dry climate, the Arabs began to exploit the soil to produce agricultural crops.

Civilizational effects indicate that the Arab man was adept at agriculture and the foundations he needed, such as plowing and irrigation tools, so he invented the first plow and the plow that paved the way for the emergence of civilization and civilized development in the Arab world.

**Keywords: Agriculture, Arabs, Heritage.**

لا ينكر فضل العرب على الأمم لما قدموه من علوم مختلفة ساعدت على بناء الحضارة الإنسانية الحالية، وكان علم الزراعة من العلوم التي اهتم العرب بها، وأبدعوا فيها، وأثبت العلم الحديث صحة المعلومات وأهمية النظريات التي ذكرها علماءهم في مؤلفاتهم، ومن الأمور الجليلة للعرب أنهم أول من قسم الزراعة إلى عدة علوم على الرغم من أن الغرب بدأ العمل بذلك الرأي منذ القرن التاسع عشر وادعى لنفسه.

### بدايات الزراعة عند العرب قبل الميلاد:

ظهرت الزراعة قبل ما يزيد على 8000 سنة وتطورت في عدة أماكن من الوطن العربي ومنها شبه الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين، ووادي النيل، وبلاد الشام، ففي سهول هذه الأماكن وفي المناخ الجاف بدأ العرب باستغلال التربة لإنتاج المحاصيل الزراعية.

وتشير الآثار الحضارية إلى أن الإنسان العربي كان بارعاً بالزراعة والأسس التي تحتاج إليها كأدوات الحراثة والإرواء، فاخترع المحراث الأول والمبدر الذين مهدا إلى ظهور المدنية والتطور الحضاري في الوطن العربي، وكان أول من استنبط أفضل سبل الزراعة التي تؤدي إلى زيادة الإنتاج، كما أخذ يحاول فهم الأرض والنبات والمناخ والعمليات التي تؤثر في الإنتاج الزراعي، واستطاع أن يصمم ببراعة حدائق عظيمة كحدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع، ومزارع اليمن التي ذكرها القرآن الكريم.

وقد دلت الأبحاث العلمية والمستندات الأثرية أن الجزيرة العربية منذ عشرة آلاف سنة لم تكن صحراء قاحلة ورمالاً حارقة بل كانت أنهاراً وغابات وبساتين حافلة بالسكان تنعم بمدنية وتجارة عظيمة وزراعة كثيفة وافرة.

وفي بلاد الرافدين أظهرت إحدى الرسوم المنقوشة على الحجر محراثاً مثبتاً خلف عموده، أنبوب ذا فوهة علوية واسعة توضع فيه البذور فيصل قعر الشق الذي يحدثه المحراث في الأرض، وهذا هو الأساس العلمي نفسه للمبذر الحديث.

وتبين في السنوات الأخيرة أن سورية كانت إحدى أهم مواطن نشوء الزراعة قبل نحو 15000 سنة إذ كان في سورية منطقتان على الأقل شهدتا تطور الزراعة وهما وادي الفرات الأوسط وحوض دمشق.

وكانت زراعة النخيل في الجزيرة العربية بيثرب (المدينة المنورة) وفي الواحات والأرض الخصبة لاسيما الفاكهة كالموز والعنب والمشمش والرمان والتين والبطيخ والقمح والذرة، وشاع نبات القات في الصحراء بجوار نباتات الرياحن والياسمين والزعر والزهور الصحراوية، كما نبت الورد في الطائف، ومن نباتات الصحراء الكرات والثوم والبصل والتوابل، وقد عظم سلطان الطبيعة على العربي القديم والتاريخ شاهد بأن العرب كانوا يؤثرون الصحراء على المدن دائماً، فالذين نزحوا منهم إلى العراق والشام ومصر، منذ القرن الثاني الميلادي أو قبله أقاموا بالبادية في الشام والعراق ومصر وعلى حدود الحضر ليست الإقامة به،

كما كان سكن صحاري برقة وطرابلس وتونس والجزائر يقيمون فيها في فصل الأمطار والمراعي، فإذا حل الجذب لجأوا إلى الحضر يترددون منه ثم يعودون إلى الصحراء، وظل ذلك رأيهم يأخذون من خيرات الحضر ويتشبثون بالبادية فهي موطن العزة والكرامة ومن يتحضر فقد العز.

الزراعة قبل الإسلام:

عمال سكان الجزيرة العربية - قبل الإسلام - بدأ ونشاط على توسيع أعمال الري الاصطناعي، فحفروا الآبار في الوديان والواحات وبعض السهول الساحلية لاستثمار مياه الموارد الجوفية القريبة من سطح الأرض، وأقاموا الحواجز في مواضع تجمع مياه الأمطار في الأودية لتوزيع مياهها في أوقات معينة وبالحرص على المزارعين، وأنشأوا السدود ورمموا المتصدع منها، وشقوا أفنية ومجاري خاصة لأخذ مياه الينابيع والآبار والسدود لري الحقول والبساتين، وأقاموا المدرجات على سفوح جبال اليمن لمنع التربة من الانجراف وإبقائها صالحة للزراعة، واستغلوا أرض يثرب ( المدينة المنورة ) ذات التربة البركانية وحولوها إلى واحة طبيعية لزراعة النخيل والشعير، وكان في المدينة شبكة ري واسعة تقوم على استثمار المياه السطحية والجوفية

وقد دعيت اليمن بأرض العرب السعيدة وبالخضراء عند الجغرافيين العرب، وذلك لكثرة مزارعها ونخيلها وأشجارها وثمارها ومراعيها، ويعد سد مأرب العظيم من أهم السدود التي اكتسب شهرة في تاريخ اليمن والجزيرة العربية حتى اليوم، إذ كان يشكل العمود الأساسي لتنظيم الري الاصطناعي ولتطور الزراعة

الكثيفة في شبه الجزيرة العربية، وقد عبّر القرآن الكريم عن ازدهار الزراعة في سبأ اليمن نتيجة لبناء منظومات السدود والأحواض: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥﴾<sup>(1)</sup>، واشتهرت حضرموت وظفار بإنتاج اللبان (البخور)، وانتشرت فيما يعرف اليوم بعمان الزراعة في سهل الباطنة الساحلي، وفي واحات السفوح، وفي بعض الوديان الخصيبة التي تخترق نجد، وكانت الطائف ذات مياه غزيرة وترتبتها خصبة، ومناخها لطيف في فصل الصيف لارتفاعها فوق سطح البحر، واعتمد سكانها على الزراعة البعلية والمروية.

### سد مأرب من المعالم الحضارية:

يؤكد المؤرخون أن هذا السد قد تصدع أكثر من مرة، ففي سنة 115 ق.م، وفي سنة 450 ق.م، وفي سنة 540 ق.م حدثت تصدعات هائلة لذلك السد، والقرآن الكريم يشير إلى أن أهل سبأ بعد التصدع قد فقدوا كيانهم وضاعوا في أرض الله، لكن هل هو التصدع الأخير؟ أم هو تصدع حدث من قبل، ثم تلاه ترميم السد...؟ معظم المؤرخين يشير إلى أن التصدع الذي أشار إليه القرآن ليس هو الأخير... لأن القوم قد رمموه وعالجوه بعد واستأنفوا الحياة.

الهمداني ( 336هـ / 947م) الجغرافي واسع المعرفة في كتابه (صفة جزيرة العرب) الذي نشره في القاهرة محمد عبد الله النجدي، تناول المظاهر الطبيعية في شبه جزيرة العرب وأجناس سكانها وقبائلها وما ضمت من حيوان ومعادن وطرق وأماكن استقرار الناس فيها، كما وصف بلاد اليمن نتيجة

ملاحظاته الشخصية وذلك منذ عشرة قرون يقول: « سبأ كثيرة العجائب، وكان لها جنتان عن يمين السد وشماله، وهما عامرتان وإنما عفتا لما اندحق السد أما مقاسم المياه من مداخل السد فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس » وهو كلام يوحي بعظمة هذا السد، ويدل على ارتقاء القوم في سلم الحضارة... وتمكنهم من السيطرة على مياه الأمطار وإقامة الخزانات... وبسبب هذا كانت أرضهم مخصبة، ولقد أقيم هذا السد كخزان طبيعي يتألف جانبا من جبلين، جعلوا على فم الوادي سداً بينهما... به عيون تغلق وتفتح، واحتجزوا وراء السد كميات ضخمة من المياه وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان هذا مورداً مائياً عظيماً.. ومما يدل على عظمة هذا السد، أن كثيراً من المستشرقين قد زاره وكتب عنه... فالمستشرق الفرنسي " أرنو " يزور سد مأرب سنة 1843م، ويشاهد السد ويرسم له خريطة ويصفه وصفاً يجيء مطابقاً لما يقوله الهمداني، وورد في الجزء الثاني من كتاب ( رحلة إلى بلاد العرب السعيدة ) للأستاذ نزيه العظم آخر من زار سد مأرب ما خلاصته: « على مسافة 145 كم إلى الشرق الشمالي من صنعاء تجتمع سيول اليمن الغربية مع السيل الذي يأتي من الشمال والسيل الذي يأتي من الجنوب، وتؤلف هذه السيول شبه بحيرة كبيرة مستديرة ومرتفعة من جهة الغرب والشمال والجنوب ومنخفضة من جهة الشرق حيث تسير جميعها شرقاً في مجرى سيل واحد» ثم يستطرد في الوصف: « ثم يأخذ في الضيق إلى أن يبلغ نحو 175م في مخرجه بآخر الجبلين بمكان يقال له:

مربط الدم وهو المكان الذي بني فيه سد العرم ولم يبق سيل العرم للسد هنا أثراً غير مخرج الماء.»

هذا خلاصة ما كتبه آخر زائر للسد استطاع أن يحصل على تصريح من إمام اليمين يومذاك سنة 1936م ويظهر أنه ليس ببلاد اليمين أنهار دائمة الجريان ولكن السيول تنزل بها كثيراً... فاضطروا إلى إقامة الخزانات لضبطها والتحكم فيها لحاجتهم إلى ذلك والحاجة أم الاختراع.

وسد مأرب: كما يصفه الهمداني هو أحد سدود اليمين، وتوجد سواه سدود كثيرة، ويصفه بأنه حائط ضخم أقيم في عرض وادي أذنه ويبلغ طوله 800 ذراع وعرضه من أسفل 150 ذراعاً وارتفاعه بضعة عشر ذراعاً، وكان ينتهي من أعلى بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصا، والظاهر أنه بني بالتراب والحجارة، وكانت به منافذ يتسرب منها الماء إلى الجنان والحدائق والحقول عن يمين وشمال - مقللة بعوارض ضخمة من الخشب والحديد لاستخدامها وقت الحاجة، وتقع مدينة مأرب إلى الشمال الشرقي من السد وبينها وبينه متسع من الأرض تبلغ مساحاته ثلاثمائة ميل مربع - كان قفراً قاحلاً فأصبح يعد بناء السد غياضاً بالأشجار الخضراء والبساتين المعبر عنها بالجننتين عن يمين وشمال... لكن من الذي بناه؟

معظم كتب التفسير وعلى رأسها الكشاف تذكر أن البانية هي بلقيس - وكذلك معظم المؤرخين... وقيل حمير وقيل سبأ - والظاهر أن السد لم يتم في

عهد ملك واحد - لأن هناك أسماء كثيرة منقوشة قد اشتركت في بنائه، وهذا معقول لأنه عمل حضاري رائع فلا بد أن تشترك في بنائه أياد كثيرة.

أثبت المستشرق " مولر " Moller بعد ترجمة كتابته أن سمع علي بنوف بن زمر اخترق " بلق " وبنى سداً لتسهيل الري.. ويمكن أن يفسر أنه بنى جانباً منه على ما أثبتته الأستاذ العظيم... ومعظم من اشتركوا في بنائه من ملوك القرن الثامن قبل الميلاد.

واشتهر الأنباط<sup>(2)</sup> بحفرهم الآبار وإقامة بعض السدود الصغيرة على السيول والأنهار وإنشاء الأقنية والنواعير.

### العنب والنخيل في القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَةٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُقْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤ ﴾<sup>(3)</sup> إشارة إلى عدد من الحقائق العلمية في هذه النباتات نوجزها فيما يلي:

﴿ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ ﴾: جاء ذكر العنب في أحد عشر موضعاً من كتاب الله ﷻ، منها موضعان بصيغة الإفراد (عنب وعنباً) وتسعة مواضع بصيغة الجمع (أعناب وأعناباً)، وفي أغلب هذه الحالات جاء ذكر النخل بالإفراد والجمع مع ذكر العنب أو الأعناب.

### أولاً: العنب:

وثمر العنب ثمرة مميزة، فبالإضافة إلى محتواها العالي من المواد السكرية بالنسبة إلى جميع الفواكه الأخرى، فإنها تحتوى على العديد من الفيتامينات من مثل فيتامين (أ، ج) ، وعلى المواد العضوية من مثل البروتينات النباتية، والأحماض والخمائر، وأملاح العديد من العناصر مصب البوتاسيوم، والصوديوم والكالسيوم، والفوسفور، والحديد، وغيرها من المركبات العضوية وغير العضوية التي توجد في ثمرة العنب بنسب متوازنة، مما يجعلها أنسب أنواع الغذاء، ومن أنقى ما يمكن أن يتناوله الإنسان من ثمار.

ولذلك أثبت العنب فعالية ملحوظة في تنقية الدم من السميات، ومن كل الفضلات والرواسب العضوية، وغير العضوية ومن الفيروسات والفطريات والجراثيم المسببة للعديد من الأمراض، وفعالية ملحوظة كذلك في تقوية مناعة الجسم، وفي تجديد بناء خلاياه المتهدمة خاصة إذا تم تناوله وحده على معدة خالية أي بعد صيام يوم كامل، ولفترة تتراوح بين خمسة وسبعة أسابيع متواصلة. وتعزى سرعة تفاعل العنب مع جسم الإنسان إلى امتصاص الجسم له مباشرة دون الحاجة إلى هضمه.

وقد استخدم العنب بنجاح في علاج العديد من الأمراض مثل النقرس، والأمراض الروماتيزمية، والأمراض الناتجة عن الإصابة بدودة البلهارسيا، وفقر الدم، وأمراض الجهاز الهضمي، والإخراجي، والتنفسي، والتهابات الكبد والمثانة، والالتهابات والقرح الداخلية والخارجية، وتقичات الفم واللثة، وتسوس الأسنان،

وأمرض السرطان في حالات كثيرة خاصة في مراحلها الأولية، وقد اكتشف أخيراً أن ثمرة العنب تحتوي على مركب شديد الفعالية في مقاومة أمراض السرطان وغيره من الأمراض المستعصية في مراحلها المختلفة، ويعرف هذا المركب باسم " ريزفيراتول - Resveratrol " وهذا المركب موجود في ثمار 72 نباتاً آخر منها التوت والفول السوداني، وبعض البقول مثل الحمص والفول البلدي والعدس، ولكن بنسب أقل من نسب وجوده في العنب، وقد شهد بذلك كل من " الدكتورة جوهانا براندت " التي شفاها الله ﷺ عن طريق تناولها العنب بعد صراع مع هذا المرض الخبيث - السرطان - استمر لتسع سنوات، ونشرت قصتها في كتاب بعنوان: " قصة الاكتشاف " طبع بمدينة نيويورك سنة 1928 م، وتم نشره عدة مرات بعد ذلك.

كما شفي بعد ذلك السيد " باسيل شاكلتون " بعد صراع مع الفشل الكلوي استمر زهاء الأربعين عاماً، ونشر كتاباً بعنوان " التداوي بالعنب The Grape Cure " ذكر فيه قصته وقصة " الدكتورة جوهانا براندت " وغيرهما من القصص التي تروي فضل العنب في علاج العديد من الأمراض، وقد قام بترجمة الكتاب الأخير الدكتور محمد الشيخ عمر، وقامت بطبعه مؤسسة المدني (68 شارع العباسية بالقاهرة) وتقوم بتوزيعه مجاناً مكتبة الدكتور عبد الرحمن عمر نصيف (في مدينة جدة - بالمملكة العربية السعودية).

وعصير العنب مركزاً ومخففاً يعتبر من المطهرات القوية، وتستخدم محاليله المخففة في تطهير كل من الأذان، والأنف والفم والحنجرة، كما يمكن

استخدامه على هيئة ضمادات في معالجة الجروح والتقيحات الخارجية، وثمره العنب يمكن تجفيفها وتحويلها إلى زبيب دون أن ينقص ذلك من قيمتها الغذائية والعلاجية التي يظل الزبيب محتفظاً بها لفترات طويلة.

هذه الفوائد الجليلة لثمرة العنب وغيرها مما لم يكتشف بعد، ربما كان من وراء ذكر القرآن الكريم له على وجه الخصوص في أحد عشر موضعاً من عشر سور كريمة، ووصف مناطق زراعته بالوصف جنات في أغلب ما ذكر فيه من آيات، وجعله من ثمار الجنة، وإن كانت الجنة غيباً لا يعلمه إلا الله، وكانت سننها وقوانينها وأوصاف الأشياء فيها مغايرة للعالم الدنيوي وما فيها من خلثق، وإن جاء الوصف في "سورة النبأ" من باب تقريب الأمر لأهل الدنيا، ولكنه يبقى تشريفاً لشجرة العنب ولثمرتها الطيبة المباركة.

### ثانياً النخيل:

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾: لفظة زرع هنا تشمل كل أنواع الزروع - النباتات - وذكرها هنا وفي مواضع أخرى كثيرة من القرآن الكريم تبلغ المواضع العشرة - غير أربعة مواضع أخرى جاءت فيها بصيغة الفعل أو الفاعل - جاء ليؤكد أنواع النبات مع التركيز على أنواع خاصة منها كالأعنان والنخيل في الآية التي نحن بصددنا، وكالتين والزيتون والرمان والموز - الطلح - في مواضع أخرى تأكيداً على أهمية خاصة في كل منها تميزها عن بقية الثمار والزروع.

والنخيل من الأشجار دائمة الخضرة، وتتميز بساق طويلة باسقة تنتهي بمجموعة من الأوراق في قمته، وليست لها فروع، وهي لا تسقط أوراقها التي

تستر براعها في قمتها إلا بفعل الإنسان، وثمار النخيل من " بسر " و " رطب"، و" بلح " و " تمر"، تعتبر من الثمار النباتية المتميزة بقيمة غذائية عالية، فالتمر الجاف يحتوي على مواد كربوهيدراتية بما فيها من السكريات بنسب تزيد على 70%، وعلى ماء 13%، وألياف بنسبة 10%، وعلى مواد دهنية بنسب تصل إلى 2,5%، وعلى أملاح معدنية بنسب تصل إلى 1,5%، وعلى فيتامينات ( أ، ب، ج ) وبروتينات وهرمونات ومضادات حيوية بالنسب المتبقية.

ومن هذه الهرمونات ما تتكون من تسعة أحماض أمينية، ويشبه هرمون الأوكستيوسين الذي يلعب أدواراً مهمة في جسم الإنسان ذكراً كان أم أنثى من مثل إيقاف النزيف، وعلى إدرار اللبن والمساعدة على يسر المخاض، وعلى اندمال الرحم وانقباضه بعد الولادة، وعلى ترقيق المشاعر، وتثبيت الفؤاد، وانشراح الصدر، وجلاء الأحزان عند الجنسين، ومنها هرمون الاستروجين الذي له وظائف كثير من أهمها ضبط توازن كل من الدهون والأملاح في الجسم.

### الزراعة في صدر الإسلام والعصر الأموي:

من الأقوال المأثورة التي ذكرها أحد المؤرخين الغربيين عن العرب المسلمين الفاتحين، أنهم يهتمون عند فتح البلاد بشيئين في وقت واحد هما: " بناء المسجد وتسوية الحقل " وقال آخر: " العرب عمال زراعة ورجال براعة، برعوا في سقي الجنان، واخترعوا النواعير العجيبة، بل ووطنوا النباتات والأشجار الأفريقية والآسيوية في الأندلس (إسبانيا) " لذلك فإن كل بلد فتحها العرب

المسلمون اهتم فيها ولاتها بالزراعة والاقتصاد، وليس عجباً أن نرى تزرع أقدم هذه البلاد وتحولها من خراب وفقر إلى حدائق غناء.

وقد حث الرسول ﷺ العرب في طائفة من أحاديثه الكريمة على العناية بالزراعة والغرس، ومن ذلك قوله: " ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة " " من أحيا أرضاً ميتة فهي له، ليس لعرق ظالم حق "، وقد حمل هذا المؤمنون على الاعتناء بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها، فكانت الدولة توجه أكبر عنايتها إلى وسائل الري، فهي التي تنشئ القنوات وتبني السدود، وتعالج ما يحدث من صدوع في مسرى الأنهار، وكانت منطقة الجزيرة في شمال بلاد الشام تعتمد في الري على مياه الأمطار، أما منطقة حران في الجزيرة الفراتية فحفر أهلها بمعونة الدولة بعض الآبار لإرواء مزارعهم، وحين فتح عمرو بن العاص مصر شقت بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب قناة يقرب طولها من مائة وخمسين كيلو متراً، كما بنى مقياساً للنيل بأسوان وبعد ذلك بُنيت مقاييس مختلفة.

وبلغ من عناية النظام الإسلامي بالزراعة أنه في حركة الفتوح على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لم يتعرض للفلاحين بشيء من الضرائب، ووجد عمر في العراق والشام بعد الفتح كثيراً من الأراضي التي جلا عنها أهلها، فبقيت دون مالكين، فعدها "صوافي" تضم إلى بيت المال، وأخذ يقطعها لمن يتعهدا بالزراعة والغراسة، فسميت بالقطائع.

وفي العصر الأموي اهتم خلفاء بني أمية بمسح الأراضي البائرة وبناء القناطر والجسور والسدود وإنشاء طواحين ونواعير الماء، ونشر عدد كبير من المحاصيل الزراعية الجديدة، وخاصة الحمضيات والقطن وقصب السكر والذرة البيضاء وأنواع الحبوب والبقول والأشجار المثمرة والكرمة والفسق والزيتون والنخيل، وبنوا في الريف والبادية قصوراً لهم، أحاطوها بالحدائق والبساتين، وأصدر يزيد بن معاوية أمراً بشق قناة تصل نهر بردى بالأراضي العالية الواقعة شمالي وشرقي مدينة دمشق سميت باسمه، وفي خلافة هشام بن عبد الملك (105-125هـ) اهتمت الدولة بالخراج وإحصاء وارداته بدقة بالغة، وفي مصر قام عبيد الله بن الحجاج بتقدير ما يركبه النيل من عامر وغامر لمساحة الأراضي وتحديد وظائفها، وفي العراق وجه الوالي خالد بن عبد الله القسري (105-120هـ) جل عنايته إلى الزراعة فحفر الأنهار مثل نهر الجامع، وأصلح الجسور، وأقام القناطر مثل قنطرة الكوفة وقنطرة دجلة، وأنشأ السدود لمنع مجلة من الفيضان.

وكان لغوطة دمشق حظ وافر من عناية الأمويين فنزلها رجال منهم، عمروا فيها القصور، وأنشئوا فيها البساتين والجنان، وشقوا فيها الجداول وعنوا باستنباتها واستثمارها، وكان معاوية بن أبي سفيان يقيم أحياناً في الغوطة، وقد تغنى بها الشعراء، وأعجب بها القاصدون إليها حتى قال الخوارزمي (ت 232هـ/846م): "إن جنان الأرض أربع: سعد سمرقند ونهر الأبله، وشعب بوان

وغوطة دمشق"، وقال عن الأخيرة: "كأنها الجنة وقد زخرت وصورت على وجه الأرض".

وقد اشتهرت الغوطة بكثرة مياهها وتنوع أزهارها، وتنسيق بساطينها، قال عنها القزويني (ت 682هـ / 1283م): "وهي كثيرة المياه، نضرة الأشجار، متجاوبة الأطيوار يانعة الأزهار، ملتفة الأغصان، خضرة الجنان، كلها بساطين وقصور تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ومياهها خارجة من تلك الجبال، والغوطة كلها أنهار وأشجار متصلة".

لا أحد ينكر أهمية الماء وأنه عصب الحياة لكل المخلوقات الحية، لذا ورد ذكره في القرآن الكريم في مواضع كثيرة بينها للإنسان لأهميته حتى يحافظ عليه نظيفاً نقياً، كما أنزله الله تعالى، وأن يتصرف فيه بحذر وأن يتجنب تلويثه لأن هناك بلايين المخلوقات تستمد حياتها منه كالأسماك والحيتان والطحالب يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾ (4).

ومعظم المواضع التي ورد فيها ذكر الماء في القرآن الكريم يكون مرتبطاً بالأرض وهي إما ميته وإما خاشعة أو هادمة فينزل الماء فتتهز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، فكأن الماء هنا بمثابة الروح للجسد فيحيا عندما تنفخ فيه الروح ويموت عند مفارقتها له، والله تعالى يريد أن يلفت نظر الإنسان إلى هذا المصدر الحيوي المهم وهو الماء كي نحافظ عليه يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الآناس إن كنننم في ريب من البعث فإننا خلقنكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبأوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿٥﴾<sup>(5)</sup>، ويقول تعالى: في موضع آخر: ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألونه، ثم يهيج فتربته مصفراً ثم يجعله حطماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴿٢١﴾ ﴾<sup>(6)</sup>

### الزراعة في العصر العباسي:

عملت الحكومة العباسية على تحسين زراعة الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات نظراً لخصوبتها، فأمدت شبكة من الترع والمصارف حتى أصبحت أكثر خصباً كانت تعرف: بأرض السواد لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة، وتبلغ مساحتها 36.000.000 جريباً<sup>(7)</sup>.

وقد عمل المنصور على تنظيم وسائل الري بشق الكثير من الجداول والترع لري هذه الأراضي نظراً لأن ماء الفرات لا يكفي، كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذي يأخذ من دجلة، وقناة أخرى من كرخايا الذي يأخذ ماءه من الفرات، ويجري ببغداد نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ ماءه من الفرات أيضاً

ويمر بسطوح فيروز سابور (وقد تعرضنا لشبكة المياه في بغداد في حديثنا عن تأسيس بغداد).

وكل ما يهمنا أن نذكره في هذا المقام هو: أن شبكة الأنهار والقنوات في بغداد ساعدت على أن يقوم الأهالي بغرس النخيل والأشجار وتنسيق البساتين.

ويحضرنا الآن ما ذكره ابن رسته (ت 300هـ / 912م) في (الأعلاق النفسية) تقذف عليهم (يعني أهل بغداد) المياه من كل جانب حتى غرسوا النخيل الذي حمل من البصرة، فصار ببغداد وحدها أكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الأشجار وأثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والجنائن في رياض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها<sup>(8)</sup>.

ولا شك أن كثرة الأنهار ووفرة المياه، أكبر دليل على ارتفاع الأحوال الزراعية والعناية بها من قبل الحكام والرعية. بعض الحاصلات الزراعية:

كانت الحنطة تزرع في كافة أنحاء الدولة العباسية نظراً لوفرة المياه، كذلك قام الأهلون بزراعة الشعير والأرز والنخيل والفاكهة، وكان الأرز فوق فائدته الغذائية يستفاد من قشه الذي كان يصنع منه حصر، وقلنسوات وسلال، وحقائب ومكانس، أما الأذرة فاقترنت زراعته على جنوبي الجزيرة العربية.

كذلك فقد زرعت أشجار البرتقال والليمون في بلاد ما بين النهرين وفارس وكرديستان وفي مزارع البصرة وخورستان وبغداد، وكانت أشجار نخيل البلح يزرعونها ببذور ويروونها بالماء كل يوم، وكانوا يعنون قبل البذر بإضافة بعض الملح إلى الأسمدة وإلى الأرض.

ومن الفواكه التي أدخلت زراعتها في أراضي الدولة العباسية النارج، وقد ذكر المسعودي (ت 346هـ / 957م) أنه جلب من الهند، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام<sup>(9)</sup>، أما شجرة الزيتون زرعت في الأندلس وصقلية وسوريا، وكان الليمون الهندي وقصب السكر منتشراً في مصر وعلى شواطئ بحر قزوين، واشتهرت بلاد الشام بتفاحها الذي أصبح مضرب المثل في الحسن<sup>(10)</sup>، وكان بطيخ مرو يحمل إلى الخفاء في بغداد.

وقد أدخلت زراعة القطن، وهو نبات هندي الأصل إلى العراق وإيران، ثم انتشرت زراعته بعد ذلك في سوريا ومصر، وكان الكتان يزرع في دلتا النيل قديماً، وفي القرن العاشر انتشرت زراعته في خوزستان وجنوبي فارس وشمال بحر قزوين، وكان هذا النبات يتطلب أرضاً رطبة وتربة جيدة، ولا يكاد يصفى حتى يأخذوا في حصاده، وبعد أن يقع في الماء ويجف يستبعد (القش).

وكان الخشخاش ذو الأزهار الحمراء التي كان يستخرج منها الأفيون يبذر أثناء شهور الشتاء ويروى مرتين كل أسبوع حتى الصيف، أما البخور والصبر فكانت شهرتها في الجزيرة العربية معروفة ولم يتوقف السلف عن الاستفادة

بالبخور الذي كان يذكر المرء بأكثر التقاليد قدماً في الشرق، ففي حظيرة بيت لحم قدم الملوك المجوس البخور إلى يسوع الطفل واليوم يحرق البخور في أعياد الكاثوليك.

وبخور فارس كان يستخلص من الورد والبنفسج والياسمين، وذلك بفضل التنسيق المبدع الذي بلغته هذه البلاد في زراعة الأزهار المطعمة.

لقد كانت الأزهار مرغوباً فيها في بلاد الإسلام حتى بين القانعين بالقليل والمهتمين بتحصيل الضروريات فقط، أما الطبقات الغنية فكانت تقوم على رعاية حدائق نضرة حتى في المدن الآهلة بالسكان مثل بغداد، وتحت الشمس المحرقة في الريف، فكانت البيوت الفاخرة خارج المدن تنتشر مترامية وسط أحواض شاسعة من الأزهار.

وجملة القول: إن رجال الشرق كانوا يحبون الأزهار كإكسير للحياة، ولم تكن تربية دودة القز خافية على المزارعين المسلمين، فقد بلغ من إتقانهم لها أن أصبحت علماً حقيقياً، وأصبح إنتاج الحرير وفيراً جداً في فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك أوروبا في العصر الوسيط.

وكان أهالي فلسطين يعنون بتربية الجاموس ويعتمدون في غذائهم على لبنه ولحمه، أما البقر فلم يكن لحمه مستساغاً وقد جلب العرب الجاموس من الهند<sup>(11)</sup>، وقد أنتجت أراضي المسلمين كل أنواع الخضروات بوفرة، عدا البطاطس والطماطم اللتين لم يكن العرب على علم بهما بعد - كالكراث

والكرفس، والبصل والخيار والقرع والبادنجان، ولم يهمل أي شيء فيه مرضاة لفن الطهو.

### شجرة الزيتون The Olive tree

إن شجرة الزيتون *Olea europaea L.* تتبع العائلة الزيتونية *Oleaceae* وهي شجرة دائمة الخضرة، ذات طول من متوسط إلى عال، وهي تحمل أوراقاً جلدية، ذات لون أخضر مائل للون الرمادي، الأوراق مفردة ذات نصل متطاول، ولها عنق قصير، الشجرة قادرة على أن تعيد نموها فوراً إذا قطعت أو حصلت لها أضراراً فوق سطح التربة.

تستطيع شجرة الزيتون أن تعيش لعدة قرون، هناك أقوال تذكر أن بعض أشجار الزيتون الموجودة في مدينة بيت لحم في فلسطين ترجع إلى عهد المسيح عليه السلام، وكذلك يقال بأن بعض أشجار الزيتون الموجودة في مصر ترجع إلى عهد سيدنا موسى عليه السلام، كذلك فإن شجرة الزيتون تستمر في إعطاء ثمار لمدة طويلة، وتتميز شجرة الزيتون بأنها تعطي ثماراً سنة، وتتوقف عن العطاء في السنة التالية، وهذا ما يسمى بتبادل الحمل أو *Alternate bearing*، أو *Biennial cropping*، أو *Year to year fluctuation in yield*، شجرة الزيتون أحادية المسكن *Monoecious* بما يعني أن الأزهار المذكرة والمؤنثة على نبات واحد، وهي تنتج أزهاراً صغيرة خضراء مصفرة، تتواجد في نورات هذه النورات عادة ما تتكشف على فروع ذات عمر سنة واحدة.

يمكن القول بأن شجرة الزيتون قوية ونشيطة، وتتحمل المشاق، وهي غالباً ما تنمو وتنتج إذا زرعت في التلال أو في المناطق الصخرية، والمناطق ذات الرطوبة المنخفضة، وعادة ما تسمى سلطنة الصحراء لأنها من أقدر النباتات على تحمل الجفاف لمدى طويل، فهي تنمو في بطون الأودية، كما أنها تقوم شامخة في قمم الجبال<sup>(12)</sup>، وعلاوة على هذه المميزات التي تتمتع بها شجرة الزيتون، فهي شجرة معمرة لا تبيد ولا تفنى، فكلما تهاوى منها جزء، قام من قاعدتها من الخلفات ما يبني لها هيكلًا جديدًا، يقوم ضخماً قوياً ما دامت الظروف التي تحيط بالمجموع الجذري حسنة ومناسبة.

### الزيتون:

إن الاسم الشائع لكلمة زيتون في اللغات المختلفة لبلدان حوض البحر المتوسط قد اشتق من الكلمة اللاتينية Olea ذات الأصل اليوناني elaiia ومن الكلمة العربية Zaitun زيتون المشتقة من الكلمة العبرية Zait.

إن شجرة الزيتون تلعب دوراً مهماً في حياة شعوب منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، واعتماداً على الوثائق المأخوذة من مناطق عديدة من أماكن زراعة الزيتون خلال العصور القديمة في كل من مصر وفلسطين ولبنان واليونان والإمبراطورية الرومانية، إفريقيا، وتركيا، تبين أن زيت الزيتون والزيتون لهما أهمية كبيرة في حياة شعوب تلك البلدان، وأنهم كانوا يعتمدون على شجرة الزيتون اعتماداً كبيراً في حياتهم الماضية، واعتماداً جزئياً في حياتهم الحاضرة.

ومنذ عدة قرون مضت، فإن زيت الزيتون كان يستعمل في مصابيح الإضاءة، وكان يستعمل في علاج بعض الأمراض الجلدية، وهناك أحاديث نبوية شريفة تدل على القيمة الدوائية لزيت الزيتون، هذا بالإضافة إلى أن أجزاء من أشجار الزيتون كانت تستعمل في طهي الطعام وفي التدفئة، وتعتبر تجارة منتجات شجرة الزيتون من أقدم عمليات التبادل التجاري، ومما يجدر بالذكر أن أولى الألعاب الأولمبية بدأت في اليونان سنة 776 م، وكانت جوائز الفائزين عبارة عن تاج مجدول من أغصان الزيتون، أما الآن فإن أغصان الزيتون تستعمل لتدل على السلام.

### السنة الزراعية:

ذكر " جاك س ريسلر " : « أن السنة الزراعية في الدولة الإسلامية كانت تبدأ في سبتمبر عندما يبدأ الزيتون في النضج، ويبدأ الفلاحون في حصاد الأرز ويشرعون في تطعيم الكرم، وفي أكتوبر يحرثون الأرض، أما نوفمبر فهو الشهر الذي يبذرون فيه الشعير والحنطة والكتان، وما إن تخف البرودة حتى يعدون الأراضي المخصصة لزراعة القطن والكتان، وبعد ذلك يقطعون قصب السكر، وفي الربيع يبذرون الحناء والبادنجان والكتان ويعدون بذور الخضر، ثم ينقطعون إلى تقطير الروائح وماء الورد، وفي نهاية يونيو كانوا يجمعون البرقوق والتين والبطيخ، وفي الخريف كانوا يحصدون الأرز والنيلة على حين كانت تبشر غصون الكروم المذهبة يقطفها (13)».

على أن العباسيين عنوا بحراثة الأرض واستخدموا في ذلك الأبقار، وساعدوا على نشر الآلات الزراعية، ففي كل مكان - تقريباً - وجد المحراث، وكان جميع الفلاحين يعرفون فن إعداد الأرض وحرثها، ويجيدون استخدام المزارع للهيكل البشرية لحراسة أرضه وطرد الطيور عنها<sup>(14)</sup>.  
طحن الحبوب:

كانت الحبوب تطحن في مطاحن مائية وهي: أجهزة تدار بالماء على حافة الأنهار، وهناك طواحين أخرى هوائية لطحن حبوب سكان الشواطئ والقرى المجاورة.

وفي الموصل كانت هناك طاحونة واحدة مثبتة على قاعدة من الخشب وسط نهر دجلة تستطيع طحن طن من الحبوب كل يوم وكانت رحي البطريق في بغداد أكبر رحي، فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف درهم.

وجه خلفاء وولاة العصر العباسي عنايتهم إلى تشجيع الزراعة، فنشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر، وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية، وكانت الدولة تشرف على إدارتها إشرافاً مباشراً، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها، وأنشأت في هذه الأراضي شبكة من القنوات والمصارف حتى أصبحت قوية الخصوبة، تكثر فيها المزارع والبساتين، وكانت تعرف بأرض السواد لكثرة ما عليها من الشجر والزرع والخضرة، كذلك مد المنصور قناة من نهر دجيل وقناة أخرى من كرخايا،

ووصلها بمدينة بغداد في عقود محكمة بالصاروخ ( وهو حجر كلسي )  
والآجر، وفي عهد هارون الرشيد قام وزراؤه بتحقيق رغباته في الإصلاح  
الزراعي، فاحتقر وزيره يحيى نهر القاطول، واستخرج نهراً دعاه أبا الجند، وأمر  
بإجراء القمح على الحرمين، وبمي الحياضات والرباطات، ومن مظاهر اهتمام  
العباسيين بالزراعة كثرة الضياع، فكانت الضياع الخاصة، والضياع العباسية  
والضياع الفراتية والضياع المستحدثة.

وقد اعتمد خلفاء بني العباس في الزراعة وفلاحة البساتين على دراسة  
عملية، بفضل انتشار المدارس الزراعية، فتوسعوا في البحثين النظري والتطبيقي  
ودرسوا أنواع النباتات وصلاحيه التربة لزراعتها، واستعملوا وضع قواعد ثابتة  
لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض.

كما عني العباسيون بتنظيم أساليب الري المباح في مصر والعراق واليمن  
وشمالي شرق فارس وبلاد ما وراء النهر، حتى أن الأوروبيين أدخلوا كثيراً من  
هذه النظم في بلادهم، كما عنت الدولة العباسية بصيانة السدود والقنوات،  
وجعلوا عليها جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين، وقد جعل  
العباسيون لماء الري ديواناً أطلقوا عليه " ديوان الماء " وأقاموا مقاييس على  
الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه للاستئناس بذلك في فرض  
الضرائب، وكذلك كان العباسيون يعنون بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا  
لذلك الأبقار واهتموا بتربية الحيوانات، وخاصة البقر والجاموس الذي جلبوه من  
الهند، وتفرخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام في أبراج لوقايتهم من الأفاعي،

والمحافظة على الثمار وخبزها كما كثرت المحاصيل الزراعية في العصر العباسي، كالقمح والذرة والزيتون والكروم وقصب السكر والأشجار المثمرة والخضر، وجلب بعضها من أماكن مختلفة من العالم، كما أبدع العرب في هذا العصر في إنشاء القصور والحدائق الغناء، والاعتناء بها وسقايتها وزرعها بأنواع شتى من الورود والرياحين، وتنسيقها فنياً وهندساً.

وقد دَوّن العرب كثيراً من المعلومات في المعاجم والكتب اللغوية مما يتصل بالفلاحة والنباتات والحيوانات الداجنة وغير الداجنة بل وحتى الحشرات، يضاف إلى ذلك ما ألف في علم النبات مثل: كتاب "الزرع" لأبي عبيدة معمر بن المثنى وكتاب "النبات" للأصمعي (ت 217هـ / 832م)، وكتاب "الحيوان" للجاحظ (ت 868م)، وكتاب "الفلاحة النبطية" لابن وحشية (عاش في نهاية القرن 12 م) الذي أرسى نهائياً دعائم زراعة العصور القديمة والوسطى.

### نصيب الزراعة في تراث الحضارة الإسلامية:

منذ وصل الإنسان إلى حد المعرفة العقلية ودخل حقبة التاريخ وبدأ يميز بين مناطق الأرض المختلفة، فإنه كان ينتقل من أرض إلى أرض بحثاً عن أنسب الأماكن التي تصلح للزراعة والسكن والإنتاج، وكانت الأنهار والبحار هي التي تثير طمع الإنسان دائماً وتغريه بالتمركز حولها أو بالقرب منها، لما تدره خصوبة التربة ووفرة المياه من خيرات، ولهذا كان الإنسان يهاجر دائماً إلى مناطق الخصوبة والمياه ويشرع في تطوير أسباب الحياة من حوله، مبتدئاً

بالزراعة والتجارة لاستيفاء ما ينقصه من وسائل العيش وتهيئة ظروف الأمن والاستقرار، ثم يتجه تفكيره بعد ذلك إلى تطوير باقي الجوانب الحضارية والارتقاء بها، لذلك كان الاهتمام بالزراعة أمراً طبيعياً وحيوياً في كل الحضارات، واشتهرت بعض الحضارات بزراعات معينة كاشتهار الصينيين بزراعة قصب السكر واستخراج السكر منه، واشتهار الهنود بزراعة القطن، لكن فن الزراعة في العصور القديمة لم يخرج عن نطاق التجربة المحلية والخبرة المكتسبة.

وفي عصر النهضة الإسلامية أصبحت الزراعة علماً له أصوله وقواعده شأنها في ذلك شأن باقي فروع العلم والمعرفة، واعترفت أوروبا بفضل العرب في نقل كثير من النباتات الزراعية المفيدة إلى مصر والأندلس وصقلية، فاقتبس الأوروبيون زراعتها منهم، ويدخل بين أسماء هذه النباتات القطن وقصب السكر والليمون الحلو والحامض والمشمش، والبطيخ وعدد كبير من العقاقير الطبية، ولاشك في أن موارد المياه هي التي كانت تلعب الدور الأساسي في تطور الزراعة وازدهار الصناعات القائمة عليها، لهذا اهتم العلماء بدراسة الموارد المائية خاصة في الدول الإسلامية التي تتميز بشدة الجفاف لوقوعها في أقاليم ذات أمطار غير منتظمة وغير كافية، وانتشر شق القنوات وبناء الخزانات اللازمة للري حتى أن ابن حوقل (ت 366هـ / 976م)<sup>(15)</sup> ذكر في كتابه المسالك والممالك ما رواه بعض المؤلفين من أصحاب الأخبار من أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة وعشرين نهراً، تجري في أكثرها الزواريق، ويقول ابن حوقل: « وكنت أنكر ما ذكره في هذا العدد في أيام

بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع، وربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في جميعها السميريات».

وفي السند وسمرقند وصف ابن حوقل نظام القنوات بقوله: «ثم يتشعب من وادي السند أنهار كثيرة على امتداده تجاه كل مدينة وبلدة ورستاق نهر، وربما كان للقرية الواحدة منها نهران وثلاثة، فلو اطلع على وادي السند من الجبل لرأى خضرة متصلة لا يرى في أضعافها غير قهندز (حسن) أبيض أو قصر سامق مشيد، فأما فرجة منقطعة عن الخضرة أو أرض باثرة أو غامرة فقلما ترى هذه الحال».

وفي شبه الجزيرة العربية ذكر الهمداني (ت 336هـ / 947م) في كتابه "صفة جزيرة العرب" أن مياه المطر يتم جمعها في برك صغيرة وتحدث عن خزان في الصمان فقال: «ثم الصمان ومياهه وهي دخول تحت الأرض مخرقة في جلد الأرض منها ما يكون سبعين بوعاً ومائة بوع تحت الأرض وأقل وأكثر».

وكان في نيسابور قنوات تجري تحت الأرض، وقد ظهرت بعض هذه المجاري على سطح الأرض قرب الحقول بينما كان بعضها الآخر يجري داخل المدينة منساباً خلال القصور، وكانت هناك في سجستان قنوات كثيرة تمد المدينة والحقول بالمياه، وقد أشار المقدسي (ت 387هـ / 997م) إلى أحد مشروعات الري في عهد عضد الدولة حيث تم بناء جدار ضخم على النهر

الواقع بين شيراز واصطخر لرفع المياه في خزان يتم منه ري القرى، وكان طبيعياً أن تشتهر الأرض الإسلامية بمختلف المحاصيل الزراعية فزرع القمح في خوزستان والمغرب وفارس ومصر والشام وشبه الجزيرة العربية، وزرع القطن والكتان في مصر والمغرب والديلم، وانتشرت أنواع التمور بين منتجات شبه الجزيرة العربية ومصر والعراق وفارس وكرمان، ويذكر ابن الفقيه (ت 340 هـ / 951م) في " مختصر كتاب البلدان " أن العنب أكثر الفواكه المزروعة ويدل على ذلك بقوله: لو أن رجلاً خرج من بيته مسافراً في عنقوان وحادثة سنة واستقرأ البلدان يتتبع الكروم مصرًا حتى يهرم لتعرف أجناسه وإحاطة العلم بأنواعه بل إقليمياً واحداً وناحية من أقطار الأرض لأعوزه وغلبه وعزه وبهره إذ كان كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا يدرك".

وفيما يتعلق بفواكه أخرى مثل التفاح والموز وأبي فروة والرمان واللوز والزبيب والتين فيقول ابن حوقل إنها كانت تنتج بكميات وفيرة في ولايات الشام وفارس والجزيرة وولايات أخرى كثيرة، أما الزيتون الجيد فكان يأتي من بلاد الشام، ويذكر المقدسي أن مركز زراعة قصب السكر كان خوزستان وجنديسابور والجزيرة، وبالقرب من البصرة التي كانت أكثر المراكز شهرة من حيث إنتاج السكر في العراق، كذلك ذكر ابن حوقل أن مصر وكرمان وخوزستان كانت من مناطق إنتاج قصب السكر، وتكلم لسان اليمين أبو الحسن الهمداني عن حلويات اليمين كأحسن أصناف الحلويات، وعلى أساس نهضة زراعية قامت بعض الصناعات المهمة مثل صناعة المنسوجات من القطن والكتان وكانت مراكزها

الرئيسية في البصرة ودمياط والري وخراسان، ومثل صناعة الورق في ما وراء النهر ومصر وفلسطين والشام، ومثل صناعة العطور من الورد والزعفران في فارس والعراق والهند وكذلك صناعة الأدوية والعقاقير.

ولقد نشطت حركة التبادل التجاري للسلع والمصنوعات بين عواصم العالم الإسلامي نشاطاً كبيراً، وكانت الموانئ العربية المعروفة للتجارة هي عدن وعمان وسيراف وجدة والبصرة، وكانت عدن مركزاً تجارياً مهماً بين إفريقيا وشبه الجزيرة العربية، كما أنها كانت نقطة الاتصال بالصين حتى أن المقدسي أطلق عليها اسم "بوابة الصين" وذكر في كتابه "أحسن التقاسيم" أن اليمن يخرج منه إلى عمان آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقر والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والزجاج والفلفل وغيرها.

وفيما يختص بأنواع النباتات وخواصها وفوائدها فقد كتب عنه كثيراً في المؤلفات الطبية والصيدلانية والنباتية، أما فيما يتعلق بالزراعة من حيث هي علم وضع العرب أصوله وقوانينه وألفوا فيه المصنفات القيمة فإننا سنحاول إيضاح سبق العرب وتفوقهم في هذا المضمار من خلال الكتابين الآتيين:

(1) كتاب ( الفلاحة النبطية ) لأبي بكر أحمد بن وحشية في القرن التاسع للميلاد، ويوضح المؤلف غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله في مقدمته أنه يكتبه بقصد صلاح الأرض وإصلاح الزروع والشجر والثمار وعلاج آفاتها، ويقع

الكتاب في ستمائة وعشر ورقات قسمها المؤلف إلى أبواب عديدة في ذكر خواص الزيتون واستنباط المياه وكيفية حفر الآبار والاحتيايل في زيادة ماء البئر، وصفة اطلاق الماء من عمق بعيد وتغير طعم المياه واختلاف طبائعها وأفعالها، وصفة إفلاح التلقيح وزرعه وغرسه، وبعد ذلك ينتقل المؤلف لدراسة مختلف أنواع النبات وكيفية زرعها وريها وتسميدها، ثم يفسح مجالاً واسعاً لكيفية عمل البيادر وخزن الحنطة وأوقات الزرع ومعرفة الأهوية، ويسهب في الحديث عن حبوب الحنطة والشليم والذرة والأرز والباقلء والعدس والحمص واللوبيا والترمس والقطن والكتان والسهم والسيبان والخشخاش والبصل والثوم والفجل الشامي البري والجزر والسلق والخيار والخس والحماض والنعنع والزعفران والخردل والجرجير والكرفس والكوسة والكزبرة والحلبة والكرنب الخراساني والقرفة والقنبيط والبادنجان والكروم والرمان وجوز الهند واللوز والبندق والفسق وغيرها، ثم يفصل باباً خاصاً لذوات النوى من الثمار مثل المشمش والخوخ والأعناب والنبق والقرصيا، ويتحدث أيضاً عن التين والجميز والكمثرى والسفرجل والتفاح والتوت والصنوبر والقسطل والمر والحناء والملوخية وغيرها، ويختم ابن وحشية كتابه بأنه وجد فيه أجل المنافع وأكثر الفوائد بذكر إفلاح الموات وتدبيراتها، وصرف المهالك عن الشجر والنخل والكرم ومقدار الطاقة مع الذكر للمنافع والمضار من الأغلال وصروف الأدوية من أبدان الناس، أما البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المعينة على الفلاحة فقد أفرد لها كتاباً، أفرد فيه باباً خاصاً للحمام

والطيور والكرابي، وكتاب ( الفلاحة النبطية ) لابن وحشية هو أول ما كتب باللغة العربية عن الزراعة واعتمد عليه الكثير ممن كتبوا في هذا العلم بعد ذلك. (2) . كتاب ( الفلاحة الأندلسية ) لأبي زكريا محمد بن العوام الأشبيلي ( عاش في نهاية القرن 12 ) أشهر من كتب في هذا العلم وقد ترجم كتابه في القرن الماضي إلى الإسبانية والفرنسية وقال عنه " أنطون باسي " في تقرير قدمه سنة 1859م إلى الجمعية الوطنية الزراعية الفرنسية أنه موسوعة زراعية تامة تفرد بها القرن الثاني عشر الميلادي، ويقع كتاب الفلاحة لابن العوام الأشبيلي في أربعة وثلاثين فصلاً تبحث الفصول الثلاثون الأولى منها في الفلاحة بينما تبحث الفصول الأربعة الأخيرة في تربية الماشية، وأكد المؤلف أنه لم يثبت في كتابه إلا ما جربه مراراً فصح، كما ذكر المراجع والمصادر التي استقى منها.

وتناول ابن العوام الأشبيلي في كتابه معرفة نوع الأرض، فالسواد دليل الحرارة كذلك الحمرة، إلا أن حرارة الحمرة أقل من السوداء، ثم يتلوه الصفرة، ويقول إن أنت مارست الطين بيديك فأصبته شبيها بالشمع يلصق شديداً فاعلم أنها أرض غير موافقة للبقول، وأجود الأرض البنفسجية ثم شديدة الغبرة لأن فيها تخلخلا (مسامية) وطعم ترابها عذب (خالية من الأملاح).

ويعتمد ابن العوام الأشبيلي على التجربة مهما كانت بدائية ويهتم بدور الدراسة المقارنة فيذكر لمعرفة نوع الأرض أنه قام بحفر ثلاث حفر بعمق نصف ذراع وجمع التراب في أنية من الخزف بعناية شديدة ثم أخذ من أرض متخلخلة غير ملتزة ووضع في الحفائر فإن بقي شيء كانت ملتزة.

ويتحدث ابن العوام عن أنواع الأسمدة البلدية وكيفية استعمال الأربال في الشجر والخضر وعن أنواع المياه المستعملة في سقي الأشجار والخضر، ويستدل على قرب الماء بأنواع النبات وطعمه وبلون وجه الأرض، ويصف ابن العوام عملية تذكر الأشجار ويتحدث عن الأشجار المتحابة والمتنافرة ويوصي في غرس البساتين بالألا يكون غرس الأشجار غرساً مختلطاً بل ينبغي أن تكون الفرج التي بين الغرس على قدر طبع الأرض وقوتها، وأجود جميع الغروس التي تحمل وخير غرس الشجر ما يكون من غصون والغروس التي من البذور أضعف في الجملة من جميع الغروس، ويصف ابن العوام طريقة (الترقيد) المعروفة حالياً فيقول: ومن الناس من يعمد إلى زرع هذه الأشجار فيميلها ويطنرها في التراب حتى يصير لها أصول ثم ينقلها، ويصف عملية التكاثر الخضري في الأشجار المختلفة بطريقة (المشائل) فيصبح بأن تكون المشائل في أرض جافة لم تفلح وأن تكون الشمس مشرقة عليها وتصل إليها الرياح الجارية وينبغي أن تقلب هذه الأرض قلباً مستقصى لتزرع أصول الحشائش ويحفر حول الغروس مرة كل شهر وأن تكون الآلات صغيرة جداً لئلا يضر ذلك بالغرس، وينبغي أن تكون الأرض التي تحول إليها الغروس من موضع تربتها مقاربة في الصفة للأرض التي ابتدئ زراعتها فيها أو مثلها ولا تحول من أرض جيدة إلى أرض رديئة.

ويقول في أوقات الغرس إنها تختلف على قدر اختلاف البلدان والأمم أو الربيع أو الخريف، ويقول أيضاً: إذا أردت أن تأخذ الغرس من أي نوع شئت

كان قصعاً أو خلعاً أو ملخاً أو وتدأً أو غرساً بأصله، ولا تأخذ من الغرس إلا ما يلي الشمس فهي تحره وتدبغه وكلما أحرته الشمس فهو أجود ولا تأخذ غرساً أبداً من ناحية الشمال وما جاوز الشمال فإنه ظليل قليل الحمل قليل التعلق، وينبغي أن تأخذ الأغصان من أعلى الشجرة، وتختار الغرسة من أكثر الأشجار حملاً وأطيبها طعماً فإن المؤونة والنفقة في غراس النوع الجيد وعمارته والردية سواء فغراسه الجيد أولى.

وخصص ابن العوام الأبواب الأخيرة من كتابه لتغذية وتربية الحيوان، وتحدث عن كيفية اختيار الجيد ومدة الحمل وما يصلح من العلف، وتحدث أيضاً عن رياضة الأمهار وعلاج بعض علل الدواب، كما خصص فصلاً عن اقتناء الكلاب للصيد والزرع وعن اقتناء الطيور كالحمام والدجاج والإوز ونحل العسل، وبذلك نرى أن الكتاب يعالج مختلف العلوم الزراعية بأسلوب علمي ومنهج تجريبي، وانتفع به غرب الأندلس والأوربيون فيما بعد خصوصاً لما واكبه من تقدم في هندسة الري وتوزيع المياه، وقال عنه مؤرخ الحضارة ول ديورانت: " إن كتاب الفلاحة لابن العوام الأشبيلي كان أكمل بحث في علم الزراعة ألف في القرون الوسطى برمتها"، كذلك عده ما يرهوف من أحسن الكتب العربية في العلوم الطبيعية وعلى الأخص في علم النبات.

أما عرب إسبانيا... فقد قدموا خلاصة الفكر العربي في العلوم والآداب والفنون والفلسفة إلى غرب أوروبا، واتجهوا نحو أحياء الأرض الميتة بالزراعة وتعمير المدن الخربة، وتنشيط التجارة الراكدة، وإنعاش الصناعة حتى أصبحت

الأندلس في ظل الخلافة الأموية أغنى البلاد الأوروبية وأكثرها ازدهاماً بالسكان، وظلت كل دول أوروبا المحيطة بالأندلس تنهل من موارد المعرفة التي استساغتها حتى أواخر القرن الحادي عشر، ولم يدخر الأندلسيون وسعاً في الحصول على علوم الشرق الإسلامي باستعداد علماء المشرق إلى الأندلس، وسفر بعثات من الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة ثم العودة للأندلس وعن طريق جمع الكتب من بغداد ومصر ودمشق وعيون المؤلفات والمصنفات العربية إلى أن أصبحت قرطبة من أعظم مدن العصر آنذاك<sup>(16)</sup>.

ولقد جذبت بلاد الأندلس كل الأوروبيين بسحرها وجمالها، وازدهار الحضارة الإسلامية فيها بفضل الجهود الكبير الذي بذل في التعمير وري الأراضي وحفر الآبار وتخزين المياه لوقت الحاجة.

ونترك خاتمة هذا الموضوع للمستشقة الدكتورة سيجريد هونكة، التي تقول: " وهكذا عمر العرب مرتفعات وسفوح جبال ما كان أحد يظن أنها يمكن أن يستفاد منها في الزراعة لجفافها الدائم، وعلموا المزارعين طرق زراعة ورعاية التفاح والخوخ واللوز والمشمش والبرتقال والكستناء والموز والنخيل والبطيخ، كما اهتموا اهتماماً خاصاً بالقطن وقصب السكر وغيرها من النباتات والأشجار التي مازالت حتى اليوم تمثل جزءاً مهماً من صادرات إسبانيا، وما فتئت حتى اليوم أسماء كثيرة من الأدوات في الحقل الإسباني تحمل أسماء عربية، ولم يترك العرب شبراً من الأرض إلا واستثمروه، وبفضل كل تلك الجهود في الزراعة كانت الأرض زمن عبد الرحمن الثالث، تنتج ثلاثة أو أربعة مواسم كل عام، واهتم

العرب بتربية الحيوان وكانوا أول من أجرى التجارب ومارس التفريخ الصناعي على نحو ما نعرفه نحن اليوم في القرن العشرين".

### علماء برزوا في مجالات الزراعة:

التزم المسلمون بهذا الأساس الفكري الذي أخذوه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظهر منهم الأساتذة للحضارة في العالم كله، فالمسلمون هم الذين احتفظوا بالتراث العلمي القديم الذي جمعه وترجموه عن الإغريق والرومان، ولولاهم لاندثر هذا التراث وضاعت حقبة من تاريخ البشرية، والمسلمون هم الذين ابتكروا علوماً تخدم الزراعة والتجارة كالكيمياء والجبر، وبديهي أن الحضارة الإسلامية كانت الأساس القويم – إن لم يكن الأساس الوحيد – لبناء النهضة العلمية الحديثة التي بدأت منذ القرن السادس عشر الميلادي، فعلى أساس التراث العلمي الذي احتفظ به المسلمون عامة والعرب منهم خاصة، وجمعه من شتى مصادره، وعلى العلوم التي ابتكروها أساساً قامت النهضة العلمية الحديثة، ولقد تم ذلك بدهاءة بفضل التعاليم التي أخذوها عن رسول الله ﷺ، ولولا أن الحضارة الإسلامية نهضت بهذا العبء وفتحت الأقطار العديدة ومزجت شعوبها وثقافاتهما وصبغتها جميعاً بالطابع الإسلامي، لما توفر للنهضة العلمية الحديثة المناخ الطيب والأرض السليمة التي بدأت ثم ترعرعت فيها، بفضل رعاية علماء العرب والمسلمين لها.

وكان لهذه العوامل أثرها الكبير في زيادة الأنشطة الزراعية، وفلاحة الأرض وإنتاج المحاصيل المختلفة في هذه الأقطار الإسلامية، وبالتالي انتشار التجارة واتساع نطاقها وخاصة أن المسلم يعرف من دينه أنه خليفة الله في الأرض، وأنه مأمور بالإصلاح والإعمار، وأن الله جعل له الأرض ذلواً، وأمره بالبحث والتتقيب ابتغاء رزق الله وفضله، وإن الدين الإسلامي يقدر العمل، بل إن هناك من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا السعي وراء الرزق.

### علماء في مجالات الزراعة (17):

وتطبيقاً لذلك فقد برز علماء مسلمون في المجالات الزراعية وإن كانوا في العادة غير متخصصين في مجال واحد، فقد كان العالم العربي يسهم في فروع العلوم المختلفة، فالعالم الإسلامي كان ضالماً في الفلك والتشريح والرياضيات والموسيقى في آن واحد، وكان ذلك استجابة لمتطلبات المجتمع الإسلامي في عهدهم، حيث الفتوحات الإسلامية اتسعت في وقت قصير وشملت أقطاراً وبلاداً متعددة، وأصبحت تتطلب هذه المجتمعات من المفكر والعالم و الباحث الإسلامي أن يسهم كل بإمكانياته العلمية والعملية لكي يرفع شأن هذه المجتمعات علمياً وثقافياً ومادياً وحضارياً، وكان العلميون

## الزراعة في الأندلس:

كان للعرب أثر كبير في إعمار الأندلس وتشييد النهضة الزراعية فيها فنقلوا الأساليب الزراعية المعروفة آنذاك في المشرق وسائر البلاد العربية والإسلامية، إلى أوروبا التي اقتبستها وطورت على أساسها علومها الزراعية.

وقد نقل العرب زراعة المحاصيل الزراعية مثل: الزيتون والأرز والقطن وقصب السكر والنخيل والرمان والبنارنج والشمش والخوخ والكروم والبرتقال والخشخاش والشوندر وغيرها، تخلد ما فعله العرب في الميدان الزراعي إلى الأبد في لغة الإسبان وغيرها من اللغات الأوروبية، وكثير من المحاصيل الزراعية ما تزال تحمل الأسماء العربية نفسها في هذه اللغات مع شيء لا يخفى من التحريف والتصحيف، لقد استطاع العرب أن يحولوا الأندلس إلى جنة خضراء بوسائل الهندسة الزراعية في الري والتسميد وإنتاج أنواع جديدة من الفواكه والأزهار، ومارسوا الدورة الزراعية بدقة فائقة، ووضعوا تقويماً ودستوراً زراعياً سمي " التقويم القرطبي " وأبدعوا في طرائق تطعيم النبات، واستخدام العديد من المبيدات التي تمكنوا من تصنيعها من مركبات كيميائية كالكبريت والزرنيخ في مكافحة الآفات الزراعية، فقد أورد ابن بصال الطليطلي في كتابه: " الفلاحة " طريقة لمكافحة مرض أصاب أشجار البساتين في طليطلة واستخدمت طريقته لأول مرة في العصر الحديث بأوروبا وأمريكا عام 1923م للقضاء على الحشرة القشرية على أشجار النخيل.

حظيت العلوم الزراعية بعناية فائقة من قبل علماء الزراعة في الأندلس فأقيمت البساتين والحدائق التي كان يشرف عليها هؤلاء العلماء فكانت مختبرات تجري فيها تجاربهم، وكان العرب يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في العلوم الزراعية، اقتبست أوروبا الأسس العلمية للتجارب الزراعية التي توصل إليها العرب في الأندلس، كما كان لأهل الأندلس الدور الأساسي في وضع أسس هندسة الحدائق والبساتين وجمالها وروعها في غرناطة وإشبيلية، وقرطبة، وبلنسية، والزهراء.

ووضع العلماء العرب في الأندلس الكثير من الكتب والمؤلفات الزراعية، منهم زكريا بن العوام الإشبيلي (القرن 6هـ) الذي وضع كتابه " الفلاحة الأندلسية " على أساس علمي يجمع بين معارف العرب القديمة في الزراعة والنبات، وقد ذكر طريقة الري بالتنقيط لأول مرة في التاريخ والتي نسب اختراعها اليوم إلى العالم الغربي، ولذلك لم يتردد المستشرق ماكس مايرهوف في القول بأن كتاب ابن العوام ينبغي أن يكون أحسن الكتب في العلوم الطبيعية، وقد ترجم إلى لغات مختلفة.

وأحدث العرب في الأندلس لأول مرة في التاريخ " محكمة المياه " التي اهتمت بشئون ومشكلات الري والمياه في مدينة بلنسية.

ظهرت في الأندلس أولي الحدائق النباتية في القرن 6هـ / 11م، وكانت تستعمل للنزهة وإجراء التجارب حول تكيف النباتات التي جلبت من الشرق، أما في أوروبا فلم تظهر مثل هذه الحدائق إلا في القرن 16م في إيطاليا والتي اقتبست فكرتها من حدائق الأندلس.

كانت الحدائق العربية الأندلسية تتشأ على شكل فناء أو صحن كبير يحيط به القصر، واستعمل الماء عنصراً أساسياً في الحديقة العربية الأندلسية، فشيدت القنوات الضيقة المبونة بالقاشاني المزخرف، وهي تمتد على المحور الوسطي للفناء أو للصحن، وملئت الحدائق بنباتات الأصص ذات الأشكال المختلفة والألوان الجميلة.

يمكن الاستنتاج مما تقدم أن المعلومات الزراعية كانت وافرة عن العرب عبر التاريخ وخاصة في العصور الوسطى، وقد تجلت هذه المعرفة الزراعية في العلوم الأولية التي عرفها المزارع العربي مثل: علم المياه وإدارة الأراضي الزراعية وعلم المناخ وغيرها، وفي العلوم الزراعية التطبيقية مثل علم التربة والبيئة النباتية وأساليب الري المختلفة والغرس والمكافحة والتسميد وغيرها، وجميع الأعمال المتعلقة بالعناية وطرائق تحسين الزراعة، والنبات والقطف والحصاد.

## الهوامش

- (1) سبأ: 15
- (2) حضارة الأنباط عربية في لغتها وكتاباتها... يونانية ورومانية في هندستها المعمارية، أغلب الأسماء التي شاعت عندهم هي حارثة ومالك وكليب ووائل ومغيرة وقصي وعدي وعمرو، ويعمر، وسعيد وهاجر وعبد الملك وسعد الله، وحميد، وحضارة الأنباط تقوم على التجارة، والبتراء عاصمة النبط كانت المركز التجاري للطرق بين غزة والبصرة ودمشق، ومن منتجاتهم زيت السمسم والذهب والفضة والأواني الفخارية المزدانة بالنقوش.. راجع د. عبد الفتاح غنيمية: دراسات حول الكتابة العربية، دار الفنون العلمية 1983م ص 80-84
- (3) الرد: 4.
- (4) الأنبياء: 30
- (5) الحج: 5
- (6) الزمر: 21
- (7) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج 1 ص 11، ياقوت: معجم البلدان: لفظ السواد.
- (8) ابن رسته: الأعلاق النفسية ص 251
- (9) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج 2 ص 302.
- (10) المرجع السابق ج 2 ص 302.
- (11) المرجع السابق ص 303.
- (12) هناك أصناف كثيرة من الزيتون مزروعة في منطقة حوض البحر المتوسط، وتتميز هذه الأصناف اعتماداً على الصفات الخارجية للأوراق والأزهار والثمار، وهناك 31 صنفاً مزروعاً في اليونان، وهناك 22 صنفاً عالمياً و156 صنفاً محلياً مزروعة في إسبانيا، بعض هذه الأصناف يزرع للحصول على زيت الزيتون فقط، والبعض الآخر تستعمل ثماره للأكل على المائدة، والبعض الآخر يفي بالغرضين معاً، إن الاختلافات المورفولوجية بين الأصناف المختلفة تعكس الاختلافات الفسيولوجية والاختلافات في كمية إنتاج الثمار، وفي كمية إنتاج الثمار، وفي كمية الزيت المستخلص وصفاته الطبيعية، والاختلاف في تبادل الحمل، والاستجابة للظروف الجوية والتربة والمتطلبات الزراعية بالإضافة إلى الحساسية للإصابة

- بالحشرات والأمراض، كل هذه الصفات تظهر بدرجات مختلفة حسب الأصناف... لمزيد من المعلومات راجع: محمود أبو عرقوب: الزيتون، المكتبة الأكاديمية القاهرة 1988م.
- (13) جاك. س. ريسلر: الحضارة العربية ص 110-113 بتصرف ,
- (14) د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج 2 ص 302.
- (15) ابن حوقل (ت 380هـ) غي كتابه المسالك والممالك والمقادر والمهالك أو صورة الأرض جغرافية حذو الاضطرخي، وكتابه يلخص رحلته الطويلة التي بدأها عام 231هـ من بغداد طالباً لدراسة الممالك والبلدان ورغبة في الارتزاق عن طريق التجارة خلال 30 عاماً زار ديار الإسلام من الشرق إلى الغرب كما زار مناطق أخرى مثل بلاد البلغار واتصل في إفريقيا بالفاطميين واصطفوه عيماً لهم ضد الأمويين في الأندلس، وكتب في مقدمة كتابه دراسته للأندلس، راجع نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب بيروت 1962م ص 32-40.
- (16) راجع: جوستاف جروينباوم: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، القاهرة 1956م ص 81-83.
- (17) من مقال للباحث، نشر في مجلة الوعي الكويتية، العدد 179 ذو القعدة 1399هـ.

## أهم المراجع:

- ◀ جاك ريسلر: الحضارة العربية.
- ◀ جوستاف جرويناوم: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، القاهرة.
- ◀ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ج2.
- ◀ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج1.
- ◀ ابن رسته: الأعلام النفسية.
- ◀ عبد الفتاح غنيمه: دراسات حول الكتابة العربية وتطورها، دار الفنون العلمية، الإسكندرية ط2، 1983.
- ◀ نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب.
- ◀ ياقوت الحموي: معجم البلدان.



**التقنيات الفلاحية في التراث العربي**  
**تطعيم الأشجار المثمرة بين السمات الإنتاجية والخصائص**  
**الطبية أنموذجاً**  
**Agricultural techniques in the Arabic**  
**heritage**  
**Fruit tree grafting Between productive**  
**features and medicinal properties as a model**

محمود مهدي بدوي \*

[mmm.badwy@hotmail.com](mailto:mmm.badwy@hotmail.com)

**الملخص**

التراث العربي المعرفي أحد أهم العناصر التي تساهم في الحفاظ على الهوية العربية، ويشكل ركيزة قوية من الركائز التي تعتمد عليها في وجودها بين الأمم، ودليلاً على دور العلماء العرب في تطور الحضارة الإنسانية وتقديمها، ولما سبق وغيره عني كثير من المؤسسات الرسمية وغير الرسمية بالتراث العربي حفظاً وفهرسة وتحقیقاً ودراسة وتأريخاً ونشرًا، لكن هذه العناية الواجبة كانت محل كراهية ورفض ممن يرون أن التراث ماضي عفا عليه الزمن، وأن ما يخص له من ميزانيات أولى بها البحث العلمي الحديث الذي يمكن أن يدفعنا للأمام للحاق بركب الدول المتقدمة.

\* الخبير بمركز التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ونائب مدير المركز.

والحقيقة أن التراث العربي لم ولن يقف عائقاً أمام ما ننشده من تقدم علمي وتكنولوجي، بل إن التراث بما يقدمه لنا من صور مشرفة في مجالات عديدة من مجالات العلوم التجريبية للأجداد يمكن أن يمثل للأحفاد عامل دفع وتحفيز وتأس وتقوية للهمم للوقوف على العوامل التي اعتمد عليها السابقون في نهضتهم العلمية للبناء عليها.

ومن العلوم التي أبدع العلماء العرب فيها "علم الفلاحة" الذي كان قبلهم مجرد ممارسة تقليدية تعتمد على الخبرات المتوارثة، فجاء العلماء العرب ليطوروها علماً وعملاً، وأبانوا للناس سبلاً عديدة لاستنباط المياه الجوفية، وعرفوا أنواع الأراضي وما يصلح منها للزرع، وما يصلح منها لأنواع معينة من النبات، ووضعوا قواعد علمية في هندسة المياه وحفر الآبار ورفع المياه وشق القنوات، وتسوية الأرض، والري بالتنقيط، وطرق التسميد، ومواعيد الزراعة والحصاد، ومقاومة الآفات الزراعية، وطرق تخزين الحبوب والثمار، وكان من أجل ما أبدعته قريحتهم هو تطعيم النبات بغرض كثرة الإنتاج وجودته، وتنوع أشكال الثمار وطعومها وألوانها وروائحها، كما استطاعوا بالتطعيم تغيير خصائص بعض الفاكهة بإكسابها خصائص دوائية جديدة لتعالج بها بعض الأمراض التي يكره المرضى أدويتها العادية لمرارتها وصعوبة تناولها.

إن هذه التّقنيّات الفلاحيّة القديمة لا يمكن إغفال دورها اليوم مع الثورة الزراعيّة الحديثة؛ لأنّ المؤكّد أن الفلاحة التقليديّة لا تزال تُمارس بشكل كبير وعلى نطاق واسع في بلدان العالم الثالث، وعند الفلاحين ذوي الملكيات الصغيرة

في الريف، وعليه فالإفادة منها أمر لا بأس به، بل المؤكد أن كثيرا من هذه التّقنيات لا تزال تستعمل بشكلها القديم حتى اليوم.

**الكلمات المفتاحية:** الفلاحة العربية، الفلاحة الأندلسية، التّقنيات الزراعية، أدوات الزراعة، تطعيم النبات.

### **Abstract**

The Arab knowledge heritage is one of the most important elements that contribute to preserving the Arab identity, and it constitutes the strongest pillar on which it depends for its existence among nations, and evidence of the role of Arab scholars in the development and progress of human civilization preservation, indexing, investigation, study, history and publication, but this due diligence was hated and rejected by those who believed that the heritage is obsolete, and that the budgets allocated to it from modern scientific research can push us forward to catch up with the developed countries.

The truth is that the Arab heritage has not and will not stand in the way of what we seek of scientific and technological progress. Rather, the heritage, with its honorable images in many fields of experimental sciences for ancestors, can represent for grandchildren a factor that pushes, motivates, laments and strengthens their determination to find out the factors on which the predecessors relied in their scientific renaissance to build upon.

Among the sciences in which Arab scientist excelled is “agriculture,” which previously was just a traditional practice based on inherited experiences. Arab scientists came to develop it in science and work, and they showed people many ways to derive groundwater, and they knew the types of land and what is suitable for cultivation, and certain types. From plants, they set scientific rules in water engineering, digging wells, raising water, digging canals, leveling the land, drip irrigation, fertilization methods, planting and harvesting dates, resistance to agricultural pests, and methods of storing grains and fruits. They were also able to change the properties of some fruits by giving them new medicinal properties to treat some diseases that patients hate. regular medicines because of their bitterness and difficulty having them.

These ancient agricultural techniques cannot be neglected today with the modern agricultural revolution, because it is certain that traditional agriculture is still practiced on a large and large scale in the countries of the third world, and among farmers with small property in the countryside. It is certain that many of these techniques are still used in their old form even today.

**Keywords: Arab agriculture, Andalusian agriculture, agricultural techniques, farming tools, plant grafting.**

## مقدمة

الحمد لله القائل: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ\* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} [63، 64 سورة الواقعة]، وصلاة وسلاماً على رسول الله القائل: "إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"، وبعد،،

فيشكّل التراث العربيّ المعرفيّ عنصراً هاماً من عناصر الهوية العربية ووحدة الأمة وتاريخها العريق الطويل، الأمر الذي دفع القائمين على أمر هذا التراث أن يحافظوا عليه من الضياع، ويدافعوا عنه من هجمات التشويه والتضليل والتقليل من أهميته آملاً في سلب هذه الأمة أسسها الحضارية التي يمكن أن تبني عليها -يوماً ما- حضارة جديدة تساهم بها في التقدم العلمي الحديث.

وبمناسبة وبدون مناسبة تُسن أقلام وتسلق ألسنة حداد تهويناً وتقليلاً وسخرية وتنديداً بما ينفق من ميزانيات متواضعة على حفظ التراث وتحقيقه ونشره بحجة أن علوم التراث التطبيقية علومٌ قد عفا عليها الزمن، وأن الإنفاق على هذه الأمور إهدار للمال والجهد في ظل تقدّم البحث العلمي والتكنولوجيّ الأولى بهذه الميزانيات، ومرددين -بلا ملل-: ما جدوى تحقيق ودراسة ونشر هذه العلوم القديمة؟ وهل تصلح تقنياتها التي مر عليها قرون عديدة للعمل بها أو للاعتماد عليها في عصرنا هذا الذي بات الاعتماد فيه على الثورة الصناعية والتكنولوجية أمراً محتوماً.

والحقيقة أن العناية بالتراث ودراسته لها مقاصد ليس من بينها الدعوة إلى التمسك بالقديم لقدمه وإهمال العلم الحديث ومنجزاته، ومن هذه المقاصد كتابة تاريخ العلوم كتابة صحيحة خالية من التهوين والتهويل، والعودة بالعلوم التطبيقية إلى جذورها وأزمته إبداعها ومعرفة أعلامها ومدى مساهماتهم في مسيرة الحضارة الإنسانية، والوقوف على العوامل التي أدت إلى ازدهارها أو انهيارها في مراحلها المختلفة، إن العلم الحديث لا بد من تنشيط ذاكرته المفقودة ليعرف المحدثون من أسس ومن أصلح ومن أضاف ومن غمط غيره حقّه، ومن نسب لنفسه ما ليس له، ومن يريد تزكية جنس على جنس، وتفضيل أمة على أمة، ومن يحاولون نسبة سبب التأخر العلمي للدين.

إننا بحاجة لكشف تزيف بعض المحدثين للحقائق، والتأصيل لكثير من المخترعات والمبتكرات الحديثة ببيان دور علمائنا فيها، والتنقيب في بطون مخطوطاتنا للكشف عن مزيد من هذه المخترعات والأفكار.

ولقد آثرت أن يكون موضوعي متعلقًا بالفلاحة العربية القديمة وتقنياتها وإبداع علمائها في مجالات يعدها المحدثون اليوم من منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة أملاً في الكشف عن مظهر من مظاهر الإبداع في تراثنا العربي.

### تعريف الفلاحة لغة واصطلاحاً:

الزراعة، والفلاحة كلمتان مشتقتان من مادة "فَلَح" التي أورد ابن منظور لاشتقاقاتها معاني عديدة منها: **الفَلَح** و**الفَلَّاح**: وهما بمعنى الفوز والنجاة والبقاء

في النعيم والخير، ويقال: حيَّ على الفلاح: أي هلمَّ على بقاء الخير، أو عجل وأسرع إلى الفوز بالبقاء الدائم والنجاة، والفَلَح: الشق والقطع، والفَلَح: مصدر فلحت الأرض إذا شقتها للزراعة، وفَلَحَ الأرض للزراعة: إذا شقها للحرث، والفَلَّاح: الأكار والمكاري، وإنما قيل له فلاح؛ لأنه يفلح الأرض أي يشقها، والفِلاحة، بالكسر: الحراثة، وفي حديث عمر: اتقوا الله في الفلاحين، يعني الزراعين الذين يفلحون الأرض أي يشقونها<sup>(1)</sup>.

أما نشوان بن سعيد الحميري فقد عرّف الفلاحة بأنها الزراعة، فقال: الفلاحة، بالحاء: الزراعة<sup>(2)</sup>.

وفي الفلاحة الرومية: يقول قسطا بن لوقا البعلبكي: هذا كتاب قسطوس في الزراعة، وما يتعلق بها، مما لا يستغني عنه المزارعون وغيرهم من الناس عن علمه. فقسطوس لم يقل الفلاحة ولا الفلاحين، وإنما قال "الزراعة، والمزارعون"<sup>(3)</sup>.

ويضيف الزبيدي بعض المعاني لتعريف الفلاحة فيقول: الفلاح: الملاح، وهو الذي يخدم السفن، وفلح الأرض للزراعة يفلحها فلحًا، إذا شقها للحرث، والفلاح: الأكار؛ لأنه يفلح الأرض، أي يشقها، وحرفته الفلاحة، والفلاحة: الحراثة<sup>(4)</sup>.

ويضيف دوزي بعض المعاني فيقول: أفلح: فلاح، زرع، وأفلح الشجر: زرعه، وأفلح القمح: زرعه، وأفلحت الشجرة: نمت.

والفلاحة: محصول، ريع، غلة، فلاحة الحيوانات: تربية الحيوانات<sup>(5)</sup>.

والمعاني السابقة تدور حول الفوز والنجاة والحض على السعي إلى اجتناء الخير الدائم، وشق الأرض وحرارتها والعمل والسعي لتوفير ضرورات المعيشة، وجميعها من السمات المرتبطة بالفلاحة والفلاح.

**الفلاحة اصطلاحاً:** هي علم يتعرف منه تدبير النبات من أول نشئه إلى منتهى كماله، بإصلاح الأرض إما بالماء أو بما يخلخلها ويحميها من المعقنات: كالسماد ونحوه، أو يحميها في أوقات البرد مع مراعاة الأهوية فيختلف باختلاف الأماكن، ولذلك تختلف قوانين الفلاحة باختلاف الأقاليم<sup>(6)</sup>.

وعرف ابن العوام الفلاحة بأنها إصلاح الأرض وغراسة الأشجار فيها، وتركيب ما يصلحه التركيب منها، وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها فيها، وإصلاح ذلك، وإمداده بما ينفعه ويجوده، وعلاج ذلك بما يدفع -بمشيئة الله- الآفات عنه، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والدون منها، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع منها من الشجر والحبوب والخضر، واختيار النوع الجيد من ذلك، ومعرفة الوقت المخصص بزراعة كل صنف منها، وغراسة ما يغرس منها... إلخ<sup>(7)</sup>.

**والزراعة:** علم به يعرف استخراج ما في الأرض من المواد النافعة للزراعة وإصلاح الأرض وغراسة الأشجار فيها، وتركيب (تطعيم) ما يصلحه التركيب، وزراعة الحبوب وغيرها من المواد المغذية النافعة للإنسان والحيوانات الأهلية وعلاجها بما يدفع الآفات عنها، ومعرفة جيد الأرض ووسطها والدون منها، ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع منها من الشجر والحبوب

والخضروات، ومعرفة الوقت المختص بزراعة كل صنف منها والهواء الموافق لذلك، وكيفية العمل في الزراعة والغراسة، ومعرفة أنواع المياه التي تصلح لسقي كل نوع منها ومقدارها ومعرفة الأسمدة وما يليق بكل نوع من الأشجار والخضروات، وكيفية العمل في اختزان الحبوب وفواكه الأشجار<sup>(8)</sup>.

إن المعارف المطلوبة للزراعة والتي يذكرها العلماء في تعريفاتهم تبين إلى أي مدى ضرورة إلمام المزارعين بهذه المعارف المتعلقة بطبيعة الأراضي، وأنواع الهواء الملائم للمزروع، وأنواع المياه، وطرق الري والتسميد، والعلم بأوقات الزرع والجني، وطرق التخزين والحفظ ... إلخ. مما يدل على أن الفلاحة كانت قائمة على أصول علمية ودراسات ميدانية تجريبية تعمل على زيادة الإنتاج وجودة المحصول.

### الفرق بين مهنة الفلاحة وعلم الفلاحة:

فرّق العلامة ابن خلدون بين مهنة الفلاحة وعلم الفلاحة بقوله: "فمهنة الفلاحة: هي صناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها، وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه.

أما الفلاحة كعلم فهي أحد فروع الطبيعيات، وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوئه بالسقي والعلاج، وتعهده بمثل ذلك، وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة، وكان النظر فيها عندهم عاما في النبات من جهة غرسه وتنميته وعلاجه<sup>(9)</sup>."

إن كلمة "النظر" التي أوردها ابن خلدون تشير إلى المنهج المتبع في علم الفلاحة آنذاك، وأنه منهج تجريبي يعتمد في مرحلته الأولى على "النظر" ودقة الملاحظة، والشكوك حول ما تمت ملاحظته، ووضع الافتراضات، والتجربة، واستنتاج الحلول وبلورة الأفكار والنظريات.

### لمحة من تاريخ الفلاحة:

بعد هبوط الإنسان إلى الأرض ليستعمرها شعر بجأته إلى الغذاء والسكن والعلاج، فهده الله أن يقصد النبات ليجد فيه حاجته، فكانت الفلاحة والرعي المرتبط بالزراعة أول مهنتين مارسهما الإنسان في هذه الحياة، بدليل أن الله حين أمر ابني آدم بتقديم قربانيهما قدم أحدهما حزمة من أعواد القمح، وقدم الآخر كبشاً مما يدل على اشتغال أحدهما بالزراعة والآخر بالرعي، وبمرور العصور تراكمت الخبرات وازدادت المعارف المتوارثة، وتوالت التجارب التي ساهمت في التخلص من أخطاء السابقين، سعياً وراء مضاعفة الإنتاج، وابتدع الفلاحون آلات وأدوات وطرقاً تساعدهم في توفير جهودهم ووقت عملهم، ومع تحضر الإنسان أخذت الفلاحة تتحول من مجرد مهنة تعتمد على الخبرات المتوارثة إلى علم له قواعد وأصول ومؤلفات دونت فيها المعارف الزراعية مشتملة على كل ما من شأنه تطوير هذه المهنة والرقي بها وتجويد وزيادة إنتاجها، وورثت الحضارة الإسلامية عن سابقتها تراثاً علمياً كان له أثر جلي في الفلاحة عملاً وعلماً، وساهمت الزراعة في القضاء على ظاهرة الترحال والتنقل سعياً وراء المراعي، وصارت من أهم عوامل الاستقرار والبقاء، وباعثة على قيام

الحضارات، وعاملة على أمن المجتمعات الغذائي، وبسببها بُنيت المدن، ونظمت الأعمال والإدارة، وتطوّرت العلوم والآداب، وأدرك القائمون على الأمر أنّ الفلاحة مقوم أساسي للبقاء، وانعدامها يعني الفقر والمجاعة اللذين يمثلان نقطة ضعف في قوام أي دولة أخذت على عاتقها بناء نهضة إنسانية عالمية، ويمكن القول إن الفلاحة في الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين بلغت شأواً بعيداً لم تصله مثيلتها الأوروبية في الوقت نفسه، ساعدها في ذلك كثرة الحدائق والبساتين والأراضي الصالحة للزراعة، ووفرة مياه الري، كما أنّ علم الفلاحة العربية ارتبطت به علوم أخرى كالبيطرة ومنافع الحيوان، والأغذية والأشربة والطبخ، بل واشتملت كتب الفقه الإسلامي على أبواب ذات علاقة بالفلاحة كأحكام المغارسة والبيوع والإجارة وغيرها مما يتعلّق ببيع الثمار والحبوب.

ورأى العلماء أن زيادة الإنتاج العائد على المجتمع بالخير الوفير والأرباح لا بد فيه من الاعتماد على العلم والمعرفة، والإلمام بمواعيد الزرع وطرق الري والتسميد، ومقاومة الآفات، وجني المحاصيل وتخزينها، وانتقاء البذور، وتطوير أدوات الزراعة وهندسة المياه، وانتقاء السلالات الجيدة من الحيوانات التي لا غنى عنها في الفلاحة كالخيل والبغال والحمير والمواشي، وتنوع المنتجات الزراعية والمحاصيل الفلاحية، والعلم بطبائع الأرض والأزبال والأعشاب المضرة، وتراكيب الأشجار والنبات المؤدّد بدون بزر أو شتل، وتقليم الشجر، وتذكير بعضه، والنباتات المتوافقة والمتنافرة، وطرق حفظ الحبوب والثمار.

كما ساهم تقدم علم الفلاحة في الدعوة إلى تغيير كثير من المفاهيم، ورسخ أفكارًا جديدة كان لها أثر كبير في الاستقرار والتطوير، ومن أهم هذه الأفكار:

- \* الدعوة إلى الاقتصاد في استعمال الماء، وترشيد استهلاكه، والاكتفاء منه بما هو ضروري، والبحث عن مصادر جديدة للري.
- \* الحض على الاقتصاد في النفقات الزراعية وتكاليف الإنتاج.
- \* مواصلة التجارب الزراعية، واستصلاح أراضٍ جديدة قابلة للزراعة، ونقل الأنواع الجديدة من النباتات.
- \* الاستفادة من كثير من المخلفات والبقايا الطبيعية في تخصيب الأرض وتسميدها.

\* استخدام المواد العضوية في مكافحة الآفات الزراعية.

\* حفظ المحاصيل والثمار أطول فترة ممكنة خوفًا عليها من التلف.

### المدارس الفلاحية العربية وأشهر أعلامها:

لقد تطورت الفلاحة العربية وتجاوزت مرحلة التقليد، وباتت علما له أصوله وقواعده وأعلامه ومدارسه ومناهجه العلمية، ويمكن القول إن التراث العربي عرف العديد من المدارس الفلاحية التي كان لكل منها أعلامها وآثارها، ومن أهمها:

1- مدرسة بغداد: ويأتي على قمة علمائها حنين بن إسحاق صاحب كتاب (الفلاحة عند العرب)، والجاحظ وأبو حنيفة الدينوري، وابن وحشية في (الفلاحة النبطية)، واعتمد رواد هذه المدرسة على ما ترجم من آثار الأمم

السابقة، وإن تجاوز أبو حنيفة ذلك وخطا بكتابه (النبات) خطوات أبعد من سابقه.

2- مدرسة الشام ومصر: ومن أعلامها ابن مماتي، وابن فضل الله العمري، والوطواط الكتبي، وغيرهم ممن اعتمدوا على نقل جهود السابقين ولم يكن لهم تجارب فلاحية بالمعنى الحقيقي.

3- مدرسة اليمن: وفيها ألف بعض ملوكها كتباً في الفلاحة، ككتاب ملح الملاحة في علم الفلاحة للأشرف عمر بن رسول.

4- مدرسة الأندلس: وهي أهم هذه المدارس لاعتماد روادها على التجارب الفلاحية والتطبيق العملي، كما استطاعت هذه المدرسة تخليص مؤلفاتهم الفلاحية من الفكر الوثني والأسطوري الذي شاع في العديد من المؤلفات قبلهم ككتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية، ومن أهم علمائها ابن وافد، وابن بصال، وابن حجاج الإشبيلي، وأبو الخير الإشبيلي، وغيرهم<sup>(10)</sup>.

### أشهر المؤلفات العربية في الفلاحة:

اشتغل كثير من العلماء العرب بالتأليف في علم الفلاحة مخلفين لنا ثروة علمية قيمة في هذا الفن، وقد تنبه المستشرقون لها فانكبوا عليها دراسة وترجمة، ومن مؤلفاتهم في الفلاحة:

\* الفلاحة النبطية لأبي بكر أحمد بن علي بن وحشية النبطي (ق 3 هـ).

\* المقنع في الفلاحة لابن حجاج الإشبيلي (كان حيا 464هـ/1072م).

- \* زهر البستان ونزهة الأذهان لأبي عبد الله بن محمد الغرناطي (494هـ/1103م).
- \* كتاب المياه والنبات والشجيرات الأندلسية لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (487هـ/1064م).
- \* الفلاحة لابن بصال الطليطلي (499هـ/1105م).
- \* الفلاحة لأبي الخير الإشبيلي (ق 5 هـ).
- \* الفلاحة الأندلسية لأبي زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي (553هـ/1158م).  
وقد ترجم هذا الكتاب إلى الأسبانية عام 1802، وإلى الفرنسية في منتصف القرن التاسع عشر مع مقدمة فرنسية، كما ترجم إلى الأوردية والتركية والإيطالية.
- \* عمدة الطبيب في معرفة النبات لأبي الخير الإشبيلي (ق 6 هـ).
- \* ملح الملاحه في علم الفلاحة للأشرف عمر بن رسول (696هـ/1269م).
- \* مناهج الفكر ومباهج العبر لمحمد بن إبراهيم الوطواط الكتبي (718هـ/1318م).
- \* بغية الفلاحين للأشجار المثمرة والرياحين لعباس بن علي بن رسول (764هـ/1362م).
- \* جامع فرائد الملاحه في جوامع فوائد الفلاحة لمحمد بن محمد الغزي الدمشقي (935هـ/1529م).

## أهم التقنيات الفلاحية:

### 1- معرفة صلاحية التربة للزراعة وسبل إصلاحها:

استطاع القدامى التفريق بين الأرض الخصبة الصالحة للزراعة وغير  
الخصبة بطرق عدة منها:

#### أ- الاعتماد على بعض الحواس:

**النظر:** فالأرض التي لا تتشقق شقوقاً كثيرة عند شدة الحر وشدة البرد، ولا يحدث فيها وحل فتتعلق وتلتصق بالأرجل عند تتابع المطر عليها، ولا يظهر على وجهها ما يشبه الخزف، هي أرض جيدة صالحة للزراعة، جيدة الإنتاج.  
**الشم:** يشم ريح التراب، فإن كان ريحه بعد الدفن كريحه قبله أو يقرب منه، فالأرض صالحة، وإن تغير ريحه فليُنظر إلى أي ريح تغير ويحكم عليه<sup>(11)</sup>.

**ب- الاستدلال على جودتها بما يتولد من ترتبها من ديدان وحشرات:**  
يؤخذ من ترابها كَفٌّ وزنه رطلان إلى ثلاثة، ويجعل في دورق خزفي، ويُدفن مضموم الرأس في حفيرة من تلك الأرض يكون عمقها أربعة أذرع أو ثلاثة، وتترك أربعة عشر يوماً، ثم يُخرج فينظر فإن ظهر الإناء وقد تبين عليه أنه عرق فليفتح، وإن كان لم يعرق في الحفرة فليرد وليطمر ثم يترك سبعة أيام، ثم يخرج ويفتح فإن كان قد تكون فيه دود نتيجة حجب الهواء عنه فليُنظر لون الدود، فإن كان أسود أو أزرق أو أخضر، فالأرض رديئة، وإن كان الدود أحمر أو أصفر أو أغبر أو خفيف الخضرة فالأرض صالحة<sup>(12)</sup>.

### ج- المعاينة:

نوع النبات النامي فيها: إذا كانت الأرض خالية من الزرع وأريد معرفة مدى صلاحيتها فلينظر إلى ما قد ينبت فيها من الحشائش والشوك أو غيرهما، فإن كان نباته قويا عليا ملتقا في صعوده فالأرض كريمة سليمة، وإن كان غير ذلك فهي غير سليمة<sup>(13)</sup>.

### 2- طرق إصلاح التربة:

حرص الفلاحون على تسوية أراضيهم قبل الزراعة حتى يجري الماء عليها بمنسوب واحد، ويقل استهلاك الماء، واعتمدوا في هذه التقنية على وزن الأرض بميزان الماء، وصفة وزن الأرض لتعديلها أن تأخذ ثلاث عصي أو أربعة متساويات الطول، وتقيم كل واحدة منها قياما مستقيما على لوح لتكون على خطوط متساوية، ولتكن كلها مع قواعد مستوية الطول، ثم تقيم واحدة منها دون تحريف على فم مصدر الماء، متوخيا مساواة العصي، مما يساعد الفلاح في معرفة الأماكن المرتفعة والمنخفضة فيصلحهما. أو تسوى باستخدام الجاروف "الزحافة عند بعض عوام مصر" الذي تجذبه الثيران.

### 3- الحصول على الماء:

عرف الفلاحون أنواع المياه، وذكروا أنها ستة أنواع هي الماء العذب، وماء المطر، وماء الأنهار، والماء الزعاق والمر، والماء المالح، وفرقوا بين

خصائصها، وعرفوا مدى صلاحية كل ماء لري أنواع معينة من النبات، أو عدم صلاحيته.

كما وقفوا على طرق عدة للتعرف على المياه الجوفية والحصول عليها:

يشير ابن وحشية إلى أن هناك طرقا يمكن بها التعرف على المياه الجوفية في أغوار الجبال، وهذه الطرق يعتمد أكثرها على الحواس، فمما يدرك بالرؤية بالعين واللمس: ظهور الندى على سفوح الجبال في أول ساعات النهار وآخر ساعة منه.

وقد يستدل على كون المياه في أغوار الجبال بالسمع بالأذن، فإن الماء إذا كان كامنا كان له حفيف ودوي، وتحتاج هذه الطريق إلى خبرة للتفريق بين صوت الماء وصوت الريح، كما يستدل على وجود الماء في غور الأرض من طعم التربة، فإن كان طعمها عديم المرارة والملوحة فهي أرض ريانة ذات ماء. كما أن هناك بعض النباتات التي إن نبتت في أرض دلت على قرب الماء، كنبات كرفس الماء، ولسان الثور، والثيل<sup>(14)</sup>.

**4- التسميد:** هو عمل يقوم به الفلاح بقصد مد الأرض ببعض المواد الغذائية والمعدنية التي تفتقدها الأرض ويحتاجها النبات، وقد أفرد العلماء القدامى للتسميد أبوابا في كتبهم تحت عنوان "الأزبال" وتشمل الأسمدة على روث الحيوانات وفضلاتها وزرق الطير وفضلات الناس كما استعمل الرماد والتبن وغيرهما في التسميد.

## 5- مكافحة الآفات الزراعية:

تنوعت الآفات وتعددت طرق مكافحتها ومعالجتها، وقد جاء في كتب الفلاحة ما يشير إلى أنواع الآفات التالية:

آفات تصيب الأرض: الرطوبة.

آفات تصيب المحاصيل الزراعية: احمرار ورق الكروم، يرقان البذور.

آفات حشرية: الدود، الجراد، البق الأحمر، النمل، والفئران... إلخ.

ونكر لكل مما سبق وسائل عديدة لمقاومة ومعالجة هذه الآفات<sup>(15)</sup>.

## 6- أهم الأدوات الزراعية:

ميزان الماء، المنجل، المعول، المحراث، الفأس، المجنب، القدوم، المرزبات، الجاروف، السكين، المنشار، حجر المغناطيس لمقاومة النمل، الهاون، الرحا وغيرها.

ولا تزال أدوات كثيرة مما سبق تستعمل حتى اليوم في الريف المصري وغيره من المجتمعات الزراعية العربية المحدودة المساحة، كالمحراث، والمجرفة التي يطلق عليها "الطورية"، و"الوتد" الذي هو عبارة عن قضيب من الخشب مدبب من أحد طرفيه ليسهل انغرازه في التربة، ولا يزال يستعمل في غرس الشتلات الصغيرة في المشاتل حتى الآن.

والمنجل: وهو أداة الحصاد والقطف في الحيازات الصغيرة، وهو مستعمل حتى اليوم<sup>(16)</sup>.

## 7- تخزين الحبوب والثمار:

ذكرت كتب الفلاحة العديد من طرق وسبل تخزين الحبوب والثمار لتقليل نسبة التالف والفاقد، ولتبقى أطول مدة ممكنة ليفاد منها في غير مواعيد إنتاجها، ومما حرص القدامى على تخزينه (البر).

ولبقائه أطول فترة ممكنة قاموا بتخزينه بسنابله، ولعلمهم أفادوا في ذلك مما أشار إليه القرآن الكريم في قصة يوسف {فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ}، وبخزينه في مطامير معزولة عن الهواء، ولمنع تسوسه ينثر في القمح رماد عيدان الكرم، أو رماد بعر الضأن<sup>(17)</sup>.

أما الثمار فلتخزينها اشترطوا أن يكون المخزن باردًا نظيفًا ذا رائحة طيبة، ولحفظ عناقيد العنب تُغمس العناقيد في عصارة البقلة الحمقاء فتبقية محفوظًا. ولحفظ الكمثرى: تُجعل في جرة ويُسَدُّ رأسها وتُدْفَن في التراب، فإنك متى أخرجتها وجدتها صحيحة سليمة<sup>(18)</sup>.

8- الترقيد (التكيس): وهو أن يعمد المزارع إلى الفروع النابتة من أصل الشجرة، فيطمرها في حفرة قربها على هيئة قناة، وتغطي الفروع بالتراب، على أن يترك رأس الفرع من الناحية الأخرى حرًا، وكلما كان الفرع طويلًا وامتد في الحفرة التي أعدت له كان أحسن، ثم تُنقل بعد ذلك إلى المكان الذي يُراد الغرس فيه بعد أن تُقطع عن الشجرة الأصل، ويكون قد تشكل لها جذور كثيرة خاصة بها وتتنقل مع التراب المحيط بالجزء المرقد<sup>(19)</sup>.

**9- التقليل:** كما عني الفلاحون القدامى بالتقليل لإزالة التالف والزائد والمكسور منها عن الأشجار، ويجري التقليل بالمنشار، وبين العلماء أن أفضل طرق التقليل تكون بالنشر من الأسفل للأعلى حتى لا ينسلخ قشر الشجرة ويكون سبباً في فساد الجذع<sup>(20)</sup>.

### 10- تطعيم الأشجار:

في ظل النمو السكاني المضطرد، والحاجة لوفرة الغذاء يُعنى علماء النبات المحدثون بتطعيم الأشجار المثمرة لإكثار الأنواع ذات المواصفات الجيدة، وإسراع إثمارها، ومضاعفة إنتاجها، والحصول على أشجار معتدلة الأحجام لسهولة التعامل معها جنياً ومكافحةً وتقليماً، وللتغلب على آفات الحشرية، وحل مشكلة عدم ملائمة بعض الأراضي لبعض أنواع الأشجار، وقد خطا العلماء في هذا الطريق خطوات واسعة حتى عدّها البعض ثورة زراعية حديثة يمكن من خلالها سد الفجوة بين المنتج والانفجار السكاني.

وإذا كان هذا العمل ثورة حقيقية - كما يعده البعض - فهل هو نتاج طفرة علمية غير مسبوقة فكرياً وتجربة وممارسة؟ أم كان لعلمائنا القدامى دور في إشعال جذوتها التي تلقفها المحدثون لينطلقوا بها مسدلين الستار على جهود مهدت لهم السبيل، ناسبين الفضل لأنفسهم؟.

ولعل هذا المقال يساهم في الكشف عن بعض جهود علمائنا السابقين التي لم يزد المعاصرون عليها إلا يسيراً، ومع ذلك فقد كان علمائنا من حسن الأدب والتواضع والأمانة العلمية بمكان وهم يصرحون بأنهم خطوا في طريق تركيب

الأشجار خطوات، وسيأتي بعدهم من هو أكثر منهم إمكانيات ووسائل ليضيف إلى ما قدموه.

وقد سجل هذا التنبؤ في الفلاحة النبطية لابن وحشية وهو يقول: ليس في إمكاننا عمل جميع تلك الأعمال حتى نوفيها حقوقها التي تكون بها الاستحالة؛ إما لتعذرنا علينا لحاجتها لزمان أطول لا تفي به أعمارنا القصيرة، وإما لأن قوانا معلومة محدودة، ولعله يحدث في الزمان المستقبل قوم يدركون بعقولهم واستخراجهم واستنباطهم أكثر مما أدركنا فيبلغون بذلك ما لم نبغ<sup>(21)</sup>.

ومع ذلك فلقد أقدموا على ما لم يقدم عليه المحدثون حين قاموا بتطعيم الأشجار لإكساب ثمارها خصائص علاجية لم تكن توجد بها قبل التطعيم، بل وتمكنوا من تطعيم بعض الأشجار لتحمل الشجرة الواحدة أربعة أنواع من الفاكهة، وتمكنوا من جعل شجرة الكرم تحمل العنب الأبيض والأسود. عُرف التطعيم عند القدامى بأسماء عدة منها التركيب، والإضافة، والتطعم، والنشاب، وفسره ابن وحشية بأنه أخذ غصن من شجرة فيرغب على بدن شجرة أخرى.

واشترط لنجاح عملية التطعيم أن يكون بين شجرتين توافقاً في النوع والصورة والطعم والشخصية، وأن تكون من أشجار جيدة الأجناس كثيرة الثمار، وأما ما ليس بينها هذه الصفات فلا يرغب بعضُها في بعض.

وقد كانت عملية التركيب عند النبط مصحوبة بطقوس جنسية، فالتركيب - من وجهة نظرهم - كلقاء الرجل والمرأة، والثمار الناتجة عن التركيب كالإنجاب،

ولتغيير اللون والرائحة والطعم أثر من حسن المرأة ولونها وعمرها التي كان الرجل يأتيها عند الشجرة المطعمة وقبيل التطعيم. ثم أتبع هذا السلوك بطقوس سحرية وطواف بالأشجار، لكن المسلمون قضوا على هذه الخرافات وعملوا على ترسيخ المفهوم العلمي للتطعيم ووسائله وطرقه وأدواته وآثاره.

أما الغاية من التركيب فلم يزد المحدثون عليها شيئاً تقريباً، فمن فوائد التطعيم عند القدامى:

أن التطعيم أعجل فائدة، وأقرب منفعة من الغرسة.  
به يمكن تبديل اللون بأحسن، وتبديل الأقل ثمرًا بالأكثر، والحامض بحلو، وصغير الثمرة بكبيرها.

التطعيم ينقل المذموم في طبعه وطعمه إلى محمود، ويكتسب بعضها طبع بعض، ويعتدل بعضها ببعض، وإكساب المركب من المركب عليه طعمًا ليس هو فيه، أو رائحة كذلك، أو حُسن شكل وصورةً فيها فائدة للناس.

فقد أراد القدماء بالتركيب أن يكسبوا بعض الأشجار طبع بعض، ويعدلوا بعضها ببعض، ويقلبون المذموم في طبعه وطعمه إلى محمود ونحو هذه الأفعال من الإصلاح وإجذاب الصلاح<sup>(22)</sup>.

ويذكر ابن العوام قانونا يستدل به المركبون على الموافقات من الأشجار والمخالفات والمناظرات، روعي فيه اتفاق الأشجار في وصف واحد، فقسّموا الأشجار أربعة أقسام:

- 1- الأشجار ذوات الأدهان: وهي التي لظاهر ثمرها وللبها دهن كثير كالزيتون والرند والضرور... إلخ.
- 2- الأشجار ذوات الأصماغ: وهي التي لها صمغ كثير كالخوخ والمشمش واللوز والفسق... إلخ.
- 3- الأشجار ذوات المياه، وهي قسمان:  
أ- ذوات المياه الخفاف: وهي التي تسقط أوراقها في زمن البرد كالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب.  
ب- ذوات المياه الثقال، مثل البلوط والسرو<sup>(23)</sup>.  
فهذه الأصناف كالفصائل المتباينة، ينافر كل قسم الآخر، فلا يركب ولا يركب عليه.

بعض نتائج ما أكدته تجاربهم:

- 1- **إطالة عمر الشجرة:** يقول ابن العوام: إن شجرة الخوخ تهرم سريعا وإن نحن طاعناها في شجر الإجاص وشجر اللوز يكن أبقى.
- 2- **زيادة حجم الثمرة:** والخوخ إن ركب في الإجاص تكن ثمرته عظيمة، وإذا ركب النبق في التفاح يكون النبق في قدر التفاح وحلاوته.
- 3- **تغيير اللون والطعم والرائحة:** وإن ركب السبستان على الزيتون أخرج زيتونا كبيرا مدورا عديم المرارة والبشاعة، وتركيب الكرم على القراسيا يجعله أطعم ما كان من الكرم في الربيع، وتركيب التين في الدفلى يطعم تينا مرًا، والكمثرى إذا ركب في الأترج اكتسب منه لونا ورائحة.

- 4- سرعة نضج الثمار: تركيب غصن من التوت الطو على كثرثة يخرج كثرى حلوة سريع النضج.
- 5- تغيير اللون والريح: تركيب الأترج في التوت يثمر أترجا أحمر، وما يضاف من الكثرى إلى الفرساد (التوت) تكون ثمرته حمراء.
- لتغيير ريح العنب ليكون مثل ريح الأترج: لف قضيب العنب بقضيب الأس حين تغرس قضيب الأس، فإن ريح العنب يكون كريح الأس.
- 6- مضاعفة الإنتاج: التفاح إذا أضيف إلى الإجاص أو الأترج أطعم مرتين في السنة، وتركيب الورد في اللوز يجعله يورد في الخريف.
- 7- التبكير بالحمل: الكثرى إذا ركب في التوت بگر في حمله قبل الكثرى كلها.

### الخصائص الطيبية المستحدثة بالتطعيم:

لم يكتف القدماء بالأغراض النباتية والسّمات الإنتاجية التي حققوها من تطعيم الأشجار، لكن كان طموحهم أبعد من أن يقتصر على ذلك، إذ كانوا يدركون أن النبات هو مصدر الدواء الأول؛ فعنوا بإجراء التجارب على ثمار الأشجار قبل تطعيمها وبعده، والوقوف على ما طرأ على تأثيرها الطبي من تغيير خشية أن تتغير خصائصه تغيراً سلبياً يضر بالمرضى، بيد أن الأمثلة التي ساقوها تؤكد أن التأثير العلاجي لجميع أجزاء هذه الأشجار كان إيجابياً وأقوى فاعلية من غير المطعم، ومن ذلك:

1- يذكر ابن وحشية أن السقمونيا<sup>(24)</sup> إذا رُكب على تين صادق الحلاوة أكسب التين الآتي:

أ - تأتي ثمار التين التي كانت صادقة الحلاوة قبل التركيب شديد الإسهال.

ب- ورق شجرة التين يحلل من البدن البلغم والصفراء.

ج- قضبان التين الرطبة إن جُففت وسُحقت ناعماً واكثحل بها أزلت الرطوبة من العين<sup>(25)</sup>.

2- تركيب السقمونيا على التفاح يجعل ثمار التفاح مسهّلة، وإن كان تأثيرها أقل من التين.

3- وينكر الإدريسي<sup>(26)</sup> أن بصقليّة شجرة مركبة من أترج و نارنج يسمى ثمرها: زنبوع" يكون على هيئة النارنج سواء، إلا أنه أكبر منه بكثير، وفي قشرته فضل غلظ، ولونه أصفر، وتحديده كثير، وحماضه وحبه كحماض النارنج سواء، وتركيب قواه كتركيب الأترج، أو هو قريب منه، وحرارة قشرته حارة مجففة.

إذا هي قطعت وجُففت وسُحقت وعُجنت بعسل منزوع الرغوة كان درياًقا للسموم.

وإذا شرب سحيقه بالزيت يقي من الأمعاص.

وإذا شرب من عروقه وزن درهمين مسحوقة بماء نفعت من لسعة العقرب.

وإذا اتخذ من زهره دهن نفع من الخدر وحلل الصلابة التي في الرحم  
حمولا.

وإذا أخذ من ماء حماضه رطل وأضيف إليه مثله سكرًا وعقد منهما شراب  
كان موافقًا لأصحاب العلل الحارة<sup>(27)</sup>.

إذا أردت أن يكون العنب عطرا أو شديد الحلاوة أو مسهلا أو ترياقا أو  
يكون ذا طعم أحد الحبوب الحلوة كحبوب الفواكه الحلوة الطيبة، فخذ قضيبا  
مختارا من عنب مثمر فيشق نصفين على طوله مع المحافظة على عقده، وينقى  
من وسطه من المخ، واجعل مكان المخ ما شئت من الحلاوات وغيرها مثل  
السكر أو العسل أو لب اللوز المدقق أو المحمودة أو الصبر أو الترياق أو  
المسك أو الكافور. ثم يضم القسمان حتى يرجعا إلى هبئتهما الأولى ويربطان  
ويطليان بأخشاء البقر الطري واغرسه حيث شئت وتعاذه<sup>(28)</sup>.

لإكساب الخريق الأسود قوة مسهلة استنتبه عند أصل الكرمة فيأتي الشراب  
المتخذ من تلك الكرمة ذا قوة مسهلة<sup>(29)</sup>.

ومع تحقيق الثراث النباتي والصيدلاني سوف تظهر دلائل وسمات أخرى  
تبرز جهود علمائنا السابقين في مسيرة التنوير والنهضة.

وأخيرا يحق لنا أن نقابل سؤال المعترضين على الاهتمام بالثراث بهذا  
السؤال:

هل شملت التّقنيّات الزراعيّة الحديثة جميع المناطق المزروعة اليوم؟

والإجابة بلا تردد أو ريب: كلا، فهناك مناطق كثيرة لم تطلها عوامل الحداثة وتطبيق المفاهيم العلمية للزراعة الحديثة، وهناك قطاعات كبيرة جداً في جميع أنحاء العالم لا تزال تعتمد على ما اعتمد عليها القدامى من أساليب الزرع والتسميد ومقاومة الآفات وجني المحاصيل وحفظها... الخ.

ولهؤلاء ألا يمكن أن تقوم هذه العلوم التراثية وتلك الخبرات القديمة بدور إيجابي في خدمة الفلاح التقليدي الذي لا يزال يستخدم الفأس والمحراث والساقية والنورج والتزرية بالريح وحفظ الحبوب في صوامع الطين المصنوعة محليا. كما يمكن لهذا الفلاح أن يفيد من خبرات السابقين في الغرس والتقليم والتطعيم وزيادة الإنتاج بالسبل التي اعتمد عليها القدامى والتي لم ينكرها عليها أحد من المحدثين.

كما يمكن للفلاح التقليدي الاعتماد على تسميد أرضه بالمواد العضوية التي تمد الأرض بالمواد الغذائية التي يحتاجها النبات دون أن تترك وراءها آثاراً سلبية تضر بصحة المستهلكين.

كما يمكن لهؤلاء الفلاحين أن يفيدوا من طرق مقاومة الآفات القديمة والتي لا تخلف وراءها ضرراً بالمستهلكين، تجنباً للطرق الكيماوية الحديثة التي ثبت أن آثارها الجانبية طالت صحة المزارعين والمستهلكين ولم تحقق الغرض منها بالصورة المطلوبة.

### المصادر والمراجع والهوامش:

- 1- لسان العرب: ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وآخرين، دار المعارف (ف ل ح):3458.
- 2- شمس العلوم: نشوان بن سعيد الحميري:5249/8.
- 3- الفلاحة الرومية: قسطا بن لوقا، تحقيق: وائل عبد الرحيم، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، 199/1420: 89.
- 4- تاج العروس: مرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة حكومة الكويت:(ف ل ح):27/7.
- 5- تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، الطبعة الأولى، 1997: 107/8.
- 6- مفتاح السعادة ومصباح السيادة:أحمد بن مصطفى (طاش كبرى زاده)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م:308/1.
- 7- الفلاحة الأندلسية:ابن العوام: تحقيق: أنور أبو سويلم وآخرين، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، الطبعة الأولى، 2012/1433: 10/1.
- 8- حسن الصناعة في علم الزراعة: أحمد ندى، ط بولاق، مصر:21.
- 9- المقدمة: ابن خلدون، دار العودة، بيروت، 1981: 322.
- 10- الفلاحة النبطية: ابن وحشية، تحقيق: توفيق الفهد، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق:1282/2.
- 11- الفلاحة الأندلسية:525/1.
- 12- السابق:529/1.
- 13- السابق:530/1.
- 14- السابق:355/3.

- 15- السابق: 120/1.
- 16- السابق: 498/3.
- 17- السابق: 501/3.
- 18- السابق: 633/4.
- 19- السابق: 189/3.
- 20- الفلاحة النبطية: 12/1.
- 21- الفلاحة الأندلسية: 400/1.
- 22- السابق: 426/1.
- 23- السقونيا: مصطلح يوناني، يسميها القدامى المحمودة، وهو نبات له أغصان، مخرجها من أصل واحد، تجمع من أصوله رطوبة تستعمل مسهلاً. الجامع: ابن البيطار، تحقيق: د.محمود مهدي، مركز تحقيق التراث، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، 2015: 603/2.
- 24- الفلاحة النبطية: 1293/2.
- 25- محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الهاشمي القرشي، ولد في مدينة سبتة المغربية عام 493 هـ، ألف في فنون عدة، توفي عام 559 هـ. الوافي بالوفيات: الصفي: 73/1.
- 26- صورة مخطوطة الجامع لصفات أشتات النبات: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية: 10/1.
- 27- الفلاحة الأندلسية: 453/3، 454.
- 28- السابق: 370/3.



## رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

محمود شاعر: قراءة في خطاب التأسيس والغضب والتجاوز

### A Message on the Way to our Culture Mahmoud Shaker: A Reading of the Foundation, Anger, and Transgression Letter

خالد فهمي إبراهيم \*

[khalidfahmy30@gmail.com](mailto:khalidfahmy30@gmail.com)

#### المخلص

تناولت هذه الورقة: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود شاعر، وتقديم قراءة لخطاب التأسيس والغضب والتجاوز.

ورسالة شاعر عمل مؤسس مهم يصح أن يكون أحد روافد إعادة تشكيل العقل العربي المسلم على قاعدة الهوية الواقية المنتمية. وقد توقفت هذه القراءة أمام ما يلي:

- 0- مدخل: في مديح التأمل والدرس للكتب الملهمة
- 1- كليات الرسالة والعرض المضموني لها
- 2- مستويات التناقص مع الرسالة (التعاطف / الغضب)

---

\* أستاذ علم اللغة - كلية الآداب - جامعة المنوفية.  
خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

3- خطاب ما يتبقى من الرسالة على طريق إعادة تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر.

وقد كشفت القراءة عن حضور مائز لحزمة مما يصلح للبقاء إسهامًا في تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر.

**الكلمات المفتاحية:** رسالة في الطريق إلى ثقافتنا؛ محمود شاعر؛ تاريخ الثقافة العربية؛ التغريب والتبعية؛ غضب مرتقب؛ تشكيل العقل العربي المسلم.

### **Abstract**

This paper deals with: A message on the way to our culture, by Mahmoud Shaker, and provides a reading of the foundation, anger, and transgression letter.

Shaker's message is an important founding work that should be one of the tributaries to reshape the Arab-Muslim mind on the basis of the belonging protective identity.

This reading dealt with the following:

Introduction: In Praise of Meditation and Lesson for Inspirational Books

- 1- The entireties and content of message
- 2- Acculturation levels with the message (sympathy/anger)
- 3- The content of the remainder of the message is related to the way of reshaping the contemporary Arab-Muslim mind.

The reading revealed a distinct presence of a package, which is suitable for survival, as a contribution to shaping the contemporary Arab- Muslim mind.

This reading resulted in a set of important results:

First- The diversity of levels of sympathy with the message reveals its importance in contemporary cultural formation, particularly in the Islamic case.

Second- Acculturation of Dr. Saad Maslouh represented the most positive acculturations because of its critical and civilized vision.

Third- The message represented a pattern of institutional intellectual works produced by the awareness of the general civilizational plight that afflicted the Muslim nation, and which resulted in a civilizational decline.

Fourth- Reading and analyzing the message revealed a package of things that remains to serve the processes of shaping the contemporary Arab-Muslim mind on the basis of belonging identity, and appreciating languages, commonalities, and different cultures.

**Keywords: A Message on the Way to our Culture, Mahmoud Shaker, History of Arab culture, Westernization and Dependency, Anticipating Anger, Shaping the Arab-Muslim Mind.**

## مدخل

### في مديح التأمل والدّرس للكتب المهمّة

#### 1/0 في الخبرة المعاصرة

تنبّه عدد من المؤسسات الثقافية الرسمية وغير الرسمية - منذ عدة عقود - إلى أهمية التّوقف أمام مجموعات من الكتب المؤسسة في تشكيل العقل العربي في العصر الحديث، واتخذت خطوات عمليّة في اتجاه إطلاق مشروعات تنقيفيّة تكوينيّة تهدف إلى تحليل الكتب العلامات في تاريخ الثقافة العربيّة وغير العربيّة، وتستخلص ما يمكن أن يطلق عليه خطاب ما يبقي!

وهذه المشروعات التي انطلقت منذ عقود كانت تذكر بطبيعة العقل العربي الذي نشط في أمة اشتهرت بأنها "أمة الكتاب" على حد تعبير آدم جاسك في مقدمة كتابه: [تقاليد المخطوط العربي، آدم جاسك، إعداد محمود محمد زكي، تقديم ومراجعة د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربيّة، القاهرة، 2008م] (10/1)؛ حيث يقول:

"الحضارة العربيّة الإسلاميّة حضارة كتاب، الكتاب فيها ذو قداسة خاصّة، اكتسبها من الدّين الإسلاميّ ذاته، وتحديداً من كتاب هذا الدّين (القرآن الكريم) الذي لا ينافسه أي كتاب آخر لدى العرب المسلمين. هذه المكانة العالية التي يشغلها الكتاب حفّزت الجهود على إنتاجه مبكراً حتى ليتمكن القول إنه وهذه "الحضارة" قرينان بدأ معاً.

وقد عرفت الخبرة المصرية والعربية والإسلامية المعاصرة مشروعين في هذا السياق هما:

**المشروع الأول:** مشروع تراث الإنسانية الذي أطلقته وزارة الثقافة المصرية سنة 1381هـ - 1962م، وخصّصت له دورية شهرية وعيّنت له هيئة مشرفة تولّى رئاستها عدد من رموز الثقافة المصرية والعربية المعاصرين من أمثال: عباس العقاد (ت 1383هـ=1964م) وزكي نجيب محمود (ت 1414هـ=1993م) وغيرهما.

وقد تميّز هذا المشروع بانفتاحه على النماذج المعرفية المختلفة والثقافات واللغات المتنوعة.

**المشروع الثاني:** مشروع أهم الكتب التي أثرت في فكر الأمة في القرنين التاسع عشر والعشرين (الرابع عشر والخامس عشر للهجرة).

وقد كان الدافع وراء إطلاق هذا المشروع الذي نهض به مكتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي بمصر ممثلاً في مركز الدراسات المعرفية، وتولى الإشراف عليه: د. عبد الحميد أبو سليمان (ت 1442هـ=2021م) ود. رفعت العوضي (1357هـ=1938م) ود. عبد الرحمن النقيب (ت 1442هـ=2021م). وفحص المشروع يكشف عن هدف واضح يتوجه إلى تجاوز حالة التراجع الحضاري والضعف، والعيالة على الحضارة الأجنبية المعاصرة، يقول د. عبد الحميد أبو سليمان في مقدمة المجلد الأول من المشروع [أهم الكتب التي أثرت في فكر الأمة، (محدد الفقه والقانون، والثقافة الإسلامية) إشراف د. عبد

الحمد عبد الرازق، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة مصر، ودار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1438هـ=2017م]: (ص6)

"إن السبب فيما تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم هو فكر الأمة وما أصاب هذا الفكر من تسطيح وانحراف".

ويقول عن المشروع: (ص6):

"هو عمل فكري يغوص في جذور فكر الأمة بهدف معرفة منابع القوة واستحضارها أمام مفكري هذا الجيل وشبابه، ولمعرفة الجيد منه مما كان له أثر محمود، والغث مما كان له أثر سلبي غير مرغوب".

وهذا العمل الفكري يهدف إلى (ص6):

"أن ندرك أسباب ما نحن فيه من حال، ولماذا صار حالنا إلى ما نرى؟ وكيف يمكننا أن نصلح هذا الفكر؟ وكيف يمكننا أن نسهم في إحياء حضارة أمنا الإسلامية؟ وكيف يمكننا أن نعيد إليها دورها البناء في عالم اليوم".

## 2/0 استمداد الخبرة المعاصرة

ومن ثم فإن التوقف المتأمل الفاحص لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر (ت 1418هـ=1997م) يستند في شرعيته إلى نوع من الاستمداد من هذه الخبرة المعاصرة بوجه عام.

يضاف إلى ذلك الاستمداد العام المستند إلى الخبرة المعاصرة السابقة نوع استمداد خاص؛ ذلك أن مشروع [أهم الكتب التي أثرت في فكر الأمة في فحص أعمال المحور الثاني: محور قضايا فكرية- خصص فصلاً لفحص:

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا [ (2) ص ص 513-536) نهض به د. السيد فرج:

وتقوم هذه القراءة على ثلاثة محاور هي:

أولاً- كليات الرسالة (عرض المضمون).

ثانياً- مستويات التثاقف مع الرسالة.

ثالثاً- خطاب ما يتبقى من الرسالة.

(أولاً)

### كلمات الرسالة (عرض المضمون)

#### 1. الانتماء المعرفي لرسالة في الطريق إلى ثقافتنا

هذه نقطة مهمة جداً على طريق تشغيل هذه الرسالة في بناء العقل المسلم المعاصر، وقراءة الرسالة تكشف عن انتمائها المعرفي إلى ما يمكن تسميته بالتأريخ للعقل العربي المسلم في العصر الحديث، وما تعرض له من: أ- تشوهات وضربات موجعة.

ب- تدويخ ولفظ عن الطريق وإرادة اغتيال هذا العقل وهي نص في تاريخ ما

تعرضت له الثقافة العربية الإسلامية، وقيامها على أصول ما قبل

المنهج، وأصول المنهج وعمل اللغة في تشكيل هذا العقل المسلم.

وهي نص في نقد التبعية والتغريب وتشريح التفرغ الثقافي، وهي نص

في السيرة الذاتية التي تطلب النجاة من المنظور المعرفي.

## 2. الرسالة ناتج عمل المحنة الحضارية والمحنة الذاتية

هذه الرسالة صدرت عما يمكن أن نسميه بسياق المحنة، إن في تجليها الحضاري العام وإن في تجليها الذاتي الشخصي.

وقد قادت ظروف هذا الإنتاج إلى تنبه محمود شاكر إلى ما يلي:

أ- انتشار بلاغة التشوهات المعرفية التي أحاطت بالعقل العربي التي وفدت على العالم العربي مع الغزو والاحتلال الغربي الذي أنتج تيارات العلمانية العربية.

ب- تفشي علامات التغريب والتبعية بعد زمان طويل من ممارسة الاستهانة بالتراث العربي قصد إلى أن تعرقل سهمة الإسلام في تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر، وهو ما تمثل في فرض اللغات والثقافات الأجنبية بتأثير ممارسات الاحتلال الأجنبي، أسهم في تعميقها توقف المد الإسلامي العالمي لأسباب كثيرة.

## 3. الرسالة وطريق الخروج من النفق

وفحص الرسالة يكشف عن تنبها إلى ما يمكن أن يمثّل طريقاً للخروج من

التيه، وهو الطريق الذي تتكون مساراته فيما يلي:

أ- تمايز الثقافة العربية الإسلامية المستمد من:

- الدين (رأس كل ثقافة هو الدين) بالمعنى العام.

- اللغة (المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين).

- الأخلاق (الأصل الأخلاقي للإسلام الاصطلاحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم).

وهذا الاستمداد الثلاثي قائم على التداخل، وعدم الفصل بأي حال.

ب- تزييف القول بوجود ثقافة عالمية، وأن القول بهذا الوجود هو كلمة باطلة".

وهو بهذا يترجم عن مفهوم النموذج التفسيري الإسلامي الحاكم لتصورات المسلم ورؤيته للعالم.

ج- تداخل علم العرب الذي يترجم عنه لإيمانه بأن المكتبة العربية كتاب واحد أنتجه الدوران حول القرآن الكريم، وأنتجه طبيعة النموذج المعرفي الإسلامي المائز، بمعنى أن المكتبة العربية مكتبة موسوعة شمولية تترجم عن "شمول" الإسلامي على خلاف واضح جدًا مع النماذج المعرفية الأخرى.

## (ثانياً)

### مستويات التناقص مع رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

تتوقف هذه القراءة الرأهنة أمام ثلاثة من الذين تتأقنوا مع الرسالة من منصات مختلفة.

وهذه المتأقنات هي:

## 1- مثاقفة عايده الشريف الصحفية المتعاطفة مع التوجه الشاكري، المتحيزة لمقولاته وأفكاره.

وهذه النظرة المتعاطفة المتحيزة لمنجز شاكر من جانب عايده الشريف جعل منها صوتاً "مادحاً يتغنى" بمقولات شاكر حول الثقافة وسهمة اللغة في تشكيل العقل العربي، والموقف من الاستشراق والنخبة العلمانية المتغربة. إذن تمثل مثاقفة عايده الشريف امتداداً لصوت شاكر والمدرسة المتعاطفة المتحيزة معه وهو صوت التعاطف.

## 2- مثاقفة د. مجدي وهبة (صوت الغضب المرتقب)

وقد اتفق مجدي وهبة مع شاكر في مسألة التفرغ الثقافي الذي مارسه الاحتلال الأجنبي لمصر بتأثير دانلوب. وقد اتفق معه أيضاً في مسألة أثر التعمق في اللغة في تشكيل العقل العربي المعاصر.

ونبه مجدي وهبة عن اختلاف المسيحية الشرقية عن المسيحية الغربية الشمالية، وخلص من ذلك كله إلى أن الحوار مع المسيحية الغربية لا جدوى منه، ولا سيما التأثير المزلزل الذي أحدثه الفتح الإسلامي للقسطنطينية. وقد ترتب على ذلك إقرار مجدي وهبة تبعاً لشاكر بعجز الاستشراق عن فهم "الظاهرة" و"العلم" العربيين.

كما ترتب على ذلك استحالة التّصالح مع المسيحيّة الغربيّة، ومن ثمّ عدم جدوى الحوار مع المتغريين تغريباً كلياً من النخب العلمانيّة في الدّاخل المصريّ والعربيّ.

### 3- مثاقفة د. سعد مصلوح (صوت التجاوز)

دخل د. سعد مصلوح من منظور مختلف، وإن اشترك معه في الإيمان بالإسلام، والانتماء للتراث الإسلاميّ والتعاطف معه، والانتماء الأسلوبى لمدرسة الرفاعي، مدرسة البيان التي ينتمي إليها شاكر نفسه.

وتتلخص مثاقفة د. سعد مصلوح لمحمود شاكر في الرسالة فيما يلي:

أ- عمل الاستشراق شر يسكنه الخير، سعيًا للتخلص من الرؤى الأحادية التي يتترس خلفها قطاعات من التيارات السلفيّة المعاصرة وهو نمط من عمل العقل المسلم من منصة الإنصاف.

ب- إمكان التّصالح وارد بين الشرق والغرب تأسيساً على استثمار المشترك الثقافيّ بين ثقافات الشعوب المختلفة، ولا سيما أصول الأديان السماويّة واحدة تتصل بالإسلام اتصالاً واضحاً.

ج- لا توجد ثقافة تتحرك أو يمكنها أن تتحرك بمعزل عن غيرها من الثقافات الأخرى، ولا سيما من المنظور المعرفى الإسلاميّ.

د- ضرورة تنويع تحصيل الألفة واللغات من طريق تنويع جغرافيات الابتعاث للشبيبة المسلمة إلى بلدان الغرب، وهو بهذا ينقد الأساس البيولوجى للسليقة اللغوية، ويؤسس للأساس الاكتسابى للغات.

هـ- ظهور أصوات غربيّة متعاطفة مع بعض قضايا الأمة المسلمة المعاصرة دليل على تعقّد العلاقات، لإمكان التصالح - في مساحات معينة - على الأقل.

والحقيقة أن صوت سعد مصلوح في هذا السياق يبدو أكثر اتصالاً بروح النموذج المعرفي الإسلامي في الانفتاح على ثقافات الآخر.

وهو الأمر الذي أشار إليه ابن رشد في فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال عندما قرر أننا مأمورون أن نقرأ منجز الآخر في ضوء ما جاءنا من الوحي الكريم الخاتم.

وهذا صوت إيجابي ينتصر للسيرورة المعرفية بوصفها حقيقة صلبة تحكم حركة العالم.

و- يختلف د. سعد مصلوح أن نقد النصوص أوسع من الدائرة الفيلولوجية التي تبناها شاكر في أصول المنهج، وأصول ما قبل المنهج.

ومن ثم فإن هذه الأصوات المتناقفة وتنوعها مسألة مهمة جداً على طريق توظيف الرسالة في التكوين المعرفي لشباب الأمة في الوقت الراهن.

### (ثالثاً)

#### رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: خطاب ما يتبقى

إن الحق يقضي بأن يكون أهم ما ينبغي التنبه إليه في هذه القراءة هو محض خطاب ما يتبقى من رسالة شاكر؛ لكي يكون هو مادة التوظيف والاستثمار في عمليّات التكوين الثقافي والمعرفي للعقل العربي المسلم.

وهذا الذي يبقى يتمثل فيما يلي:

أ- ضرورة فحص أثر المحنة العامّة الحضاريّة في صناعة برامج التكوين الثقافي والمعرفي اللازمة لتشكيل العقل العربي المسلم المعاصر وينتج فحص أثر المحنة الحضارية أهمية الوعي:

- بالتراجع الحضاري، وضرورة تجاوزه.
- يتجاوز الاستهانة بالتراث؛ لأن هذه الاستهانة أثمرت ثمرات مرة في تشكيل العقل العربي المسلم.
- ب- ضرورة العناية البالغة بتكوين العقل العربي المسلم على قاعدة تحصيل اللغات، واعتبار الدين بوصف ذلك شرطاً مؤسساً حاكماً لرؤية العالم.
- ج- ضرورة تعظيم المشترك الثقافي المتبقي من الإسلام، أو الدين العام الذي يربط بين نسخ الأديان السماوية جميعاً.
- وهو المشترك المتمثل في:
- استقرار فكرة التوحيد.
- استقرار فكرة النبوة.

- استقرار فكرة الوحي وإرسال الكتب.
- استقرار نوع من المشترك في منظومات القيم الأخلاقية.
- د- منجز نقد النصوص عناية بالغة تنهض على عدم استبعاد الفيلولوجيا، انتصاراً للمناهج الحداثية، وما بعد الحداثية التي تعمد إلى تقويض المرجعيات وتشظي المعنى.
- وهو ما يمكن أن يفهم بشكل واضح جداً من دعوة شاعر إلى استثمار منجز سيبويه في الكتاب بوصفه صورة من صور توظيف النحو الرشيد الذي يجمع في طياته:
- القواعد
- والمعجم
- واليلاغة
- والدلالات
- والسياقات المتنوعة بما فيها السياق الأعلى الحاكم الذي شكله وصاغه الوحي الكريم في أوصال المعرفة في الأمة.
- ه- الانطلاق في عمليات تجديد تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر من (اليقظة الفكرية" المعروفة بالغضب الإيجابي الذي هو علامة إخلاص وعلامة إيجابية تهدف إلى خدمة الثقافة العربية الإسلامية.
- وهذه النقطة الفكرية المعروفة بالغضب الإيجابي تنهض على رعاية ما يلي:
- استعادة التحيز للتراث، وإسقاط أجواء الاستهانة به.

- دراسة الآخر، وفحص منجزه بصورة عميقة تحاصر المختلفة مع النموذج المعرفي الإسلامي، وتعزز استثمار المنطق مع هذا النموذج.
  - الوعي بطبيعة الوظيفة الحضارية المنوط بالأمة استعادة النهوض بها، بوصفها الأمة الشاهدة.
- ومن كل ما سبق يتضح لنا أن النظر إلى رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر بما هي عمل مؤسس ومركزي في الثقافة العربية المعاصرة ما يزال قادراً على أن يمنح الحركة الفاعلة لإعادة تجديد تشكيل العقل العربي المسلم على هدي محددات استعادة الذات - طاقات كبرى من الدعم، وطاقات كبرى من الوقود الدافع لسياسات تعزيز هذه الاستعادة الآمنة للذات.

## الخاتمة

تناولت هذه الدراسة بالفحص قراءة في رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لمحمود شاكر، بهدف الإجابة عن سؤال ماذا يتبقى منها على طريق تعزيز سياسات تشكيل العقل العربي المسلم قاعدة الهوية المنتمية.

وقد توقفت هذه القراءة أمام المطالب التالية:

0- مدخل: في مديح التأمل والدّرس للكتب الملهمة المعاصرة.

1- كلمات رسالة محمود شاكر أو العرض لمضمون الرسالة.

2- مستويات التثاقف المعاصر مع الرسالة، وقد انخرطت القراءة في تحليل مثاقفات مستوى التعاطف الذي مثّله عايده الشريف، ومستوى الغضب الذي مثّله د. مجدي وهبة، ومستوى التجاوز الذي مثّله د. سعد مصلوح.

3- فحص خطاب ما يبقي من الرسالة.

وقد نتج من هذه القراءة حزمة من النتائج المهمة هي:

أولاً- تنوع مستويات التعاطف مع الرسالة كاشف عن أهميتها في التشكيل الثقافي المعاصر ولا سيما في الحالة الإسلامية.

ثانياً- مثّلت مثاقفة د. سعد مصلوح أكثر المثاقفات إيجابية لما تمتعت به من رؤية نقدية حضارية.

ثالثاً- مثلت الرسالة نمطاً من الأعمال الفكرية المؤسسة التي أنتجها الوعي بالمحنة الحضارية العامة التي أصابت الأمة المسلمة، ونتج عنها من التراجع الحضاري.

رابعاً- كشفت قراءة الرسالة وتحليلها عن حزمة مما يبقى على طريق خدمة عمليات تشكيل العقل العربي المسلم المعاصر على قاعدة الهوية المنتمية، وتقدير اللغات والمشارك فيه والثقافات المختلفة.

## المراجع

- 1- تقاليد المخطوط العربي، آدم جاسك، إعداد محمود محمد زكي، تقديم ومراجعة د. فيصل الحفيان، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 2008م.
- 2- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.
- 3- غضب مرتقب، د. مجدي وهبة، ترجمة زهير علي شاكر، مطبعة المدني القاهرة، 1991م.
- 4- في النقد اللساني.. دراسات ومثاقفات في مسائل الخلاف . د. سعد مصلوح، (مبحث: رسالة في الطرق إلى ثقافتنا، لمحمود شاكر، ص ص 13-30) عالم الكتب، القاهرة، 1424هـ = 2004م.
- 5- محمود شاكر.. قصة قلم، عايذة الشريف، دار الهلال، القاهرة، ع 563 نوفمبر 1997م.

## تراثنا سياج هويتنا

### ضرورة الحفاظ عليه في عصر العولمة

## Our heritage is the fence of our identity The necessity of preserving it in the era of globalization

محمد فتحي فرج\*

[mffbayomy@yahoo.com](mailto:mffbayomy@yahoo.com)

### ملخص

تتناول هذه الورقة التعريف بأهمية تراثنا العربي الإسلامي في الحفاظ على هويتنا وشخصيتنا المتفردة لا سيما في زمن العولمة التي تسعى إلى تذويب الهويات المختلفة وتمييطها أو صبها في قالب واحد لصبغها بالطابع الغربي الأمريكي. كما أوضح البحث أنه لا تناقض بين الحفاظ على التراث والاهتمام بالمستقبل.

كما تعرض البحث للتعريف بالتراث العربي والمخطوط العربي منوهاً بتراثنا في المجالات العلمية والطبية والأدبية المختلفة. وقد بين البحث الوظائف الخاصة بالتراث على المستوى الشخصي والعالمي، فبالنسبة للأولى فهو يمثل ذاكرتنا القومية، وبالنسبة للثانية فقد أسهم في إمداد العالم الغربي بأسس تقدمه

\* أستاذ علم الحيوان بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، والمنوفية.

في وقت من الأوقات، وفضلاً عن هذا فلا يمكن الاستغناء عن التراث المتعلق بعقيدتنا أو كنوزنا الأدبية والشعرية واللغوية. كما تعرّض البحث لمفهوم العولمة والتحذير من الوقوع في فخها وعن هذا فيمكن استثمار جانبها المضيء في الحفاظ على تراثنا. كما ألمحت الورقة إلى ما يجب علينا فعله تجاه تراثنا ومخطوطاتنا للحفاظ عليهما من الضياع والانقراض. واختتم البحث بكلمة حول التجديد والتراث في عصر العولمة. **الكلمات المفتاحية:** التراث العربي الإسلامي - العولمة - المخطوط العربي.

## **Abstract**

This paper aims to highlight the importance of our Arab-Islamic heritage in preserving our unique identity and personality, especially in the era of globalization, which seeks to dissolve and stereotype different identities or cast them in one mold to imbue them with the American Western character. The research also showed that there is no contradiction between preserving heritage and caring for the future.

The paper also presented an introduction to the Arab heritage and the Arabic manuscript, noting our heritage in the various scientific, medical and literary fields. The research showed the functions related to heritage at the personal and global levels. For the first, it represents our national memory, and for the second, it contributed to providing the Western world with the foundations for its progress, particularly in the Middle Ages. Moreover, the heritage related to our faith or

our literary, poetic and linguistic treasures cannot be dispensed with.

The research also presented the concept of globalization and a warning against falling into its trap. However, its bright side can be invested in preserving our heritage. The paper also hinted at what we must do about our heritage and our manuscripts to preserve them from loss and extinction. The research concluded with a speech about innovation and heritage in the era of globalization.

**Keywords:** Arab-Islamic heritage - globalization - the Arabic manuscript.

التراث العربي رافد مهم من روافد الحضارة الإنسانية الممتدة عبر التاريخ، ما في هذا من شك. وقد تجذرت هذه الأهمية وترسخت خاصة بعد بزوغ فجر الإسلام في الجزيرة العربية. فقد كان للإسلام فضل كبير في تنمية هذا التراث، ونضجه، وتقديمه للعالم لا سيما بعد الفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، ودخول أمم كثيرة ذات حضارات متنوعة. تضرب بجذورها في عمق التاريخ. في رحاب وتحت راية الإسلام، مع اتخاذها للسان العربي المبين أداة تفكير، وتفاهم، وتأليف عوضاً عن لغاتها الأصلية الموروثة.

وفي هذه الرقعة الممتدة من الهند شرقاً إلى الأندلس غرباً تحت راية الإسلام في بُعد زمني يمتد هو أيضاً ما بين القرن الهجري الأول إلى القرن العاشر. أقول في هذين البعدين مكاناً وزماناً ترك التراث العربي الإسلامي للعالم زاداً معرفياً، وذخراً ثقافياً أضاف الكثير إلى الحضارة الإنسانية من علم، وثقافة،

وأداب، وقيم إنسانية رفيعة، ومنجزات حضارية أفادت ولا تزال تفيد البشرية جمعاء.

وقد أثرى التلاحح الفكري والحضاري هذا التراث الإنساني<sup>(1)</sup> فنتج عنه زاد فكري متنوع ضمَّ صنوفاً شتى من العلوم والفنون والآداب، والثقافات التي أضافت الكثير والأصيل إلى التراث الإنساني الذي أدى إلى التطور والتقدم الحضاري الواضحين، بالمقارنة إلى الفترات التاريخية التي سبقته.

وقد عرّف المستشرقون والعلماء الغربيون قيمة هذا التراث ممثلاً في مخطوطاته، سواء المحقق منها أو غير المحقق، فاستغلوا فترات الحروب والقلاقل ليجمعوه ويستولوا عليه بشتى الطرق، ثم نقلوه إلى بلادهم، وأخذوا يدرسونه، ويحققونه، ويستفيدون من معطياته أيما إفادة، ثم صدّوره لنا في صور شتى.

ومع هذا فكثير من المستشرقين إذا كانوا قد وُفقوا حيناً في بيان قيمة وأهمية هذا التراث كمنجز إنساني، أضاف الكثير إلى بني الإنسان، فقد أخفقوا أحياناً أخرى<sup>(2)</sup> في تحقيق هذا الهدف؛ مما يضع في أعناقنا -العرب والمسلمين بشكل- عام أمانة نفض التراب عن هذا التراث لا سيما المخطوطات التي لم تُطبع بعد، وإعادة تقديمه لنا وللعالم كله في صورته الحقيقية.

وفي هذا يقول واحد من أقطاب التراث وهو الدكتور حسين نصار، رحمه الله ما فحواه: تاريخ العلم من الدراسات العالمية التي أسهم فيها الأوروبيون بنصيب وافر في العلوم العربية المتعددة، والوفاء للوطن المصري والأمة العربية

يهيب بنا ألا نترك الدراسات الخاصة بترائنا بين أيدي أجنب عنه، خاضعة لصدقهم أو كذبهم، لعدلهم أو انحيازهم، لفهمهم أو عدم قدرتهم على الفهم، ويفرض علينا أن نشارك بنصيب موضوعي واضح في هذا التاريخ، ولن نستطيع أن نعطي هذا البحث ما يستحق من ضمانات إلا بوجود هذا التراث العلمي الذي نؤرخ له ميسراً بين أيدينا، ولا يمكن هذا إلا بحفظ هذا التراث في خزائن كتب حصرية، وبتحقيق نماذج مختارة منه نضعها بين أيدي جميع القراء، لا الباحثين وحدهم، ففي هذه النماذج منافع كثيرة إلى جانب الجدوى التاريخية. وهذا التراث ليس كتباً فحسب، وإنما هو كشف مهمّة، ونظريات كثيرة، وآراء رشيدة، وتفكير علمي، وسلوك حضاري، وهي كلها مفخرة للعالم العربي ينبغي أن يسجلها ويبرزها المؤرخون والمهتمون بهذا التراث<sup>(3)</sup>.

### التراث والمستقبل:

التراث كما يصفه بعض الباحثين هو صلة الماضي بالحاضر وصولاً إلى المستقبل حتى إنه يُقال: إذا أطلقت نيران "مسدك" على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك. فالتراث هو الهوية التي تميّز النجاعات البشرية ويخزن ثقافتها، ويسهم في استدامتها وزيادة تماسكها الاجتماعي وعيشها السلمي الآمن<sup>(4)</sup>.

ومن ناحية أخرى، فإن قضية تراثنا، والعلمي منه على وجه الخصوص، لا تتركز على أساس من تقديس الماضي واجتراره ومحاولة العيش فيه، وإنما على أساس من التطلع إلى المستقبل، والاهتمام به في المقام الأول. فهو وإن

كان تراثاً أنتجه البشر، بيد أنه قد نشأ وترعرع وازدهر تحت راية الإسلام، وبفضل معاييره الموضوعية، وأسه النبيلة التي تُعلي من قيم الحرية والعدل والتسامح والصدق، وترفع من شأن العلم والعلماء، فهو من ثم نتاج كل ذلك ومحصلة له.

وقبل أن نسترسل في هذا السياق ينبغي أن نوضح أمرًا هامًا، فالبون شاسع بين الإسلام كعقيدة وشريعة، ومبادئ خالدة دائمة التواجد الحي، والحضور الفعال، في قلب المسلم وعقله وضميره، وبين ممارسة بشرية تمخضت عنها منجزات في كل المجالات، خلال فترة زمنية متطاولة، تصل الآن إلى أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان؛ في الفقه وما يتصل به من اجتهاد، وعلوم التفسير والتأويل، وفي مجالات الأدب والشعر والعلوم الإنسانية، وفي تخصصات العلوم الطبيعية والطبية والصيدلانية، إلى غير هذا وذاك من نتاج العقل البشري، كل هذا الميراث في هذه النواحي والمجالات خاضع لظروف الزمان والمكان، ومن ناحية أخرى، فإنه كنتاج بشري، المفروض أنه يتلاءم أيضًا مع التطور الحادث فيها جميعًا بحيث لا تتناقض مع معطيات العصر، ولهذا فلا بد من غربلة هذا التراث لا سيما التراث العلمي على نحو خاص بشكل مستمر، للتعويل على ما يصلح منه لزماننا، ووضع الأجزاء الأخرى منه، والتي تجاوزها الزمن، في متحف التاريخ؛ لتكون شاهدة على ما صنعه الأجداد وأنجزوه، في وقت من الأوقات، وهو يعتبر في الوقت ذاته بمثابة مرصد حساس

للقوف على الكيفية التي ترقى بها العقل البشري في معالجته لمختلف القضايا والظواهر، وما قام به من اكتشافات ومنجزات في كل مجالات النشاط الإنساني. أما الجوانب التراثية التي تتعلق بالدين فهي التي تشكّل الأرضية الثقافية والفكرية والفلسفية لنا؛ ولذا فإن ثمة تلازماً بين العروبة والإسلام من خلال هذه الجوانب، وعلى هذا فإن الاهتمام بالتراث القومي ينطلق من كونه يؤصل هويتنا، ويبعث تاريخنا، ويمنحنا خصوصيتنا كأمة متسامحة<sup>(5)</sup>.

وإذا كنا نعاني في الوقت الراهن من حالة إفلاس حضاري بكل المقاييس، فإن أحد المداخل الهامة للخروج من هذا المأزق أن نلجأ إلى ما لدينا من كنوز الآباء والأجداد، لا لنستعين بها هي نفسها، ولكن لنرى الوسيلة التي توصل بها الأجداد للحصول عليها، ففي هذا المنهاج وفي هذا الطريق، سر الفلاح ومفتاح النجاح، ومن ثم فالاهتمام به يمنحنا طاقة على العمل من خلال رصد منجزات أجدادنا حتى لا نعاود الانطلاق من نقطة الصفر مرة أخرى<sup>(6)</sup>.

وقبل أن نخوض فيما يجب علينا حيال هذا التراث، ينبغي أن نحدد أولاً بعض المصطلحات المهمة في هذا المجال حتى يتضح المنهج الذي يمكن على أساسه السير بنجاح فيه، وتحقيق الهدف المنشود من بذل الطاقة والجهد.

فالتراث كلمة كثيراً ما تلوّكها الألسنة، وتجري بها الأقلام، فتعالوا نحاول تحديد مدلوله، والوقوف على ماهيته ومعناه.

التراث كما يذكر أحد الباحثين هو كل ما أنجز في الماضي علمياً وتقنياً وقيماً ولا يزال حاضراً فينا. فهو بمثابة الذاكرة الثقافية: فهو قد يكون عربياً أو

إسلامياً أو إنسانياً، سواء أكان ذلك من طريق الوعي الفكري العاقل، أو من طريق الوعي "الأسطوري". أما توظيف التراث في قضايا العصر فهو شيء آخر يندرج تحت مقولة تفعيل التراث الواعي واللاواعي في الوعي<sup>(7)</sup>.

أما حينما نقول مثلاً: إن "التراث العربي" يحتوي على كثير من "المخطوطات" المهمة. فقد وردت في هذه الجملة ثلاثة مصطلحات ينبغي تعريفها بدقة. فأما كلمة "التراث" فنعني بها ما قدمته هذه الأمة أو تلك إلى الإنسانية من إسهام مفيد، وما أضافته إلى حضارة الإنسان من منجزات وقيم، وكان لها أثرها في الناس. وبهذا المعنى نتحدث عن تراث الإسلام والصين والهند وروما<sup>(8)</sup>، وغيرها.

وأما المقصود بكلمة "العربي": فهو نسبة إلى اللغة العربية المكتوب بها هذا التراث، وليس إلى البلاد العربية ليصبح المقصود بمصطلح "المخطوط العربي" في هذا السياق: هو ذلك الكتاب المخطوط بخط عربي قبل عصر الطباعة، سواء أكان في شكل لفائف، أو شكل صحف ضمت إلى بعضها البعض على هيئة دفاتر أو كراريس<sup>(9)</sup>.

أما عن كلمة "مخطوط": فالمخطوط مأخوذ لغة من خط بالقلم وغيره، خط يخط خطأً أي كتب أو صور اللفظ بحروف هجائية، وذكر المعجم الوسيط (الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة) تعريفاً أكثر تحديداً من سابقه؛ حيث ذكر أن المخطوط هو المكتوب بالخط لا بالمطبعة وجمعه مخطوطات، والمخطوطة: النسخة المكتوبة باليد<sup>(10)</sup>.

## أهمية مخطوطات تراثنا:

تمثل هذه المخطوطات ذاكرتنا الثقافية، وإسهامنا الحقيقي الذي قدمناه إلى العالم في الفترة التي كان لنا فيها السبق الفكري والحضاري، المشاركين بفاعلية وتأثير كبير في التقدم الإنساني بشكل عام. وهذا التراث وإن كان ينتمي لنا كوننا مصدر بئنه وتقديمه للعالم فهو أيضًا يمثل كنزًا وتراثًا إنسانيًا عامًا، نفخر أننا أصحابه في يوم من الأيام، وأنه كان حلقة مهمة من حلقات التطور العلمي والفكري على المستوى العالمي، خاصة بالنسبة للغرب الذين تلقوه واطلعوا عليه، ونقلوه إلى لغاتهم، بل ودرّسوه في معاهدهم العلمية لعدة قرون. فأفادوا من العلوم المكتوبة بالعربية كعلوم الطب، والفلاحة، والفلك، والفيزياء، والرياضيات، والهندسة، وغيرها من علوم.

ولنأخذ على سبيل المثال تراثنا الطبي الذي تبوأ مكانة رفيعة في الحضارة العربية الإسلامية، فلقد جمع الأطباء الذين ظهرُوا إبان تلك الحضارة بين النظر والعمل أو ما نطلق عليه الآن "النظرية والتطبيق"، أو بين الفكر والممارسة، واتبَعوا طرقًا عمليّة إلى جانب مناهج التأمل الطويل، فكشفوا طبائع أمراض متعددة وبيّنوا أعراضها وأوضحوا أسبابها، فكانوا بحق روادًا في هذا المجال. وما الطب الغربي إلا وليد الطب العربي، يدرك هذا جيدًا المنتبِعون لانتقال المعارف العربية إلى الغرب من خلال طرق شتى في بواكير النهضة الأوروبية وفي إبانها وما بعدها<sup>(11)</sup>.

وقد كانت تجارة الكتب العلمية التي هي عبارة عن مخطوطات رائجة بين البلاد الإسلامية؛ وذلك لمكانة العلم، وقد ذكر الرواة أن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من كتاب "القانون" للشيخ الرئيس ابن سينا، قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها أبا العلاء بن زهر الإشبيلي (464-557 هـ / 1072-1162م) تقرّباً إليه، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك<sup>(12)</sup>.

أما الإبداع الأدبي العربي فقد أفادوا منه أيضاً حتى إن بعضهم يقطع بتأثر أعلام أدبهم في ما تركوه من مؤلفات شهيرة بأدبائنا الكبار كتأثر دانتي أليجيري Dante Alighieri (1265-1321) في "كوميدياه الإلهية" مثلاً "برسالة الغفران" لإبي العلاء المعريّ (973-1057)، وما تناقلته الدراسات من اعتراف أمير شعراء الألمان يوهان ولفجانج جوته Johann Wolfgang von Goethe (1749-1832) بتأثره بالشعر الجاهليّ خاصّة المعلقات، بل وترجم بعضّها. أما "الديوان الشرقيّ"<sup>(13)</sup> الذي وصفه مؤلفه بـ"الديوان الشرقيّ لمؤلف غربي" فقد تأثر فيه بحافظ الشيرازي، كما قرأ أيضاً المتنبي وأبي تمام، وغيرهما وتأثر بهم.

أما "ألف ليلة وليلة" فقد كانت نبعاً ثراً لأدباء الغرب، ينهلون من معين خيالها الذي لا ينضب، وقد اعترف أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac (1799-1850) أحد أقطاب الرواية الفرنسية بقراءته لها سبع عشرة مرة!

## وظيفة التراث:

التراث كما ألمحنا هو ذاكرة الأمة، وهو ما تبقى لها من مجدها الذي كان، فهو من تم شاهد عيان على ما قدم الأجداد للأحفاد، ودليل الأواخر على ما كان للأوائل من دور رائد، وإسهام قائد في مجالات كثيرة، وهذا في حد ذاته له أهمية بالغة في شحذ الهمم وبعث الطاقات؛ لاستدراك ما انقضى وفات من وقت طويل ضاع في كسل وسبات. فحينما ندرك أننا كنا أصحاب مجد تليد وحضارة باذخة أمدت العالم الغربي بأسس تقدمه، فمن شأن ذلك أن يمدنا نحن بطاقة هائلة على تجاوز الفجوة الكبيرة بيننا وبين الغرب المتغطرس الذي يتيه ويفخر بما وصل إليه من تقدم هائل في كل المجالات، مدعياً أنه صاحب الأوليات والأبجديات في كل المعارف والعلوم، وينسى أو يتناسى ما كان يغط فيه من تخلف وما وصلنا نحن إليه في ذلك الحين من تقدم، بحيث يمكننا أن نقول: إن الحضارة التي ينعم فيها الآن هي وليد شرعي للحضارة العربية الإسلامية.

وفضلاً عن أن استلهم روح التراث ضرورة نفسية - إن صح هذا التعبير - فإن ما يصلح منه لوقتنا الحاضر يمكن اعتباره أيضاً قاعدة بنائية وأساس مكين للانطلاق منه والبناء عليه. والواقع أننا لا نستطيع بحال أن نستغني عن قطاع كبير جداً من هذا التراث لا سيما تلك الثروة الهائلة في مجال الفقه والتشريع والأدب واللغة، وديوان الشعر العربي عامر بكنوز من التراث لا يعرف قيمتها إلا كل ماهر به وغواص فيه.

أما استكناه جوهر القيم العليا، والمناهج العلميّة والخطوات العمليّة، التي مكّنت أجدادنا من التوصل إليه، فذلك بحق كنز ثمين ينبغي علينا أن نفرض أختامه ونتعرف عليه جيّداً؛ لانتهاج مسالكه ودروبه واستثماره في استكمال مسيرة الآباء والأجداد. يقول أحد مؤرخي العلم: إن أعظم ما قدمه العرب والمسلمون للعالم ليس فقط مجموعة المعارف والنظريّات على أهميتها ولكن أعظمها على الإطلاق هو المنهج العلميّ الذي مكّنا من التوصل إلى كل ما توصلنا إليه من معارف وعلوم.

### مفهوم العولمة:

من المصطلحات التي شاعت مؤخرًا مصطلح "العولمة" Globalization، للدلالة على ظاهرة جديدة، وهي تعني في نظر البعض ظاهرة اقتصادية تهدف إلى الهيمنة الأمريكيّة عن طريق الهيمنة التكنولوجيّة على اقتصاديات العالم وإزالة الحواجز والمسافات بين الثقافات والشعوب والأوطان، وبذلك يقترب من مفهوم الثقافة الكونيّة أو السوق الكونيّة أو الأسرة الكونيّة.

ولكي تحقق العولمة أهدافها فإنّها تربط بين مستويات متعددة كالاقتصاد والسياسة والثقافة والأيدولوجيا ومن أدواتها الشركات متعددة الجنسية التي ليس لها ولاء لأية دولة قومية، وفي الوقت نفسه تعني حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنيّة والإقليميّة، وهي نظام عالمي جديد يقوم على الحاسبات الإلكترونيّة والثورة المعلوماتيّة دون

اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم العريقة السائدة، والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم، والدخول في طور من التطور الحضاري يصبح فيه مصير الإنسانية موحدًا<sup>(14)</sup>.

وبناء على ما تقدم، فإن هذه العولمة هي أداة أمريكية فاعلة لذوبان الهويات الذاتية للأمم والشعوب ووسيلة قوية لتلاشي الثقافات الوطنية للبلاد المختلفة، وماكينة هائلة لقولبة أو تنميط القيم والعادات الخاصة للأمم والشعوب ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك فأقول: والعقائد أيضًا على هوى القوة الهائلة المسيطرة؛ ولذا فإن أردنا الحقيقة والابتعاد عن التجمل الكاذب فإننا نستطيع بأمان تام أن نستبدل كلمة الأركة Americanization بكلمة العولمة Globalization حتى نختصر الطريق ونصيب كبد الحقيقة.

واستقرأ مما سبق فإن مفهوم الهوية مهدد بالنظام العالمي الجديد أو العولمة، وإن كانت الشعوب العربية والإسلامية لأسباب نعرفها لا تستطيع الوقوف في وجه هذا التيار الجارف فلا مفر من أن تقوم. فالهوية هي أساس الأمم والشعوب بل والوطن والمواطن، والتفريط فيها تفريط في الانتماء والوجود، ومن يمن الطالع أن الهوية العربية محصنة بالدين واللغة ولكن لا ينبغي أن نركن لهذا وإنما لا بد من اليقظة في عالم مليء بالتحديات وتضارب المصالح. وهنا تتجلى أهمية التراث كترياق فاعل ضد العولمة في استمرار واستدامة الحفاظ على الهوية، والشخصية القومية لكل أمة من الأمم، أو شعب

من الشعوب يعتز بقوميته، ويفخر بهويته، ويحتفظ بمفردته الخاصة التي تميزه بين الأمم المختلفة دون أدنى وقوع هوة في الشوفينية المقيتة. ولا يفوتني في هذا السياق أن أعرج على مسألة مهمة، فيما أنه لكل عملة جانبان فإنه من الكياسة والحصافة أن نستثمر الجانب الإيجابي للعولمة، وأعني به ما تتحده وتوفره من إمكانات هائلة خاصة بالنسبة للتيسيرات الهائلة والسريعة في تكنولوجيا التواصل السمعي والبصري، وتوظيف مثل هذه الإمكانيات بما يخدم كل أنواع التراث من مخطوطات لتصويرها وتوثيقها ونشرها على نطاق واسع، وتراث مادي يتمثل في آثارنا الكثيرة المتنوعة عبر العصور المختلفة ومحاولة استردادها، وتراث سمعي غير مادي وتسجيله وتوثيقه للحفاظ عليه من التشويه والتحريف والاندثار.

### واجبنا نحو تراثنا ومخطوطاتنا:

إذا كان للتراث بكل أنواعه وأشكاله المختلفة هذه الأهمية الكبرى فلا مندوحة لنا من أن نحافظ عليه، وأن نعمل بشتى الطرق لوضعه في المكانة اللائقة التي يستحقها وذلك من خلال ما يأتي من إجراءات وتدابير، ومن أهمها: أولاً: لا بد من العناية بهذا التراث وتوثيقه واستثمار معطيات العلم والتكنولوجيا الحديثة والجانب الإيجابي من العولمة في هذه العناية وهذا التوثيق. ثانياً: ينبغي تحقيق المخطوطات التي لم يتم تحقيقها؛ وذلك بمقابلتها بنسخ مختلفة سواء في البلد الموجودة بها هذه المخطوطة أو في بلدان مختلفة؛

ولهذا ينبغي أن ترصد لهذا العمل ميزانية تكفل القيام بهذا الدور على خير وجه ممكن.

**ثالثاً:** العمل على فهرسة هذا التراث وتصنيفه، سواء الموجود منه في البلاد العربية أو الإسلامية أو حتى في البلاد الغربية، ونشر هذه الفهرسة في كتب بحيث تصبح متاحة للباحثين والدارسين لتوفير الجهد والوقت في عمليات البحث والتنقيب لعملية التحقيق ذاتها.

**رابعاً:** لا بد من بذل المحاولات الجادة لاستعادة تراثنا المفقود ومخطوطاتنا العربية المهجرة، حتى لو اضطررنا للجوء إلى المحاكم الدولية في هذا الشأن، وحتى لو كلفنا هذا شراءها.

**خامساً:** تشجيع إنشاء مراكز للحفاظ على التراث وتحقيق المخطوطات بالجامعات المصرية والعربية المختلفة، وربطها ببعضها البعض، مع تنسيق التعاون فيما بينها وبين معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية؛ حتى يمكن استثمار الجهد والوقت والمال على أفضل وجه ممكن، خاصة بالنسبة لتحقيق ونشر المخطوطات، وتجنب التكرار في العمل الواحد في أكثر من جهة بحثية، ويفيد في هذا الصدد إنشاء قاعدة بيانات خاصة بهذه المخطوطات لما أنجز منها وتم تحقيقه، وما هو قيد التحقيق، وما هو مزمع تحقيقه مستقبلاً.

**سادساً:** رصد المكافآت السخية والجوائز القيمة لأولئك النفر من الجنود المجهولين الذين يقومون بجهد مشكور في تحقيق المخطوطات النادرة، وإخراجها بالصورة اللاتقة شكلاً وموضوعاً في هدوء وصمت بعيداً عن الأضواء.

**سابعاً:** العمل بكل الطرق على زيادة الوعي المجتمعي بأهمية التراث وضرورة صيانته والمحافظة عليه حفاظاً على الهوية والشخصية القومية، وليكن هذا ضمن أولويات واهتمامات قطاعات "خدمة المجتمع وشئون البيئة" في جامعاتنا وكلياتها المختلفة كل في مجاله.

**ثامناً:** ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي غير المادي ونعني به التراث الشفاهي الذي تكوّن عبر تراكمات متعاقبة خلال المراحل التاريخية المختلفة التي مرت بأمتنا وشعبها؛ لكونه يمثّل الملامح والقسمات التي تميزها عن غيرها.

### التجديد والتراث في عصر العولمة:

من القضايا القديمة المتجددة قضية تجديد التراث، وهي قضية يمكن أن يساء فهمها؛ ومن ثم استغلالها في محاربة التراث ذاته أو التهوّن من شأنه؛ بل ومحاولة تقويضه بوسائل شتى بحجة هذا التجديد المزعوم!

ورحم الله الشيخ أمين الخولي فهو واحد ممّن أدركوا خطورة وأهمية التراث، وفي الوقت نفسه أدرك أهمية التجديد ودعا إليه ولكن بشروط صارمة؛ ولذا أطلق مقولته الشهيرة: "من يريد التجديد فعليه أن يقتل التراث بحثاً"، والمعنى: أن التجديد لا بد أن ينطلق من فهم التراث واستيعابه جيداً، وليس بالنفور منه والدعوة إلى مقاطعته أو إلغائه. فالتراث كنز ثمين لمن أراد بحق وصدق أن يُجَدِّد ولا يَنَبِّد. وعلى هذا فلا يصح لبعض من يدسون أنوفهم في هذه القضية وهم في الوقت ذاته لم يعرفوا قيمة وقدّر هذا التراث من خلال قراءته ودراسته ووعيه أن يتصدوا لقضية التجديد هذه؛ إذ كيف يحكمون على شيء

يجهلونه؟ والقاعدة الأصولية تقول: "الحكم على الشيء فرع من تصوره" بمعنى: أنه لكي يتم إصدار الأحكام على الأشياء (أقوال أو أفعال أو تصرفات معينة) لا بد من تصور تلك الأشياء المعروضة لإصدار الحكم لها أو عليها، بمعنى فهمها واستيعابها بدرجة تمكن الناظر فيها من أخذ فكرة متكاملة عنها حتى يأتي حكمه صائبًا أو قريبًا من الصواب.

وعلى النقيض مما يتردد على الدوام في بعض الكتابات ووسائل الإعلام من أن المؤسسات الدينية التقليدية غارقة في التاريخ، ولا يمكنها أن تتواصل مع مخرجات عصرها أقول: على الرغم من كل هذه المغالطات والادعاءات فإن محاولات التجديد إنما انطلقت من تلك المؤسسات التي تُعنى بتدريس العلوم والمعارف الإسلامية؛ ومن ثم انخرطت في نقاشها وسجلاتها بل وفي معاركها إن اقتضى الأمر. ففي مصر على سبيل المثال خرج من الأزهر الشيخ رفاع رافع الطهطاوي، والأستاذ الإمام محمد عبده، والأستاذ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الشيخ علي عبد الرازق، والدكتور محمد عبد الله دراز، والأستاذ خالد محمد خالد، والدكتور محمد مصطفى حلمي، وغيرهم.

وقد أثار معظم هؤلاء، كل في عصره، مسائل غير مألوفة وغير مكررة وقد تصطدم بما هو مألوف مما أثار حراكًا فكريًا، على الرغم من اختلافهم طبقًا لمواهبهم وسياقات تكوينهم اعتمادًا على ما فهموه من التراث في ضوء العصر الذي عاشوا فيه وتعلموا فقه واقعه.

ونحن بدورنا لم نكن نلج هذا الباب لولا أنه مرتبط بصورة أو بأخرى بالهجوم الغاشم للعولمة التي تريد تدمير الشعوب والمجتمعات، وتزرع هويتها، وتصبغها بصبغتها سلوكًا وثقافة؛ بل وانتماءً أيضًا. وقد يقع في فخها بعض ممن لم يتعمق من الثقافة ويتحصن بالوطنية والانتماء عن طريق التمسك بتراته العريق، فيجري مجراها ويسير على هواها.

ولهذا فإن الهوية العربية الإسلامية التي تتأكد وتتدعم عن طريق إرثنا وتراثنا الحضاري المتلائم والمواكب لسياق العصر الذي نعيش فيه هي بحق السبيل والملاذ الوافي من الذوبان والانسحاق في أتون ما نواجهه من تراجع وتخلف وتبعية، وهي من جهة أخرى الترياق الذي يحول دون انجرافنا في موجة العولمة العاتية التي تريد أن تسلبنا شخصيتنا وفرادتنا وهويتنا؛ ومن ثم وجودنا ذاته.

ومن أصوب المواقف تجاه هذه الهجمة الشرسة التي تتعرض لها الأمتان: العربية بوجه خاص والإسلامية بوجه عام، ألا نغلق النوافذ تمامًا لحماية هذه الهوية الثقافية والحضارية، بل ينبغي أن نعمل على تحصين الذات واستثمار الذخائر الإيمانية المستكنة في الصدور، وأن أول ما يُوصى به هو الحرص على ألا يدفعنا الواقع الأليم لأمتنا العربية الإسلامية إلى حافة التشاؤم أو اليأس؛ إذ هو واقع مؤقت قياسًا على ما مرَّ بها من نكبات وأزمات خلال مسيرتها الطويلة الممتدة نحو أربعة عشر قرنًا من الحروب الصليبية، والغزو التتاري، والاستعمار الغربي الحديث، بل ينبغي أن يدفعنا هذا إلى تغلب بواعث

الأمل في مستقبل أفضل وذلك بالحث على استفنار عوامل المقاومة والتصدي، وهي ذاتها التي ستعمل على المحافظة على هوية الأمة أيضاً. فقد دأبت هذه الأمة عند مقابلة الأخطار طيلة تاريخها على استخراج مكنون الذخائر الإيمانية من القلوب وتعبئتها من النفوس بواسطة علمائها لتتدبر أسباب الهزائم في ضوء السنن الإلهية بالكتاب الكريم، ولنسترشد بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن أحد أهم أسباب الهزائم هي مخالفة تعاليمه، والتفريط في اتباع سنته، وكان هذا هو الدرس الأول في ما حدث في موقعة أحد، والدرس الأخير في هزيمة يونيو 1967م، ثم تحقق النصر حينما أخذنا بالأسباب وهتفنا في الوقت ذاته بشعار "الله أكبر" (15).

إن مضمون التراث العربي الإسلامي والحفاظ عليه وتمثله يظل عاملاً مهماً من عوامل وجودنا؛ ذلك أنه يشكّل ثقلاً نوعياً يمنع الجماعة من التحول إلى ورقة في مهبّ رياح الثقافات الواحدة، ويعصمها من الجريان وراء كل بدعة، ويحميها من محاولات طمس المعالم التي تُميز الشخصية العربية المستقلة، وهي محاولات لسلب الجماهير العربية أساسها الحضاري القديم الذي يمكن أن تشيّد عليه مستقبلها دون أن تتوقع على ذاتها؛ لذلك كان السعي الجاد لإيجاد صيغة لهوية ثقافية تلتقي فيها أصولنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي نعيش فيه، صيغة قوامها أصول رئيسية من التراث العربي وأصول أخرى مناسبة من مقومات ومكونات عصرنا الحاضر (16)، على نحو ما أوضحه وفصله المفكر الفيلسوف زكي نجيب محمود في كتابه المهم "تجديد الفكر العربي" (17).

### الهوامش والتعليقات:

- (1) فيصل يوسف أحمد العلي (2014). علم المخطوط العربي: بحوث ودراسات. سلسلة "الوعي الإسلامي"، الإصدار التاسع والسبعين. الكويت. ص 5.
- (2) د. شاكراً مصطفى (1978). مقدمة كتاب: تراث الإسلام. الجزء الأول. سلسلة كتاب عالم المعرفة، العدد رقم 1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ص 12.
- (3) د. حسين نصار (2003). التُّراث.. لماذا؟ مقال في مجلة: "تراثيات" التي يصدرها مركز تحقيق التُّراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، العدد الأول الصادر في يناير 2003. ص 14.
- (4) د. يونس الشديفات (2018). الأوراق العلمية المحكمة الخاصة بالمؤتمر الدولي بعنوان: "تراثنا بين الاستدامة والأزمات". الأردن. ص.د.
- (5) د. محمد جمال طحان (1994). "قراءة التُّراث" بين النص المفتوح والنص المغلق. مجلة "الفكر العربي" العدد الخامس والسبعون، ص 129.
- (6) المصدر السابق الموضوع نفسه.
- (7) المصدر السابق، ص 129.
- (8) المصدر السابق رقم 2، ص 8.
- (9) د. السيد على النشار (1997). في المخطوطات العربية. دار الثقافة العلمية بالإسكندرية. ص 6.
- (10) المصدر السابق، ص 5.

- (11) د. عبد الكريم اليافي (1981). بيت بني زهر الإيادي الإشبيلي الطبي والأدبي. مقال بمجلة "الكاتب العربي"، دورية فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، السنة 1، العدد 1، ص 16.
- (12) المصدر السابق، ص 17.
- (13) عباس محمود العقاد (1932). تذكارات جيتي. الطبعة الأولى. مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة. ص 118.
- (14) علي عفيفي غازي (2021). بين عالمية الإسلام والعولمة. الموقع الإلكتروني لمجلة حراء.
- (15) د. محمد مصطفى حلمي (2001). حضارة العصر: الوجه الآخر. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. الإسكندرية. ص 80.
- (16) محمد قرانيا (1996). التراث والأصالة المعاصرة: ملامح ونظرات. مجلة المعرفة السورية، عدد 390، مارس- أبريل، ص 39.
- (17) د. زكي نجيب محمود (1993). تجديد الفكر العربي. الطبعة التاسعة. دار الشروق. القاهرة. ص 1-388.



## لغة إعلامية

### الإعلام والتراث العربي المخطوط

## Media and Arabic manuscript heritage

عبد الرحمن هاشم \*

[abhashem2009@gmail.com](mailto:abhashem2009@gmail.com)

"إرثنا المخطوط في زمن العولمة" شعار حملته الاحتفال بيوم المخطوط العربي 31 مارس 2022 م الذي نظّمته منظمة التربية والثقافة والعلوم "الأيسكو" بالتعاون مع جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا وعُقد بأوبرا الجامعة وهو حقًا يومٌ عظيم أسعدني. ومع ذلك، وبينما كنت أستمع وأستمع بكلمات العلماء الخبراء والتحديات الهائلة التي تتربص بالإرث المخطوط في هذه المتاهة التي يمر بها عالم اليوم من إعادة توزيع الأدوار وترتيب الأوراق ورسم الخرائط وما تمر به الأمتان العربية والإسلامية من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، تساءلت عما إذا كنا نشهد أيضًا شكلاً من أشكال التقلص في الدور الإعلامي المنوط به خدمة هذا التراث المخطوط في شهر الاحتفال به من كل عام، وهو الحدث الذي كنا نأمل أن يكون على الخريطة الإعلامية العربية بكافة درجاتها وتنوعاتها.

---

\* الخبير الإعلامي بمركز تحقيق التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ورئيس تحرير موقع العالم اليوم نيوز.

من احتفال إلى احتفال، يبدو أنّ حظّ المخطوط العربي من الاهتمام الإعلامي قليل. ومهما كان الأمر، فلا يزال الاحتفال بيوم المخطوط أو بالإرث المخطوط بالنسبة للمتسكين باللغة والهوية العربية حدثاً لا غنى عنه.

لقد تساءل الأستاذ الدكتور الراحل محمد فوزي جاب الله -الخبير بمركز تحقيق التراث العربي بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا- عن دور الإعلام في التعريف بإرثنا المخطوط في أبريل الماضي.

لم يكن أبداً راضياً عن هذا الدور بينما يحتشد هذا الإعلام العربي بجميع وسائله للترويج لأيّ شيء يأتي من الآخر الخارجي.

قد يتعارض مشهد تخصيص أيام للاحتفال بالهوية واللغة والتراث والعلم وهذه القيم الأصيلة التي ينساها البعض في خضم الانشغال بالبحث عن لقمة العيش مع فكرة الانجاز والعمل والإسقاط على الواقع المعاصر. ولكن بعد التفكير في الأمر عن كثب، وكما نستدعي هذه القيم في احتفالاتنا الدورية بها، نستفسر ونعيد التفكير في كلمات هذا التراث التي نُقِشت من خلالها الأفكار والرؤى والتصورات السامية التي انبثقت من أذهان علمائنا في السابق وبما لا يشكك في كونهم قد انفتحوا على فهم لتراثهم أيضاً فجددوا وأضافوا وأبدعوا ولم ينفصلوا مطلقاً عن قديمهم.

وكما أبدع أستاذنا الجليل الدكتور كمال عرفات نبهان نظريته غير المسبوقة وهي نظرية "البليوجرام" وعرفنا منها كيف تستدرج الكتب بعضها البعض، والأفكار بعضها البعض، لا بد أن نستفيد من هذه العلاقات التي

امتدت عبر الزمان بين الأعمال والمؤلفين. وبين الكتب التي تتعارض مع بعضها البعض، والكتب التي تجيب عن بعضها البعض.

ولكي يتحصّل الاستكشاف تأتي أهمية المخطوط في الرجوع إلى كلمة أو مفهوم أو كلامٍ منقوش، ومن خلال البحث والتنقيب يتقدّم الباحث ويتقدّم معه العلم.

### وماذا يُفيد الإعلام؟

الإعلام هنا مفيدٌ في اكتشاف المخطوط والاعتناء به وبناشريه ومحققه. ومفيدٌ أكثر وأكثر وقت أن يعرف بالفعل كيفية ترجمة المخطوط وجعله معاصرًا في نهاية المطاف.

إننا لا شك نكون أعداء أنفسنا وقت أن نقطع الصلة بهذا التراث المخطوط وبخاصة أن من نظنهم أعداء لنا هم أكثر الناس اهتماما بحياتنا مخطوطاتنا القديمة التي تعود بنا إلى ألف عام أو يزيد!

إنهم يشجعون كل جهد يبذل في رصد المخطوطات أو جمعها وفهرستها وترميمها وحفظها، ثم في تحقيق نصوصها ومعالجة نماذجها نسخًا وقراءة وحلا لمشكلاتها واستجلاء لغوامضها، ويتناولونها بالدراسة والتحليل بحثًا عما يمكن أن تتضمنه من معلومات قد تفيد أو لا تفيد.

### وماذا يُفيد التعليم؟

التعليم هو نقطة الانطلاق، ومن المفيد هنا أن أقول: دنني على كلية واحدة من كليات الإعلام يوجد بين مقرراتها مقرر يربط بين التاريخ والحاضر؟

إن المملكة المتحدة تقرر على طلاب الصف الأول الثانوي مجلدا إجباريا عن تاريخ بريطانيا. وهذا بدوره يثير مسألة المكانة التي يحتلها تدريس التاريخ في المجتمع العربي المعاصر. إنه للأسف الشديد مقررا اختياريا وليس إجباريا!

وأستحضر هنا ما قاله الأستاذ الدكتور كمال عرفان نبهان وتندر به: لا يليق بطالب جامعي أن يعلق في ذهنه أن العصر الفاطمي أقدم من العصر الفرعوني ويكتب ذلك في ورقة الإجابة!

وحيثما يستدعي الطالب ويناقشه، دار هذا الحوار الذي يعكس حالة التعليم في بلادنا:

- يا بني: كتبت أن العصر الفاطمي أسبق من العصر الفرعوني؟
- نعم أستاذي.
- يا بني: هل رأيت الجامع الأزهر؟
- نعم أستاذي.
- وهل رأيت الأهرامات؟
- نعم أستاذي.
- فأيهما أقدم في نظرك؟
- صمت.

وإذا كان الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا الذي بح صوتته في الدعوة إلى وضع مقررات دراسية في تاريخ العلم يرى أن هناك تحيزاً واضحاً في الاهتمام العالمي بتراث العلماء الغربيين دون غيرهم فإن مما يحزن حقاً تجاهل أو نسيان تاريخ حضارتنا العربية الإسلامية التي ظل علماءها الرواد لأكثر من ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علماً وفناً وأدباً ومدنية!

هل تم التعريف بمؤلفاتهم ومخطوطاتهم المفقودة، أو التي لا تزال بكرة في مظانها المختلفة بأحاء متفرقة من العالم، حتى تحظى بالبحث والدراسة من جموع الباحثين المعاصرين؟

ولا زال الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا ينادي بوضع مقررات لتاريخ العلوم في الجامعات العربية تتيح لطلاب هذه الجامعات الوقوف على الأسس التي تقوم عليها العلوم التي درسوها ومن ثم انتشار الفهم العميق للماضي العلمي والتقني بينهم فيخرج الواحد منهم وهو يحترم تراثه ويكون عليه من السهل إدراك أن بعض الاكتشافات التي تقدم اليوم على أنها إنجازات ثورية وإبداعية غير مسبوقة، قد لا تكون في الحقيقة سوى إعادة تشكيل لبعض الأفكار القديمة التي أهملت وغمرها النسيان لسنين عديدة.

إذن، المطلوب خطة مدروسة لتدريس التاريخ لطلاب الإعلام تجعلهم أكثر اهتماماً بالتراث المخطوط عند العرب والمسلمين، وتجعلهم بعد تخرجهم أكثر استعداداً لمناقشة قضايا هذا التراث واستشراف مستقبله، وكشف حالات الغش الفكري والقرصنة العلمية من قبل بعض المؤرخين والنقلة والمستشرقين.

وحتى توضع هذه المناهج وحتى يدرسها الجيل الحالي، ينبغي على الحكومات العربية وضع سياسة إعلامية شاملة، تنفذها وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، تتخذ موقف المدافع عن التراث بما تسوقه على السنة خبراء هذا التراث وعلمائه من أدلة مقنعة تؤكد أهميته ومكانته في حياتنا المعاصرة والآتية، وبالتالي تقديم رسالة مفادها ضرورة أن نعمل على رعايته والإفادة منه في حاضرنا ومستقبلنا.

وأرى أنه من الأهمية بمكان استغلال الثورة الرقمية والتقنيات الحديثة في توثيق المواد التراثية، والعمل على إبرازها ونشرها وتسويقها من خلال الأفلام التسجيلية وفن الجرافيك مروراً بإنتاج مسلسلات السيرة الذاتية لعلماء الحضارة الإسلامية الذين خدموا البشرية بإنتاجهم العلمي المخطوط، وتأسيس أبواب خاصة بالتراث في الصحف والمواقع والمجلات تستكتب علماءه والمتخصصين فيه وتشر أخباره وتتابع فعالياته ومهرجاناته ومعارضه داخل الوطن العربي وخارجه.

وأحسب أن هذه الوسائل يمكن أن تقوم بدور كبير في النود عن هذا التراث وحمايته من السرقة والتزييف والتدمير بما تستبقه من عمليات توثيق بالصوت والصورة.

إن المهام المأمولة من واضعي الخطة الإعلامية بالنسبة لقضية التراث عموماً والإرث المخطوط خصوصاً تتمثل في (التعريف - التوثيق - النشر

الدفاع)، وبما يقدم منتج إعلامي متميز ذي خصوصية فضلا عن مخاطبة جميع الفئات والوصول بالتوعية التراثية إلى أكبر شريحة من الجماهير. وينبغي على كل وسيلة إعلامية وطنية أن يكون ضمن كادرها مختصون في مجال التراث بأنواعه، حتى تكون المادة المطروحة دقيقة في محتواها، صادقة في مضمونها.

ولا ينبغي أن يفوتنا الحديث عن دور الإعلام في التعريف بالمراكز التعليمية والبحثية المتخصصة في التراث المخطوط ودورها الكبير في الحفاظ عليه من خلال خططها الدراسية التي تغطي جميع جوانبه، وطبع الدراسات المتعلقة به، أو ترجمة ما كتب عنه، أو الاتصال بكل من له اهتمام به من أجل تبادل المعلومات، وذلك من خلال عقد الندوات، أو المشاركة في المعارض الخارجية والمسابقات الثقافية الكبرى.

هذه المراكز والمعاهد لم تحظ بما هو مطلوب من تغطية إعلامية كافية. والمأمول كذلك دعم إنتاج أفلام وبرامج تلفزيونية وإذاعية من أجل نشر الوعي بما تحويه مكتبات العالم من كنوز المخطوطات العربية والتعريف بها من خلال البرامج الوثائقية المتخصصة.

إن العلاقة القائمة بين الإعلام والتراث العربي المخطوط يتحتم أن تكون علاقة تفاعلية متبادلة يخدم كل منهما الآخر، وينبغي أن يستفيد النص التراثي بما يحمل من أفكار من الإعلام في الوصول بشكل أوسع إلى الجماهير

والتعريف به، في حين يستفيد منه الإعلام في الحصول على منتج إعلامي مميز وذي خصوصية يلقي إقبالاً واهتماماً جماهيرياً متفاعلاً. وفي الختام، أدعو منظمة التربية والثقافة والعلوم (الأسكو) وجميع المعاهد والمراكز المعنية بتحقيق التراث وإحيائه في الوطن العربي والعالم الإسلامي، أدعوهم لإعطاء انطلاقة حقيقية لإعلام متخصص يخدم هذا التراث، من خلال تبني إعلاميين وإعدادهم بالدورات المجانية والدبلومات المجانية حتى يكونوا متخصصين ينفعون تراثهم عن علم، ويطلقون البرامج التي توعي الأجيال بقيمة هذا التراث الغني المتنوع، والتي تزود عنه وتدفع عنه الشبهات والافتراءات.



# Misr University Journal for Humanities studies



عدد خاص  
2022

**MISR UNIVERSITY FOR SCIENCE AND TECHNOLOGY** Journal of Human Studies is a scientific journal published by the University under the supervision of the Rector. It has the number ISSN 2735-5861 for international publication and ISSN 2735-587X for electronic publication. It is a semi-annual periodical published in January and July (two issues on linguistics and literature, and two issues on social and humanities).

The magazine publishes researches - in Arabic and foreign languages - which have never been published in other journals. It also hosts various types of scientific publications, such as researches, studies, scientific articles, critical reviews, translations, as well as abstracts of MA's and Ph.D. thesis, scientific and literary reviews of various fields, reports of conferences, symposiums and workshops.

The Journal welcomes the serious research work of the Humanities Studies Specialist and the related interdisciplinary studies that enrich its scientific publications; It aims to build a distinct cultural edifice, reflecting Egypt's scientific leadership in the Middle East and befitting its historical and cultural prominent place in the world.

**Prof. Dr. Anas Al Feqi**  
Editor-in-chief



[Jhuman.studies@must.edu.eg](mailto:Jhuman.studies@must.edu.eg)



[www.must.edu.eg](http://www.must.edu.eg)